عَلاقَةَ الضَّرورَةِ تَكونُ بينَ الاعتِقاداتِ الأَخلاقِيَّةِ والطَّبائعِ الدّافِعِيَّةِ التي تُوجَدُ إمّا على نَحوٍ طَبيعِيٍّ لَدى الأفرادِ وإمّا على نَحوٍ طَبيعِيٍّ في مُستَوى المُجتَمَعِ الذي يَنتَمي إليهِ الفَردُ (Blackburn, 1998; Dreier, 1990; Horgan & Timmons, 1992; Lenman, 1999).

الجَوّانِيَّةُ المُتَواضِعَةُ. إذا كانَ لَدى شَخصٍ مّا هوَ س اعتِقادٌ أخلاقِيٌّ هوَ أَنَّ ص خَيرٌ، فضَرورِيٌّ عِندَئذٍ إمّا أن تكونَ لَدى س طَبيعَةٌ دافِعِيَّةٌ تَتَّخِذُ مَوقِفًا إيجابِيًّا مِن ص وإمّا أن يَكونَ س جُزءًا مِن مُجتَمَعٍ يَكونُ فيهِ الاعتِقادُ الأخلاقِيُّ ص مَصحوبًا على نَحوٍ طَبيعِيٍّ بِكَونِ المُؤمِنينَ ذَوِي طَبائعَ دافِعِيَّةٍ تَتَّخِذُ مَوقِفًا إيجابِيًّا مِن ص.

واللاأخلاقِيَّةُ والتَّمرُّدُ الدِّينيُّ يَنسَجِمُ كِلاهُما معَ الجَوّانِيَّةِ المُتَواضِعَةِ. فبِإمكانِ الفَردِ اللاأخلاقِيِّ، تَناغُمًا معَ الجَوّانِيَّةِ المُتَواضِعَةِ، أن يَكتَسِبَ الاعتِقاداتِ الأخلاقِيَّةَ لا أن يَخضَعَ لِتَغَيُّراتِ الطَّبيعَةِ الدّافِعِيَّةِ التي تَحدُثُ على نَحوٍ طَبيعِيٍّ لَدى الفاعِلِينَ في المُجتَمَعِ المُوَسَّعِ. وبِالإمكانِ حُدوثُ التَّمرُّدِ الأخلاقِيِّ بِوَصفِهِ تَغَيُّرًا استِثنائيًّا إمّا لَدى فاعِلٍ لَهُ في ما عَدا ذلِكَ مَظهَرٌ دافِعِيٌّ طَبيعِيٌّ وإمّا لَدى فَردٍ في سِياقِ مُجتَمَعٍ تُوَلِّدُ فيهِ الاعتِقاداتُ الأخلاقِيَّةُ تَغَيُّراتٍ طَبيعِيَّةً في المَظاهِرِ الدّافِعِيَّةِ لأفرادِهِ. فالشَّيطانُ، على سبيلِ المِثالِ، مَلَكٌ وَضيعٌ كانَ في يَومٍ مّا مَدفوعًا بِاتِّجاهِ عَمَلِ ما كانَ يَحكُمُ عليهِ بِأَنَّهُ خَيرٌ (ورُبَّما يُمكِنُ أن يَعُدَّهُ الجَوّانِيُّونَ جُزءًا مِن مُجتَمَعِ المَلائكَةِ الذي مِعيارُهُ هوَ كَونُ الاعتِقاداتِ الأخلاقِيَّةِ هيَ الدّافِعَ لِلمُنضَوِينَ فيهِ عَلى نَحوٍ مُلائمٍ).

ولَمّا كانَ بِالإمكانِ أن تُثارَ حُجَجٌ مُشابِهَةٌ بِالضِّدِّ مِن نُسخَةٍ بَسيطَةٍ لِلجَوّانِيَّةِ الدِّينِيَّةِ كتلكَ الحُجَجِ التي أُثيرَتْ بِالضِّدِّ مِن الجَوّانِيَّةِ الأخلاقِيَّةِ، [57] بَدا مَنطِقِيًّا الشُّروعُ في تَقويمِ الجَوّانِيَّةِ الدِّينِيَّةِ بِاتِّخاذِ الجَوّانِيَّةِ المُتَواضِعَةِ نُقطَةَ الانطِلاقِ. فَهَل مِن المَنطِقِيِّ تَبَنِّي مَوقِفٍ مُفادُهُ ضَرورَةُ أن يَصحَبَ الإيمانُ الدِّينِيُّ بِاللهِ على نَحوٍ طَبيعِيٍّ طَبيعَةٌ دافِعِيَّةٌ تَجعَلُ المُؤمِنَ يَميلُ مَيلًا إيجابِيًّا إلى اللهِ أو وُجودُ هذا

الإيمانِ في مُجتَمَعٍ يَصحَبُهُ فيهِ على نَحوٍ طَبيعِيٍّ امتِلاكُ المُؤمِنِ طَبيعَةً دافِعِيَّةً مُرضِيَةً لِلّهِ؟ وإلى حَدٍّ مّا يُمكِنُ أن يُقالَ عن الجَوّانِيَّةِ الدِّينِيَّةِ الشَّيْءُ نَفسُهُ الذي يُقالُ عن الجَوّانِيَّةِ الأخلاقِيَّةِ لأنَّ الكَثيرَ مِن الاعتِقاداتِ الدِّينِيَّةِ تَفرِضُ في ما يَبدو التِزاماتٍ على المُعتَقِدِ. مِثالُ ذلكَ أنَّ الاعتِقاداتِ المُتَعلِّقَةَ بِما يَأمُرُ بِهِ اللهُ البَشَرَ أو يَنتَظِرُهُ مِنهُم، والاعتِقاداتِ المُتَعَلِّقَةَ بِما يَجِبُ فِعلُهُ لِلحُصولِ إلى الخَلاصِ، والاعتِقاداتِ المُتَعلِّقَةَ بِما نَدينُ بِهِ لِلّهِ بِوَصفِهِ خالِقَنا، والاعتِقاداتِ المُتعلِّقَةَ بِكَيفِيَّةِ تَناغُمِنا مَعَ التَّدابيرِ الإلهِيَّةِ، كُلُّ أُولئكَ يتضَمَّنُ اعتِقاداتٍ مِعيارِيَّةً تتعلَّقُ بِما يَجِبُ علينا فِعلُهُ دينِيًّا وأَخلاقِيًّا. لِذلكَ، إن تَكُنِ الجَوّانِيَّةُ الأَخلاقِيَّةُ صَحيحَةً فالجَوّانِيَّةُ الدِّينِيَّةُ صَحيحَةٌ أَيضًا في قِسمٍ كَبيرٍ مِن الحالاتِ. ولا شَكَّ في وُجودِ كَثيرٍ مِن الجُمَلِ الدِّينِيَّةِ التي هيَ لَيسَتْ مِعيارِيَّةً أو تَقويمِيَّةً بِوُضوحٍ بَل لَها طابَعٌ أَكثَرُ نَظَرِيَّةً، كجُملَةِ 'اللهُ مَوجودٌ' وجُملَةِ 'اللهُ كُلِّيُّ القُدرَةِ' وغَيرِهِما مِن الجُمَلِ التي تَصِفُ طَبيعَةَ اللهِ. وقَد بُيِّنَ سابِقًا أَنَّ الجَوّانِيَّةَ المُتَواضِعَةَ لا تَتَّخِذُ سِياسَةَ تَقريرٍ مُحَدَّدَةً تَرتَبِطُ بِاعتِقادٍ دينِيٍّ مُعطًى. على أنَّ بِإمكانِ الجَوّانِيِّينَ أن يُشيروا إلى أَنَّ تَبَنِّيَ اعتِقادٍ دينِيٍّ جَديدٍ يَصحَبُ على نَحوٍ طَبيعِيٍّ تَغَيُّراتٍ مُختَلِفَةً في سُلوكِ المُعتَقِدِ، وتَصَرُّفاتِهِ، ومَواقِفِهِ. وإنَّ التَّغَيُّراتِ الجَوهَرِيَّةَ في مَواقِفِ الشَّخصِ وحَياتِهِ التي عادَةً ما يُوَلِّدُها التَّحَوُّلُ الدِّينِيُّ هيَ أَسهَلُ ما يُمكِنُ أن يُلحَظَ مِن نَماذِجِ التَّغَيُّراتِ في طَبيعَةِ الفاعِلِ الدّافِعِيَّةِ التي تَصحَبُ الاعتِقادَ الدِّينِيَّ.

وتَأويلُ الجَوّانِيَّةِ الدِّينِيَّةِ بِهذهِ الطَّريقَةِ المُتَواضِعَةِ لا يُعَرِّضُها لأَيَّةِ مُشكِلَةٍ تُسَبِّبُها الحالاتُ الواضِحَةُ التي يُمكِنُ أن تُقَدِّمَها الأَمثِلَةُ المُضادَّةُ البَرّانِيَّةُ لِلاعتِقادِ الدِّينِيِّ الذي لا يَرتَبِطُ بِهِ دافِعٌ. إذ يَبدو مُمكِنًا، على سبيلِ المِثالِ، أن يَكونَ بِوُسعِ المَسيحِيِّينَ المُنهَمِكينَ انهِماكًا تامًّا في الحَياةِ الدِّينِيَّةِ - مِن ذَهابٍ إلى الكَنيسَةِ، وصَلاةٍ، وأن يَكونوا أَفرادًا فَعّالينَ في المُجتَمَعِ الدِّينِيِّ - أَن يُصبِحوا مِن بَعدُ غَيرَ مَدفوعِينَ وغَيرَ مُنهَمِكِينَ مِن غَيرِ أن يَفقِدوا بِذلكَ اعتِقاداتِهِم الدِّينِيَّةَ. على أنَّ هذا يَنسَجِمُ مَعَ الجَوّانِيَّةِ الدِّينِيَّةِ، لأنَّ المُعتَقِدِينَ كانوا في وَقتٍ مِن الأَوقاتِ مَدفوعِينَ بِالطَّريقَةِ الطَّبيعِيَّةِ. ثُمَّ إنَّ المُعتَقِدِينَ جُزءٌ مِن مُجتَمَعٍ دينِيٍّ أَوسَعَ يَتَّصِلُ فيهِ الاعتِقادُ

الدِّينيُّ على نَحوٍ طَبيعيٍّ بِطَبائعَ دافِعِيَّةٍ. وثَمَّةَ مُشكِلَةٌ كامِنَةٌ أُخرَى تُواجِهُ الجَوّانِيَّةَ، تَنبَثِقُ مِن مُناقَشاتِ طَبيعَةِ الإيمانِ، هيَ الاعتِقاداتُ الدِّينِيَّةُ لِلشَّياطينِ: فهيَ تَعتَقِدُ وُجودَ إلهٍ لكِنَّها لَيسَتْ مَدفوعَةً على نَحوٍ مُناسِبٍ لِلتَّصَرُّفِ بِمُقتَضَى هذا الاعتِقادِ. ولا يُعَدُّ الشَّياطينُ غَيرَ مَدفوعِينَ تمامًا - فَـ 'الشَّياطينُ تُؤمِنُ وتَرتَعِدُ' (يَعقوب 2: 19) - لكِنَّهُم [58] مَدفوعونَ بِأنواعٍ خاطِئَةٍ مِن الطَّرائقِ؛ أي إنَّهُم يَخافونَ اللهَ ويَكرَهونَهُ. ويُشبِهُ هذا المِثالُ مُشكِلَةَ التَّمَرُّدِ الأخلاقِيِّ المُثارَةَ بِالضِّدِّ مِن الجَوّانِيَّةِ الأخلاقِيَّةِ التي تَكونُ فيها اعتِقاداتُ الشَّيطانِ الأخلاقِيَّةُ مَصحوبَةً بِدافِعٍ لِفِعلِ ما هوَ خَطَأٌ. فشَيطانُ مِلتن يَعتَقِدُ أيضًا وُجودَ إلهٍ وهوَ مَدفوعٌ إلى تَحَدِّي اللهِ وتَعويقِ تَدبيراتِه. على أنَّ ما يُقَدِّمُهُ التَّمَرُّدُ على اللهِ مِن مُضادَّةٍ لِلجَوّانِيَّةِ الدِّينِيَّةِ المُتَواضِعَةِ لا يَفوقُ في إلزامِهِ ما يُقَدِّمُهُ التَّمَرُّدُ الأخلاقِيُّ مِن مُضادَّةٍ لِلجَوّانِيَّةِ الأخلاقِيَّةِ المُتَواضِعَةِ. فالشَّياطينُ لَيسُوا نَماذِجَ لِفاعِلِينَ ذَوِي دَوافِعَ أخلاقِيَّةٍ طَبيعِيَّةٍ. ثُمَّ إنَّ حالَةَ الشَّيطانِ (ورُبَّما الشَّياطينِ الآخَرينَ) تَنطَوي على وُجودِ زَمَنٍ كانَ فيهِ مَدفوعًا على نَحوٍ أكثَرَ مُلاءَمَةً لِيَتَصَرَّفَ بِمُقتَضَى إرادَةِ اللهِ. لِذلكَ لا تُفسِدُ هذهِ الحالاتُ التَّنَوُّعَ المُتَواضِعَ لِلجَوّانِيَّةِ الدِّينِيَّةِ.

لكِن ما صِلَةُ هذهِ المُناقَشَةِ لِلسّايكولوجيا الأخلاقِيَّةِ والدِّينِيَّةِ بِنَظريّاتِ اللُّغَةِ الدِّينِيَّةِ؟ فما دامَتِ التَّقريراتُ المُخلِصَةُ لِلجُمَلِ الدِّينِيَّةِ الإخبارِيَّةِ تُعَبِّرُ عُرفِيًّا عن اعتِقاداتٍ دينِيَّةٍ(2)، فَلِلنَّظرِيَّةِ الجَوّانِيَّةِ كذلكَ تَأثيراتٌ في تَأويلِ الجُمَلِ الدِّينِيَّةِ: فهيَ تُستَعمَلُ عُرفِيًّا لِلتَّعبيرِ عن حالاتٍ ذِهنِيَّةٍ لَها صِلَةٌ ضَرورِيَّةٌ بِالطَّبيعَةِ الدّافِعِيَّةِ لِلمُتَكَلِّمِ. فالجَوّانِيَّةُ إذَن لا تَقتَصِرُ على الإشارَةِ إلى خَصيصَةٍ مُمَيِّزَةٍ مُهِمَّةٍ لِسايكولوجيا الاعتِقادِ الدِّينِيِّ بَل تُشيرُ أيضًا إلى خَصيصَةٍ مُمَيِّزَةٍ مُهِمَّةٍ في مَضمونِ التَّقريراتِ الدِّينِيَّةِ.

---

(2) يُلحَظُ أنَّ العَلاقَةَ بينَ التَّعبيرِ المُخلِصِ عن الحالَةِ الذِّهنِيَّةِ وحِيازَةِ هذهِ الحالَةِ الذِّهنِيَّةِ تَتَضَمَّنُ تَعقيداتٍ تَفوقُ التَّعقيداتِ التي ذَكَرتُها هُنا. يُنظَر: Searle (1969)، وRidge (2006). وستَكونُ لَنا عَودَةٌ إلى مَسأَلَةِ التَّقريرِ والاعتِقادِ في القِسمِ الثّالِثِ.

وثَمَّةَ دَليلٌ لُغَوِيٌّ أيضًا يتعلَّقُ بِالتَّقريراتِ الدِّينِيَّةِ يُقَدِّمُ الدَّعمَ لِلجَوّانِيَّةِ[3]. فَلْنَفترِضْ أنَّ مُتَدَيِّنًا مّا يَقرَأُ عن برني مَيدوف Bernie Madoff* فَيستَنتِجُ الآتيَ:

1. أنَّ الطَّريقَةَ المُثلَى التي يُمكِنُ أن تَضمَنَ خَلاصَهُ هيَ أن يَتوبَ مِن ذُنوبِهِ تَوبَةً خالِصَةً. بيدَ أنَّهُ لا يَنوي فِعلَ ذلكَ.

ولْنَفترِضْ أنَّ برني مَيدوف يَقولُ عن نَفْسِهِ:

2. إنَّ الطَّريقَةَ المُثلَى التي يُمكِنُ أن تَضمَنَ خَلاصِي هيَ أن أتوبَ مِن ذُنوبِي تَوبَةً خالِصَةً. بيدَ أنّي لا أنوي فِعلَ ذلكَ.

فإنْ تَكُنِ البَرّانِيَّةُ الدِّينِيَّةُ مُحِقَّةً، فسيَكونُ عندَئذٍ لِلجُملَتَيْنِ (1) و(2) مَضمونانِ قَضَوِيّانِ مُتَشابِهانِ وتَكونانِ مُعَبِّرَتَيْنِ عن اعتِقادَيْنِ مُتَشابِهَيْنِ بِشَأنِ مَيدوف. بَيدَ أنَّ الجُملَةَ (2)، التي هيَ الحُكمُ الذي يُفتَرَضُ أنَّ مَيدوف قَد أصدَرَهُ، تَبدو غَريبَةً عَلى نَحوٍ لا تَبدو عَلَيهِ الجُملَةُ (1). ففي الوَقتِ الذي تَبدو فيهِ الجُملَةُ (1) حُكمًا دينِيًّا مُتَماسِكًا بِشَأنِ مَيدوف، تَجعَلُ الجُملَةُ (2) مَيدوف يَبدو غَيرَ مَنطِقِيٍّ مِن النّاحِيَةِ العَمَلِيَّةِ. إذ يَبدو أنَّهُ لَم يَكُن مَدفوعًا إلى التَّصَرُّفِ بِمُقتَضَى ما يُدرِكُ أنَّهُ مَصالِحُهُ الشَّخصِيَّةُ المُثلَى. فَلِمَ هذا اللاتَناظُرُ في الحالتَيْنِ إنْ كانَ المَضمونُ القَضَوِيُّ فيهِما مُتَشابِهًا؟ [59]

لَدَى الجَوّانِيِّينَ تَفسيرٌ لِذلكَ. فالمُتَكَلِّمُ بِالجُملَةِ (1) يُثْبِتُ وِجهَةَ نَظَرٍ بِشَأنِ ما يَجِبُ فِعلُهُ في حالَةِ مَيدوف مُنسَجِمَةٍ كُلِّيًّا مَعَ نَفيِ أن يَكونَ مَيدوف مَدفوعًا

---

(3) لِلوُقوفِ على نَتيجَةٍ أخلاقِيَّةٍ لِهذِهِ الحُجَّةِ، يُنظَر: Graham Oddie (2009).

* برنارد لورنس مَيدوف (1938-...م). مُستَشارٌ استِثمارِيٌّ، ومُمَوِّلٌ، ورَجُلُ أعمالٍ، ومَصرِفِيٌّ أمريكيٌّ. كانَ الرَّئيسَ المؤَسِّسَ لإحدى الشَّركاتِ الاستِثمارِيَّةِ الرّائدَةِ في وول ستريت، والرَّئيسَ غَيرَ التَّنفيذِيِّ لِسوقِ أسهُمِ نازداك. يُعَدُّ أكبرَ مُحتالٍ ماليٍّ في تاريخِ الولاياتِ المتَّحِدَةِ الأمريكِيَّةِ والعالَمِ، وهوَ يَقضي الآنَ مُدَّةَ سجنٍ قَدْرُها خَمسَ عَشرَةَ سَنَةً. [المُتَرجِم]

بِالطَّريقَةِ المُلائمَةِ لِلتَّصَرُّفِ بِمُقتَضى ما يَجِبُ أن يَفعَلَهُ. أمّا الجُملَةُ (2)، إنْ صَحَّتِ الجَوّانِيَّةُ الدِّينِيَّةُ، فإنَّ مَيدوف يُعَبِّرُ فيها عن اعتِقادٍ دينِيٍّ بِشَأنِ ما يَجِبُ أن يَفعَلَهُ مِن أجلِ أن يُنقِذَ - وهو الذي يَصحَبُهُ (بِالضَّرورَةِ) على نَحوٍ طَبيعِيٍّ امتِلاكُ المُعتَقِدِ طَبيعَةً دافِعِيَّةً مُعَيَّنَةً مَفروضَةً فَرضًا إيجابِيًّا بِاتِّجاهِ إنجازِ هذهِ الغايَةِ - ثُمَّ يَنفي بَعدَ ذلكَ أن يَكونَ مَدفوعًا لِلتَّصَرُّفِ بِمُقتَضى ذلكَ. فالصِّلَةُ الجَوّانِيَّةُ بينَ حِيازَةِ الاعتِقادِ الدِّينِيِّ وطَبيعَةِ المُعتَقِدِ الدّافِعِيَّةِ تُفَسِّرُ غَرابَةَ التَّقريرِ الذي تُمَثِّلُهُ الجُملَةُ (2).

وَلْنُقارِنْ ذلكَ بِحالَةٍ لادينِيَّةٍ (ولاأخلاقِيَّةٍ). فَلْنَفترِضْ أنَّ ضَيفًا في حَفلِ شَرابٍ يَرى أَحَدَهُم يُريقُ نَبيذًا أحمَرَ على البِساطِ. فيَعتَقِدُ الضَّيفُ أنَّ خَيرَ وَسيلَةٍ لإزالَةِ بُقعَةِ النَّبيذِ الأحمَرِ هيَ صَبُّ نَبيذٍ أبيَضَ عليها. ويَتَبَيَّنُ أنَّ صاحِبَ الحَفلِ يَعتَقِدُ هوَ أيضًا صِدقَ ذلكَ لكِنَّهُ لا يَرغَبُ في التَّصَرُّفِ بِمُقتَضى هذهِ النَّصيحَةِ. فالذي يَستَنتِجُهُ الضَّيفُ هوَ:

3. أنَّ خَيرَ وَسيلَةٍ لإزالَةِ بُقعَةِ النَّبيذِ الأحمَرِ مِن البِساطِ هيَ صَبُّ نَبيذٍ أبيَضَ عليها. بيدَ أنَّ صاحِبَ الحَفلِ لا نِيَّةَ لَدَيهِ لِفِعلِ ذلكَ.

في حينِ أنَّ صاحِبَ الحَفلِ يَستَنتِجُ:

4. أنَّ خَيرَ وَسيلَةٍ يُمكِنُني أن أُزيلَ بِها بُقعَةَ النَّبيذِ الأحمَرِ مِن البِساطِ هيَ صَبُّ نَبيذٍ أبيَضَ عليها. بيدَ أنِّي لا نِيَّةَ لَدَيَّ لِفِعلِ ذلكَ.

فالجُملَتانِ (3) و(4) تُعَبِّرانِ عن قَضِيَّتَينِ مُتَشابِهَتَينِ، لكِنْ، كما رَأَينا في الجُملَتَينِ (1) و(2)، لا يُوجَدُ تَناظُرٌ بينَهُما. فمِن المَنطِقِيِّ تَمامًا أن يَستَنتِجَ صاحِبُ الحَفلِ ما تَشتَمِلُ عليهِ الجُملَةُ (4) مِن غَيرِ أَيَّةِ رَغبَةٍ في التَّصَرُّفِ بِمُقتَضى ذلكَ الاعتِقادِ. فَلْنَفتَرِضْ، مَثَلًا، أنَّ صاحِبَ الحَفلِ لا يُعجِبُهُ البِساطُ وأَنَّهُ كانَ قَد هَيَّأَ الأُمورَ أصلًا لِتَبديلِهِ. فإذا كانَ الأمرُ كذلكَ فعِندَئِذٍ رُبَّما لا تَكونُ لَدَيهِ رَغبَةٌ في فِعلِ أيِّ

شَيءٍ لإزالَةِ البُقعَةِ. أو لِنَفتَرِضْ أنَّ صاحِبَ الحَفلِ لا يَستَلطِفُ الضَّيفَ الذي أراقَ النَّبيذَ ويُريدُ أن يَجعَلَ الضَّرَرَ يَبدو أكبَرَ مِمّا هوَ عليهِ في الحَقيقَةِ. فقَد تَكونُ لَدَى صاحِبِ الحَفلِ دَوافِعُ مُختَلِفَةٌ تَجعَلُ التَّكَلُّمَ بِالجُملَةِ (4) أو التَّفكيرَ فيها أمرًا مَنطِقيًا.

وبِإمكانِ الجَوّانِيِّينَ أيضًا أن يُفَسِّروا ما نَجِدُهُ مِن عَدَمِ تَناظُرٍ بينَ الحُكمَيْنِ الدِّينِيَّيْنِ (1) و(2) (وهوَ ما يَنطَبِقُ أيضًا على الأحكامِ الأَخلاقِيَّةِ) لا نَجِدُهُ في أحكامٍ لادينِيَّةٍ أُخرَى مُشابِهَةٍ. فحَقيقَةُ أنَّ الاعتِقاداتِ الدِّينِيَّةَ مُرتَبِطَةٌ بِالضَّرورَةِ بِالطَّبائعِ الدّافِعِيَّةِ لِلمُعتَقِدينَ، في حينِ أنَّ الاعتِقاداتِ المُتعلِّقَةَ بِبُقَعِ البِساطِ لَيسَتْ كذلكَ، تَكشِفُ عَنِ السَّبَبِ الذي مِن أجلِهِ يَبدو التَّكَلُّمُ بِالجُملَةِ (4) أمرًا مَنطِقِيًّا بِخِلافِ الجُملَةِ (2). فالطَّبيعَةُ الاصطِراعِيَّةُ السّايكولوجِيَّةُ لِحالاتِ المُتَكَلِّمِ الذِّهنِيَّةِ المُعَبَّرِ عنها هيَ التي تُفَسِّرُ غَرابَةَ الجُملَةِ (2) بِالقِياسِ إلى الجُملَةِ (4). [60]

لِذلكَ، يُمكِنُ التَّوَصُّلُ إلى تَسويغٍ مَقبولٍ لِلجَوّانِيَّةِ الدِّينِيَّةِ المُتَواضِعَةِ، ويُمكِنُ أن تُصاغَ النَّظرِيَّةُ بِطَريقَةٍ تُفَسِّرُ الصِّلَةَ الوَثيقَةَ بينَ الاعتِقادِ والدّافِعِ الدِّينِيَّيْنِ في الوَقتِ الذي تُعالَجُ فيهِ أيضًا الأَمثِلَةُ البَرّانِيَّةُ المُضادَّةُ.

الجَوّانِيَّةُ والإيمان

على الرَّغمِ مِن أهمِّيَّةِ الجَوّانِيَّةِ الدِّينِيَّةِ بِوَصفِها أُطروحَةً لِسايكولوجيا الاعتِقادِ الدِّينِيِّ زِيادَةً على أهمِّيَّتِها الكامِنَةِ لِتَأويلِ اللُّغَةِ الدِّينِيَّةِ، نادِرًا مّا يُعالَجُ هذا المَوضوعُ مُعالَجَةً مُباشِرَةً. وهذا يُصَعِّبُ عَلى المَرءِ أن يَحكُمَ بِيَقينٍ: أإلى الجَوّانِيَّةِ الدِّينِيَّةِ تَميلُ الوَلاءاتُ في فَلسَفَةِ الدِّينِ أم إلى البَرّانِيَّةِ الدِّينِيَّةِ؟ على أنَّ مِنَ المُفيدِ وَضعَ مُناقَشَةِ الجَوّانِيَّةِ الدِّينِيَّةِ في سِياقِ كِتاباتٍ أُخرَى ذَواتِ صِلَةٍ كَبيرَةٍ تتعلَّقُ بِعَلاقَةِ الاعتِقادِ الدِّينِيِّ بِالدّافِعِ الدِّينِيِّ في فَلسَفَةِ الدِّينِ. وسنَرَى أنَّ ما يُقالُ في مُعظَمِ الحالاتِ يَكونُ إمّا مُعَزِّزًا لِلجَوّانيَّةِ الدِّينيَّةِ وإمّا، في أقَلِّ تَقديرٍ، مُنسَجِمًا مَعَها.

ويُمَثِّلُ كانْت Kant* وفِتغِنشتاين انزياحَيْنِ في هذهِ الأدبِيّاتِ. إذ يُقَدِّمُ كانْت، في أَقَلِّ تَقديرٍ في بَعضِ كِتاباتِهِ في الدِّينِ ولا سِيَّما كِتابُهُ *نَقدُ العَقلِ الخالِص* *Critique of Pure Reason*، الاعتِقاداتِ الدِّينِيَّةَ بِوَصفِها ظَواهِرَ خالِصَةً لِتَوجيهِ الأفعالِ. فهوَ يَقولُ:

> نَحنُ نُصَرِّحُ، على سبيلِ المِثالِ، بِأنَّ الأشياءَ التي في العالَمِ يَجِبُ أن يُنظَرَ إليها على أنَّها تَستَمِدُّ وُجودَها مِن عَقلٍ هوَ الأعلَى. وبِذلِكَ تَكونُ فِكرَةُ [اللهِ] في الواقِعِ ما هيَ إلّا مَفهومٌ استِكشافِيٌّ، ولَيسَتْ مَفهومًا جَلِيًّا. فهيَ لا تُرينا كَيفَ يُشَكِّلُ الشَّيءُ، بَل تُرينا كَيفَ يَنبَغي أن نَسعَى، بِتَوجيهِها، إلى تَحديدِ التَّشكيلِ والارتِباطِ لِلأشياءِ التي في مُتَناوَلِ الخِبرَةِ. (A 671, B 699)
>
> إنَّ فِكرَةَ [اللهِ]، شَأنُها شَأنُ جَميعِ الأفكارِ التَّأمُّلِيَّةِ، لا تَسعَى إلّا إلى صِياغَةِ ما يَأمُرُ بِهِ العَقلُ، وهوَ أن يُنظَرَ إلى كُلِّ ارتِباطٍ في العالَمِ نَظرَةً تَنسَجِمُ مَعَ مَبدَإِ الوَحدَةِ النِّظامِيَّةِ - كما لَو أنَّ كُلَّ ارتِباطٍ مِن هذا القَبيلِ يَرجِعُ إلى وُجودٍ مُفرَدٍ واحِدٍ مُحيطٍ، يُمَثِّلُ العِلَّةَ العُليا والشّامِلَةَ القُدرَةِ.
> (A 686, B 714)

ويَرَى كانْت أنَّ فِكرَةَ الوُجودِ العاقِلِ الأعلَى يَجِبُ ألّا تُفهَمَ على أنَّها تُمَثِّلُ حَقيقَةً دينِيَّةً بَل هيَ تُقَدِّمُ التَّوجيهَ بِشَأنِ كَيفِيَّةِ التَّفَكُّرِ في أمرِ العالَمِ الذي لَهُ القُدرَةُ الكامِنَةُ على أن يَكونَ مُنتِجًا مِن النّاحِيَةِ العِلمِيَّةِ. مِثالُ ذلكَ أنَّ الفِكرَةَ التي مُفادُها أنَّ ثَمَّةَ خالِقًا أعلَى قَد تَقودُ المَرءَ إلى اعتِقادِ أنَّ العالَمَ مَحكومٌ بِقَوانينَ طَبيعِيَّةٍ ضِمنِيَّةٍ بَسيطَةٍ وتَدفَعُهُ إلى البَحثِ عنها. وثَمَّةَ طَريقَتانِ لِتَطويرِ تَعليقاتِ كانْت إلى نَظَرِيَّةٍ لِلإيمانِ الدِّينِيِّ بِاللهِ. [61] إحداهُما (أ) أنَّ الاعتِقاداتِ الدِّينِيَّةَ لاتَمثيلِيَّةٌ، وأنَّ مَضمونَها تَستَنفِدُهُ وَظيفَتُها التَّنظيمِيَّةُ لأفكارِ المُؤمِنينَ وسُلوكِهِم. والأُخرَى (ب) أنَّ

---

* إيمانويل كانْت (1724-1804م). فَيلَسوفٌ ألمانيٌّ مِن بروسيا. كانَ آخِرَ فَيلَسوفٍ مُؤَثِّرٍ في أوروبّا الحَديثَةِ في التَّسلسُلِ الكلاسيكيِّ لِنَظَرِيَّةِ المعرفةِ في عَصرِ التَّنويرِ الذي بَدَأَ بِجون لوك، وجورج باركلي، ودَيْفِد هيوم. أشهَرُ أعمالِهِ: (نَقدُ العَقلِ العَمَلِيّ)، الذي كانَ جُلُّ اهتِمامِهِ فيهِ موضوعَ الأخلاقِ؛ و(نَقدُ الحُكم)، الذي استَقصى فيهِ الجَمالَ والغائيَّةَ. [المُترجِم]

الاعتِقادَ الدِّينيَّ تَمثيليٌّ، بَيدَ أنَّ المُؤمِنينَ لا يُؤمِنونَ حَقًّا بِما يَقولونَ بَل يَستَعمِلونَ الأفكارَ الدِّينيَّةَ بِوَصفِها مُوَجِّهَةً لِكَيفيَّةِ التَّفكيرِ والسُّلوكِ. فالخِيارُ (أ) شَكلٌ مُتَطَرِّفٌ لِنظريَّةِ المَوقِفِ يَبدو أنَّهُ سيُواجِهُ المُشكِلاتِ أنفُسَها التي قادَتْنا إلى رَفضِ اللامَعرِفيَّةِ في مُقَدِّمَةِ هذا الكِتابِ. أمّا الخِيارُ (ب) فهوَ نَوعٌ مِن أنواعِ التَّخَيُّليَّةِ، وهيَ نظريَّةٌ سنُعالِجُها بِالتَّفصيلِ في القِسمِ الثّالِثِ: فخِلافًا لِما يَبدو، لا يُقَرِّرُ المُؤمِنونَ حَقًّا صِدقَ ما يَقولونَ بَل يَنبَغي النَّظَرُ إليهِم على أنَّهُم يَتَصَرَّفونَ *كما لَو* كانَ ثَمَّةَ خالِقٌ أعلَى أو أنَّهُم يَتَظاهَرونَ بِأنَّ ثَمَّةَ وُجودًا كهذا أو أنَّهُم يَنهَمِكونَ في خِطابٍ ومُمارَسَةٍ دينِيَّيْنِ على نَحوٍ مُشابِهٍ لانهماكِنا في التَّخَيُّلِ. وعلى كِلا هذَيْنِ التَّأويلَيْنِ، يُمكِنُ القَولُ إنَّ إسهامَ الاعتِقادِ الدِّينيِّ في حالاتِ الشَّخصِ الذِّهنِيَّةِ يَكمُنُ على نَحوٍ رَئيسٍ في دَورِهِ التَّنظيمِيِّ.

وتُقَدِّمُ مُحاضَراتُ فِتغِنشتاين نَظريَّةً لِلاعتِقادِ الدِّينيِّ تَنظيمِيَّةً مُشابِهَةً، يُمَيِّزُ الاعتِقادُ الدِّينيُّ فيها بِأنَّهُ استِعمالُ 'رَسمٍ'[4]. إذ جاءَ فيها:

> لِنَفتَرِضْ أنَّ شَخصًا مّا اضطَلَعَ بِهذا التَّوجيهِ لِهذهِ الحَياةِ: الإيمانِ بِالحِسابِ الأخيرِ. فكُلَّما فَعَلَ شَيئًا مّا، كانَ هذا نُصبَ عَينَيْهِ. فكَيفَ لَنا أن نَعرِفَ: أيَعتَقِدُ أنَّ هذا سيَقَعُ أم لا؟... إنَّ هذا لَن يُظهِرَهُ الاستِدلالُ العَقليُّ أو اللُّجوءُ إلى الأُسُسِ الاعتيادِيَّةِ لِلاعتِقادِ، بَل يُظهِرُهُ تَنظيمُهُ لِجَميعِ مَفاصِلِ حَياتِهِ. فهذهِ حَقيقَةٌ أقوَى بِكَثيرٍ جِدًّا - السَّبق، واللَّذّاتُ، واللُّجوءُ الدّائِمُ إلى هذا الرَّسمِ. (1966, pp. 53-54)

وليسَ مُرادُ فِتغِنشتاين بِـ 'الرَّسم' واضِحًا تَمامًا؛ ويَبدو أنَّهُ صُورَةٌ ذِهنِيَّةٌ يُحيلُ عليها المُعتَقِدُ حينَ يَتَّخِذُ قَراراتٍ أخلاقِيَّةً أو غَيرَها قَد يَكونُ لَها تَأثيرٌ في مَنزِلَتِهِ في يَومِ الحِسابِ الأخيرِ. إذ يَرَى فِتغِنشتاين أنَّ الدَّورَ التَّنظيمِيَّ لِلرَّسمِ أساسِيٌّ في الاعتِقادِ الدِّينيِّ. أمّا حِيازَةُ المُؤمِنِ ما يَدعوهُ إلى اعتِقادِ صِدقِ الرَّسمِ فغَيرُ أساسِيٍّ في مَذهَبِ فِتغِنشتاين.

---

(4) يُلحَظُ أنَّ هذهِ الفِكرَةَ تُقَدَّمُ في مُحاضَراتِهِ لكِنَّها لَيسَتْ بارِزَةً في كِتاباتِهِ العارِضَةِ في الدِّينِ.

إنَّ الأُطروحَةَ التَّنظيمِيَّةَ لِلاعتِقادِ الدِّينِيِّ التي قَدَّمَها فِتغِنشتاين وكانْت (في بَعضِ كِتاباتِهِما) يُمكِنُ عَدُّها جَوّانِيَّةً بِامتِيازٍ. فحِيازَةُ المَرءِ اعتِقادًا دِينِيًّا تَعني استِنادًا إلى هذهِ الأُطروحَةِ أن تُوَجِّهَ الأفكارُ الدِّينِيَّةُ تَفكيرَهُ وفِعلَهُ تَوجيهًا عَمَلِيًّا. على أنَّهُ ليسَ ثَمَّةَ إلّا القَليلُ مِن الجَوّانِيِّينَ مِمَّن يُحتَمَلُ أن يُقِرَّ بِهذا المَذهَبِ لأنَّهُ عُرضَةٌ لِلأَمثِلَةِ المُضادَّةِ أنفُسِها التي تَتَعرَّضُ لَها النُّسخَةُ البَسيطَةُ لِلجَوّانِيَّةِ. مِثالُ ذلكَ أَنَّهُ يَبدو أَنَّ الفاعِلَ يُمكِنُ أن يَكونَ لَهُ اعتِقادٌ دينِيٌّ بِشَأنِ الحِسابِ الأخيرِ، لكِنْ بِسبَبِ الاكتِئابِ لا يُحدِثُ هذا الاعتِقادُ أيَّ تَغييرٍ في أفعالِهِ ومَواقِفِهِ. أمّا النَّظرِيَّةُ التَّنظيمِيَّةُ فَتُوَلِّدُ الاستِنتاجَ الحَدسِيَّ المُضادَّ الذي مُفادُهُ أنَّ هذا مُحالٌ وأنَّ الفاعِلَ المَعنِيَّ ليسَ لَدَيهِ اعتِقادٌ دينِيٌّ. وتُمَثِّلُ مُشكِلاتُ اللاعَقلانِيَّةِ، واللامُبالاةِ، والتَّمَرُّدِ تَحَدِّياتٍ مُشابِهَةً. [62]

وثَمَّةَ وِجهَةٌ أَشيَعُ كَثيرًا تُعامِلُ الاعتِقادَ الدِّينِيَّ في مُستَوى القيمَةِ الظّاهِرِيَّةِ على أَنَّهُ حِيازَةُ مَضمونٍ تَمثيلِيٍّ لكِنَّها تُقابِلُ بينَ الاعتِقادِ 'المُجَرَّدِ' والطَّبيعَةِ الدّافِعِيَّةِ لِلإيمانِ. فَلْنَنظُرْ في التَّعليقاتِ الآتِيَةِ لِبلانتِنغا على مَوضوعِ الإيمانِ:

> على أنَّ الشَّخصَ المُؤمِنَ لا يَكتَفي بِالإيمانِ بِالدَّعاوَى المَركزِيَّةِ لِلعَقيدَةِ المَسيحِيَّةِ؛ إنَّهُ يَجِدُ أيضًا (عَلى نَحوٍ أُنموذَجِيٍّ) أنَّ مُخَطَّطَ الخَلاصِ كُلَّهُ غايَةٌ في الجاذِبِيَّةِ، والإمتاعِ، والإثارَةِ، وأَنَّهُ مَصدَرٌ لِلرَّوعَةِ المُدهِشَةِ. وهوَ يَستَشعِرُ بِعُمقٍ مِنَّةَ الرَّبِّ لِما أَولاهُ مِن نِعَمٍ ويَستَجيبُ لِمَحَبَّتِهِ المُضَحِّيَةِ بِمَحَبَّةٍ مِن لَدُنهُ... لا بِالوَظيفَةِ التَّنفيذِيَّةِ لِلإرادَةِ في المَقامِ الأَوَّلِ (وَظيفَةِ اتِّخاذِ القَراراتِ، والسَّعيِ في مُختَلِفِ الشُّؤونِ وتَجَنُّبِها)، وإن تَكُنْ هذهِ الوَظيفَةُ مُضَمَّنَةً أيضًا بِلا شَكٍّ، بَل بِوَظيفَتِها التَّأثيرِيَّةِ، وَظيفَتِها المتمَثِّلَةِ في الحُبِّ والكُرهِ، والانجِذابِ أو النُّفورِ، والقَبولِ أو الرَّفضِ. والمُعتَقِدُ، أي صاحِبُ الإيمانِ، يَحوزُ الاعتِقاداتِ الصَّحيحَةَ، لكِنَّهُ يَحوزُ مَعَها أيضًا العَواطِفَ الصَّحيحَةَ. فالتَّحَوُّلُ والتَّجديدُ يُغَيِّرانِ العاطِفَةَ كما يُغَيِّرانِ الاعتِقادَ. (Plantinga, 2000, p. 292)

فمَذهَبُ بلانتِنغا في الإيمانِ بِوَصفِهِ تَأثيريًا ودافِعِيًا يَبدو مُتَعاطِفًا معَ الجَوّانِيَّةِ الدِّينِيَّةِ. بَل إنَّ إدراكَهُ أنَّ لِلإيمانِ آثارًا دافِعِيَّةً أكثَرَ تعقيدًا مِمّا عليهِ حالَةُ 'الوَظيفَةِ التَّنفيذِيَّةِ لِلإرادَةِ' يَنسَجِمُ معَ التَّعديلاتِ المُقتَرَحَةِ لِلجَوّانِيَّةِ التي قادَتْ إلى الصِّياغَةِ المُتَواضِعَةِ لِلنَّظرِيَّةِ. على أنَّ بلانتِنغا لا يُقَدِّمُ إقرارًا صَريحًا بِهذهِ الوِجهَةِ. فاهتِمامُنا إنَّما هوَ بِالجَوّانِيَّةِ بِوَصفِها نظريَّةً تتعلَّقُ بِالاعتِقادِ الدِّينِيِّ، لا بِالإيمانِ وَحدَهُ. فإن كانَ بلانتِنغا يَعتَقِدُ أنَّ المُؤمِنِينَ أو مُجتَمَعاتِ المُؤمِنِين يُمكِنُ أن تُشكِّلَ في الظُّروفِ الطَّبيعِيَّةِ اعتِقاداتٍ مِن غَيرِ أن تَرتَبِطَ بِها طَبائعُ دافِعِيَّةٌ، فبِالإمكانِ عِندَئذٍ أن يُقالَ عنهُ إنَّهُ جَوّانِيٌّ في ما يتعلَّقُ بِالإيمانِ لكِنَّهُ بَرّانِيٌّ في ما يتعلَّقُ بِالاعتِقادِ الدِّينِيِّ. والإجابَةُ عن السُّؤالِ المُتَعَلِّقِ بِمَدى كَونِ بلانتِنغا جَوّانِيًا في ما يتعلَّقُ بِالاعتِقادِ الدِّينِيِّ وكذلكَ في ما يتعلَّقُ بِالإيمانِ ستَعتَمِدُ على الظُّروفِ التي يَحوزُ الفاعِلُ فيها اعتِقادًا دينِيًّا مِن غَيرِ إيمانٍ أو مِن غَيرِ طَبيعَةٍ دافِعِيَّةٍ مُرتَبِطَةٍ بِهِ.

فبلانتِنغا يَرى إمكانَ وُجودِ الاعتِقادِ بِمَعزِلٍ عن الإيمانِ أو عن طَبائعِ الدّافِعِيَّةِ. على أنَّ المَسألَةَ الأساسِيَّةَ تَكمُنُ في مَدَى كَونِ الظُّروفِ التي يُمكِنُ أن يَحدُثَ ذلكَ فيها تَسمَحُ بِها الجَوّانِيَّةُ الدِّينِيَّةُ المُتَواضِعَةُ بِوَصفِها ظُروفًا مُستَثناةً مِن العَلاقاتِ الطَّبيعِيَّةِ الضَّرورِيَّةِ بينَ الاعتِقاداتِ الدِّينِيَّةِ والطَّبيعَةِ الدّافِعِيَّةِ لِلمُعتَقِدِ: وهيَ ظُروفٌ سايكولوجِيَّةٌ مُختَلِفَةٌ، وتَمَرُّدٌ دِينِيٌّ، وأفرادٌ غَيرُ مَدفُوعِينَ في مُجتَمَعِ المِعيارُ فيهِ [63] أن يَكونَ المَرءُ مَدفوعًا، وما إلى ذلكَ. ولا يُقَدِّمُ بلانتِنغا إجابَةً شافِيَةً لِهذهِ المَسألَةِ، بيدَ أنَّ أمثِلَةَ الاعتِقادِ المُجَرَّدِ مِن الإيمانِ التي يُقَدِّمُها مُنسَجِمَةٌ معَ الجَوّانِيَّةِ الدِّينِيَّةِ. مِثالُ ذلكَ أنَّهُ يُعَلِّقُ بِقَولِهِ: 'فالفَرقُ بينَ المُؤمِنِ والشَّيطانِ إذَن يَكمُنُ في منطقَةِ العَواطِفِ: الحُبِّ والكُرهِ، والإعجابِ والإعراضِ، والرَّغبَةِ والمَقتِ. وفي الأصنافِ التَّقليدِيَّةِ، يَكمُنُ الفَرقُ في تَوجيهِ الإرادَةِ' (2002, p. 292). فاعتِقاداتُ الشَّياطينِ الدِّينِيَّةُ، معَ حالاتٍ أُخرَى لِلتَّمرُّدِ الدِّينِيِّ، أَمثِلَةٌ مُنسَجِمَةٌ معَ الجَوّانِيَّةِ المُتَواضِعَةِ. لِذلكَ تُظهِرُ أَمثِلَةُ الاعتِقادِ المُجَرَّدِ مِن الإيمانِ التي يُقَدِّمُها بلانتِنغا أُطروحَتَهُ مُنسَجِمَةً معَ الجَوّانِيَّةِ المُتَواضِعَةِ المُتعلِّقَةِ بِالاعتِقادِ الدِّينِيِّ.

وتَبدو الأُطروحاتُ الأُخرَى المُتعلِّقَةُ بالاعتِقادِ والإيمانِ مُنسَجِمَةً أيضًا معَ الجَوّانِيَّةِ المُتَواضِعَةِ. إذ يُلحَظُ أنَّ الأكوينِيَّ Aquinas*، الذي يُقَدِّمُ في كِتابِهِ *الخُلاصَةُ اللاهوتِيَّة Summa Theologica* ما قد يُعَدُّ أكثَرَ نُسَخِ الإيمانِ عَقلَنَةً بِوَصفِهِ نَوعًا مِن الاعتِقادِ الدِّينِيِّ الرّاسِخِ، يَتَحَدَّثُ عن إيمانٍ 'حَيٍّ' يَجعَلُهُ مُقابِلًا لإيمانِ الشَّياطينِ. إذ يَقولُ الأكوينِيُّ إنَّ الإيمانَ هِبَةُ النِّعمَةِ التي 'أتَمَّها الإحسانُ وكَوَّنَها' (1999, p. 90; II.II.4.3) وهوَ يُقَدِّمُ لِلبَشَرِ 'تَوقًا مُعَيَّنًا إلى الخَيرِ' حتّى حينَ يَكونُ الإيمانُ 'بِلا حَياةٍ' (1999, p. 103; II.II.5.2).

ومِن الفَلاسِفَةِ الذينَ يَبدو أنَّهُم كانوا يَتَعاطَفونَ معَ النَّزعَةِ البَرّانِيَّةِ رِتشارد سوِنبيرن. إذ يَقولُ:

> قَد يَعتَقِدُ المَرءُ أنَّ ثَمَّةَ إلهًا، ومعَ ذلكَ لا يَعبُدُ اللهَ أو يَتَوَجَّهُ إليهِ بِالشُّكرِ - مِن خِلالِ عَدَمِ امتِلاكِهِ غَرَضًا لِعِبادَةِ أيِّ إلهٍ مَهما يَكُنْ، أو مِن خِلالِ عَدَمِ امتِلاكِهِ أيَّ غَرَضٍ لِلتَّعبيرِ عن الاعتِرافِ بِالفَضلِ لِكُلِّ مَن قد نَفَعَهُ. أو قَد يَعتَقِدُ المَرءُ أنَّ ثَمَّةَ إلهًا، يَمنَحُ الأتقِياءَ (ولا يَمنَحُ سِواهُم) حَياةً سَعيدَةً بَعدَ المَوتِ، ومعَ ذلكَ لا يَكونُ تَقِيًّا مِن خِلالِ عَدَمِ امتِلاكِهِ غَرَضَ ضَمانِ سَعادَتِهِ الأبَدِيَّةِ. (1981, p. 28)

وقَد تَبدو هذهِ النِّقاطُ بَرّانِيَّةً بِوُضوحٍ. على أنَّ سوِنبيرن يُواصِلُ حديثَهُ لِيُمَيِّزَ وُجودَ صِلَةٍ بينَ الاعتِقادِ الدِّينِيِّ والمَيلِ إلى التَّصَرُّفِ: 'فَفي هذهِ الحالاتِ نَصِفُ المَرءَ بِأنَّهُ لا ''يَتَصَرَّفُ بِمُقتَضَى'' اعتِقاداتِهِ، لأنّا نَتَوَقَّعُ مِنهُ على نَحوٍ طَبيعِيٍّ أن تَكونَ لَدَيهِ، أو نَعتَقِدُ أنَّهُ يَجِبُ أن تَكونَ لَدَيهِ، الأغراضُ المَعنِيَّةُ' (1981, p. 28). ويُفَرِّقُ سوِنبيرن بينَ اعتِقاداتِ المَرءِ و'أغراضِهِ' ويَرَى أنَّهُ يَنبَغي أن يَكونَ كُلٌّ مِن

---

* توما الأكويني (1224-1274م). راهِبٌ وفيلَسوفٌ ولاهوتِيٌّ إيطالِيٌّ. أسَّسَ مَذهَبًا فَلسَفِيًّا يُعرَفُ بِالتّومائيَّةِ. يُعَدُّ أكبَرَ فَلاسِفَةِ العُصورِ الوُسطَى المَسيحيَّةِ، ولا يَزالُ تَأثيرُهُ عَظيمًا في الكَنيسَةِ الكاثوليكيَّةِ وفي الفِكرِ المَسيحيِّ عُمومًا. مِن أشهَرِ كُتُبِهِ: (مَجموعَةُ الرُّدودِ عَلى الخَوارِجِ)؛ و(الخُلاصَةُ اللاهوتيَّة)؛ و(مَسائلُ مُتَنازَعٌ فيها بِشَأنِ الرُّوح). [المُتَرجِم]

الاعتِقادِ والغَرَضِ في مَوضِعِهِ مِن أجلِ أن يَكونَ المُؤمِنُ مَدفوعًا على نَحوٍ مُناسِبٍ. فالاعتِقادُ الدِّينِيُّ لا يَكفي وَحدَهُ دافِعًا. على أَنَّهُ حتّى في حالَةِ سونبيرن لا يُمَثِّلُ مَذهَبُهُ رَفضًا واضِحًا لِلجَوّانِيَّةِ المُتَواضِعَةِ لأَنَّهُ لا يُحَدِّدُ الظُّروفَ التي قَد يَكونُ لِلفاعِلِ فيها اعتِقاداتٌ دينِيَّةٌ في الوَقتِ الذي يَكونُ فيهِ مُفتَقِرًا إلى الأغراضِ ذاتِ الصِّلَةِ. فإن لَم تَكُن لِلفاعِلِ [64] اعتِقاداتٌ مُجَرَّدَةٌ مِن الأَغراضِ إلّا في هذهِ الظُّروفِ غَيرِ الطَّبيعِيَّةِ التي يَسمَحُ بِها الجَوّانِيُّونَ المُتَواضِعونَ، فلَن يَكونَ عِندَئِذٍ امتِلاكُ اعتِقاداتٍ مُجَرَّدَةٍ مِن الأَغراضِ المُناظِرَةِ مُعارِضًا لِلجَوّانِيَّةِ الدِّينِيَّةِ. فإنَّ مُجَرَّدَ تَمييزِ إمكانِ أَن يَكونَ الاعتِقادُ الدِّينِيُّ بِمَعزِلٍ عن الطَّبيعَةِ الدّافِعِيَّةِ لا يَكفي لِتَحديدٍ واضِحٍ لِلاصطِفافِ في صَفِّ البَرّانِيَّةِ أو الجَوّانِيَّةِ.

لِذلكَ، يُمكِنُ القَولُ عُمومًا إنَّ ثَمَّةَ تَأييدًا ضِمنِيًّا، إن لَم يَكُنْ صَريحًا، لِلجَوّانِيَّةِ الدِّينِيَّةِ المُتَواضِعَةِ لَدى كَثيرٍ مِن الفَلاسِفَةِ واللاهوتِيِّينَ. وثَمَّةَ قَليلٌ مِنهُم يُعارِضُ هذهِ الوِجهَةَ مُعارَضَةً ظاهِرَةً.

نَظَرِيّاتُ الدّافِعِيَّةِ الهيُومِيَّةُ ونَظَرِياتُ المَوقِف

تُمَثِّلُ نَظرِيَّةُ الفِعلِ الهيُومِيَّةُ، أو نَظَرِيَّةُ الاعتِقاد-الرَّغبَة، القِسمَ الثّانِيَ مِن الدِّفاعِ عَن نَظرِيَّةِ المَوقِفِ. وهيَ تَرتَكِزُ على التَّفريقِ بينَ نَمَطَيْنِ لِلحالَةِ الذِّهنِيَّةِ التَّمثيلِيَّةِ: الاعتِقاداتِ والرَّغَباتِ (أو حالاتٍ أُخرَى مُشابِهَةٍ لِلرَّغبَةِ كالآمالِ، والأَمانِيِّ، والمَواقِفِ، والمَقاصِدِ، وما إليها، مِمّا يُطلَقُ عليهِ عُمومًا اسمُ *المَواقِفِ المُؤَيِّدَةِ* (*pro-attitudes*)[5]. فالرَّغَباتُ حالاتٌ ذِهنِيَّةٌ تُمَثِّلُ الطَّريقَةَ التي نَوَدُّ أن يَكونَ العالَمُ على وَفقِها وهيَ ذاتِيَّةُ الدّافِعِيَّةِ. أَمّا الاعتِقاداتُ فَحالاتٌ ذِهنِيَّةٌ تُمَثِّلُ العالَمَ بِوَصفِهِ طَريقَةً مُعَيَّنَةً ولِذلكَ قَد تَكونُ صادِقَةً أو كاذِبَةً أو أَكثَرَ إخبارًا أو أَقَلَّ إخبارًا، بيدَ أَنَّها ليسَتْ حالاتٍ فَعّالَةً مِن حَيثُ الدّافِعِيَّةُ؛ إنَّها، بِحَسَبِ تَعبيرِ باركلي،

---

(5) ما أثارَ هذهِ النَّظرِيَّةَ هوَ مُناقَشَةُ هيُوم الشَّخصِيَّةُ لِهذا المَوضوعِ (1978, book III, part I, §I, pp. 457-8; 1978, book II, part III, §III, pp. 415-6).

'خامِلَةٌ'. وبِذلكَ تُفهَمُ الاعتِقاداتُ والرَّغَباتُ على أنَّها 'وُجوداتٌ مُتمايِزَةٌ' لإمكانِ وُجودِ أحَدِ الصِّنفَيْنِ دونَ الآخَرِ. لِذلكَ، إذا ما أُريدَ لاعتِقادٍ مّا أن يُحدِثَ فِعلًا مّا لَدَى فاعِلٍ مّا فلا بُدَّ مِن أن تَصحَبَهُ رَغبَةٌ أو مَوقِفٌ مُؤيِّدٌ. فالفِعلُ، على ما تَذهَبُ إليهِ النَّظريَّةُ الهيُومِيَّةُ، نَتيجَةُ اجتِماعِ الاعتِقاداتِ والمَواقِفِ المُؤيِّدَةِ. وفي كَثيرٍ مِن الحالاتِ يُمَثِّلُ المَوقِفُ المُؤيِّدُ الهَدَفَ الذي يَسعَى الفاعِلُ إلى إنجازِهِ، ويُقَدِّمُ الاعتِقادُ المَعلوماتِ التي يَستعمِلُها الفاعِلُ لإنجازِهِ. مِثالُ ذلكَ أنَّ اعتِقاداتي بِشَأنِ مَكانِ وُجودِ الخُبزِ والمِحمَصَةِ مَمزوجَةً بِرَغبَتي في تَناوُلِ شَريحَةٍ مِن الخُبزِ المُحَمَّصِ يَتَمَخَّضُ عنها إقدامي على عَمَلِ شَريحَةٍ مُحَمَّصَةٍ[6].

وتَحظَى نَظَريَّةُ الفِعلِ الهيُومِيَّةُ بِرَواجٍ كَبيرٍ وهيَ نَظَريَّةُ الدّافِعِيَّةِ المُهَيمِنَةُ حالِيًّا في الفَلسَفَةِ التَّحليلِيَّةِ وَسْطَ مَن يَقبَلُونَ نَظَرِيّاتِ المَوقِفِ ومَن يَرفُضونَها على حَدٍّ سَواءٍ. فأَنا إذ أُقَدِّمُ هذهِ النَّظريَّةَ أكونُ إذَن سالِكًا لِطَريقٍ مُعَبَّدٍ جَيِّدًا جِدًّا. على أنَّهُ يُلحَظُ أنَّ ثَمَّةَ نُقطَةَ خِلافٍ لِلنَّظَرِيَّةِ تَدورُ حَولَ مَدَى إمكانِ حِيازَةِ الفاعِلِينَ حالاتِ اعتِقادٍ مِن غَيرِ حالاتِ رَغبَةٍ مُصاحِبَةٍ تَكونُ معَ ذلكَ فَعّالَةً دافِعِيًّا؛ وتُدْعَى هذهِ أحيانًا 'اعتِقاباتٍ besires'* (McDowell, 1979; Shafer-Landau, 2003). وتُعَدُّ الحُجَّةُ التي طَوَّرَها مايكِل سمِث Michael Smith** (1994) إحدَى أكثَرِ الحُجَجِ الهيُومِيَّةِ المُعارِضَةِ لِوُجودِ الاعتِقاباتِ فَعّالِيَّةً. إذ يَرَى سمِث أنَّ الاعتِقاداتِ

---

(6) لِلوُقوفِ على بَيانٍ أكثَرَ تَفصيلًا لِنظريَّةِ الدّافِعِيَّةِ الهيُومِيَّةِ، يُنظَر: Smith (1994, ch. 4)، و(Davidson (1963; 1980.

* كَلِمَةُ (اعتِقابات) كلِمَةٌ نَحَتْناها مِن كَلِمَتَي (اعتِقادات) و(رَغَبات)، مُسايَرَةً لِكلِمَةِ (besires) التي نَحَتَها في اللُّغَةِ الإنجليزيَّةِ مِن كَلِمَتَي (beliefs) و(desires) الفَيلَسوفُ البريطانِيُّ جَيمس إدوَرد جون ألثَم James Edward John Altham (1944-...م) في مَقالِهِ 'ميراثُ الانفِعالِيَّة The Legacy of Emotivism' (1986). [المُتَرجِم]

** مايكِل أندرُو سمِث (1954-...م). فَيلَسوفٌ أستراليٌّ يُدَرِّسُ في جامِعَةِ برنستون مُنذُ عام 2004. كَتَبَ عَدَدًا مِن الكُتُبِ والمقالاتِ المهِمَّةِ في فَلسَفَةِ الأخلاقِ. مِن مُؤَلَّفاتِهِ: (مُشكِلَةُ الأخلاق)؛ و(عِلمُ الأخلاقِ والبَديهِيّاتُ: مَقالاتٌ مُختارَةٌ في سايكولوجيا الأخلاقِ وما بَعدَ عِلمِ الأخلاق)؛ و(العَقلُ، والأخلاقُ، والتَّفسيرُ: مُشارَكاتٌ مُختارَةٌ). [المُتَرجِم]

والرَّغَباتِ تَختَلِفُ في 'اتِّجاهِ المُلاءَمَة'. أمّا الاعتِقاداتُ فاتّجاهُ مُلاءَمَتِها يَنطَلِقُ مِن العَقلِ إلى العالَمِ [65] إذ إنَّ اعتِقاداتِنا تَستَهدِفُ تَمثيلَ العالَمِ؛ والذَّهابُ إلى أنَّ الاعتِقادَ لا يُمَثِّلُ العالَمَ بِدِقَّةٍ يُعَدُّ مُعارَضَةً لِتَبَنّي ذلكَ الاعتِقادِ. وأمّا الرَّغَباتُ فتُمَثِّلُ، بِعَكسِ الاعتِقاداتِ، حالاتٍ نُريدُ إنجازَها والذَّهابُ إلى أنَّ الرَّغبَةَ تُسيءُ تَمثيلَ العالَمِ لا يُعَدُّ مُعارَضَةً لِلرَّغبَةِ. بَل العَكسُ هوَ الصَّحيحُ فنَحنُ نَرغَبُ في أشياءَ لا نَعتَقِدُ أنَّها قَد أُنجِزَتْ أصلًا. لِذلكَ، يُمكِنُ أن يُقالَ إنَّ لِلرَّغَباتِ اتِّجاهَ مُلاءَمَةٍ يَنطلِقُ مِن العالَمِ إلى العَقلِ: فنَحنُ نُريدُ أن نَجعَلَ العالَمَ في حالَةٍ تَناغُمٍ معَ ما نَرغَبُ فيهِ. وحينَ تُفهَمُ الاعتِقاداتُ والرَّغَباتُ على هذا النَّحوِ، يُمكِنُنا أن نَرَى، على ما يَرى سمِث، سَبَبَ عَدَمِ إمكانِ وُجودِ حالاتٍ ذِهنِيَّةٍ تُمَثِّلُ حَقيقَةَ ما عليهِ العالَمُ وتُحَرِّكُ فينا الدّافِعَ في الوَقتِ نَفسِهِ. فلَو وُجِدَتْ حالَةٌ كهذهِ لَكانَتْ حالَةً ذِهنِيَّةً ذاتَ اتِّجاهَيْ مُلاءَمَةٍ مُتَنافِيَيْنِ، ولَكانَ هَدَفُها في وَقتٍ واحِدٍ تَمثيلَ حَقيقَةِ ما عليهِ العالَمُ ودَفعَ المَرءِ إلى تَغييرِ العالَمِ لِيَكونَ مُتَناغِمًا مَعَ ما تُمَثِّلُهُ[7].

وَلْنَفتَرِضْ أنّا نُسَلِّمُ بِأنَّ الجَوّانِيَّةَ الدِّينِيَّةَ المُتَواضِعَةَ ونَظَرِيَّةَ الدّافِعِ الهيُومِيَّةَ كِلتَيْهِما نَظَرِيَّتانِ مَقبولَتانِ. فنَحنُ الآنَ مُهَيَّؤونَ لِنَرَى كَيفِيَّةَ إمكانِ استِعمالِهِما لِتَعزيزِ نَظَرِيَّةِ المَوقِفِ. وَلْنُطلِقْ على الحالاتِ الذِّهنِيَّةِ المُعَبِّرِ عنها عُرفِيًّا بِأقوالٍ دينِيَّةٍ مُخلِصَةٍ اسمَ *الالتِزاماتِ* *commitments*. فما نَوعُ الحالَةِ الذِّهنِيَّةِ التي يُمَثِّلُها الالتِزامُ الدِّينِيُّ؟ فَلْنَنظُرْ في المُحاجَّةِ الآتِيَةِ:

1. يَصحَبُ الالتِزاماتِ الدِّينِيَّةَ بِالضَّرورَةِ على نَحوٍ طَبيعِيٍّ (بِالطَّريقَةِ المَذكورَةِ آنِفًا) فاعِلُونَ ذَوُو طَبائعَ دافِعِيَّةٍ مُعَيَّنَةٍ. (وهذهِ هيَ الجَوّانِيَّةُ الدِّينِيَّةُ المُتَواضِعَةُ).
2. إذا ما أُخِذَتْ الاعتِقاداتُ وَحدَها فإنَّها لا تُحدِثُ دافِعًا ولا تَقدِرُ على تَوليدِ حالاتٍ فَعّالَةٍ دافِعِيًّا؛ فالدّافِعِيَّةُ إنَّما هيَ وَليدَةُ الاعتِقادِ والرَّغبَةِ. (وهذهِ هيَ السّايكولوجيا الهيُومِيَّةُ).

(7) لِلوُقوفِ على الاعتِراضاتِ على حُجَّةِ سمِث، يُنظَر: Little (1997)، وShafer-Landau (2002, pp. 134-138).

3. إن قيلَ إنَّ الالتِزاماتِ الدِّينِيَّةَ لَيسَتْ سِوَى اعتِقاداتٍ فإنَّ ذلكَ لا يُفَسِّرُ صِلَتَها الطَّبيعِيَّةَ الضَّرورِيَّةَ بِالطَّبائعِ الدّافِعِيَّةِ لأنَّ هذهِ الاعتِقاداتِ يُمكِنُ أن تَتعايَشَ مَعَ مَواقِفَ مُؤَيِّدَةٍ مُختَلِفَةٍ لا تُوَلِّدُ النَّوعَ الصَّحيحَ مِن التَّغييرِ الدّافِعِيِّ. (الاعتِقاداتُ والرَّغَباتُ 'وُجوداتٌ مُتَمايِزَةٌ').
4. إن كانَتِ الالتِزاماتُ الدِّينِيَّةُ مَواقِفَ مُؤَيِّدَةً فبِإمكانِها أن تُتَمِّمَ اعتِقاداتِ المُؤمِنِ المَوجودَةَ مِن أجلِ تَعديلِ طَبيعَةِ المُعتَقِدِ الدّافِعِيَّةِ على النَّحوِ الصَّحيحِ.
5. لِذلكَ تُعَدُّ الالتِزاماتُ الدِّينِيَّةُ مَواقِفَ مُؤَيِّدَةً.

فالذي تتمَخَّضُ عنهُ هذهِ المُحاجَّةُ، التي تَسيرُ عَلى نَهجِ صُورَةٍ مُشابِهَةٍ لِمُحاجَّةٍ مِعيارِيَّةٍ مُؤيِّدَةٍ لِلتَّعبيرِيَّةِ الأخلاقِيَّةِ (يُنظَر: Blackburn, 1984)، أَنَّ ما كُنّا نُسَمِّيهِ 'اعتِقاداتٍ دِينِيَّةً' هوَ في الواقِعِ مَواقِفُ مُؤَيِّدَةٌ. فإن كانَتِ الأَقوالُ الدِّينِيَّةُ مُعَبِّرَةً عن مَواقِفَ مُؤَيِّدَةٍ فإنَّ التَّعبيرِيَّةَ صادِقَةٌ. على أَنَّ بِالإمكانِ تَقديمَ المُحاجَّةِ كذلكَ بِوَصفِها مُحاجَّةً مُؤيِّدَةً لِنَظرِيَّةِ المَوقِفِ المُعتَدِلَةِ [66] بِأن يُستَبدَلَ بِـ'مَواقِف مُؤَيِّدَة' في النُّقطَتَيْنِ (4) و(5) 'مَواقِفُ مُؤَيِّدَةٌ واعتِقادات'.

أَيَّةُ نَظَرِيَّةٍ لِلمَوقِف؟

عَلى أَنَّهُ سرعانَ ما يُمكِنُنا أن نَرَى أَنَّ المُحاجَّةَ المُؤيِّدَةَ لِنَظرِيَّةِ المَوقِفِ المُشَكَّلَةَ مِن الجَوّانِيَّةِ المُتَواضِعَةِ والسّايكولوجِيَّةِ الهيومِيَّةِ لا تُمَثِّلُ تَأييدًا لِلتَّعبيرِيَّةِ الدِّينِيَّةِ. فالتَّعبيرِيَّةُ هيَ النَّظرِيَّةُ التي تُفيدُ أَنَّ الجُمَلَ الدِّينِيَّةَ لا تُمَثِّلُ حَقائقَ دينِيَّةً ولا تُعَبِّرُ عُرفِيًّا عن اعتِقاداتٍ دينِيَّةٍ (وإن كانَ مِن المُحتَمَلِ، اعتِمادًا على ما يُقالُ، أن تُعَبِّرَ عن اعتِقاداتٍ لادينِيَّةٍ)؛ بَل تُعَبِّرُ عن مَواقِفَ لامَعرِفِيَّةٍ. على أَنَّ التَّعبيرِيَّةَ كانَتْ قَد استُبعِدَتْ أَصلًا على نَحوٍ فَعّالٍ بِوَصفِها النَّتيجَةَ المَقبولَةَ لِلجَوّانِيَّةِ بِسببِ تَخفيفِ الأُطروحَةِ الجَوّانِيَّةِ مِن جَوّانِيَّةٍ بَسيطَةٍ إلى جَوّانِيَّةٍ مُتواضِعَةٍ نَتيجَةً لِلأَمثِلَةِ البَرّانِيَّةِ المُضادَّةِ. وعلى الرَّغمِ مِن أَنَّ الجَوّانِيَّةَ المُتَواضِعَةَ تَرَى ضَرورَةَ أن تَكونَ الالتِزاماتُ الدِّينِيَّةُ مَصحوبَةً على نَحوٍ طَبيعِيٍّ بِطَبائعَ دافِعِيَّةٍ مُناسِبَةٍ في المُستَوَى

الفَردِيّ أو الاجتِماعِيّ، تَسمَحُ أيضًا بِمَدًى واسِعٍ مِن الحالاتِ غَيرِ الطَّبيعِيَّةِ - لكِنَّها لَيسَتْ نادِرَةً، على ما يُفتَرَضُ- (اللاعَقلانِيَّةِ، والاكتِئابِ، واللامُبالاةِ، والتَّمَرُّدِ، وما إليها) التي تَكونُ فيها لِلشَّخصِ التِزاماتٌ دينِيَّةٌ مِن غَيرِ أن تَكونَ لَهُ طَبيعَةٌ دافِعِيَّةٌ مُصاحِبَةٌ على النَّحوِ الصَّحيحِ. فإذا كانَتْ هذهِ الحالاتُ مُمكِنَةً، بَل مَألوفَةً، فالذي يَبدو أنَّهُ لا يَنبَغي أن يُعتَقَدَ أنَّ التَّقريرَ المُخلِصَ لِلالتِزامِ الدِّينِيّ مُجَرَّدُ تَعبيرٍ عن مَوقِفٍ مُؤَيِّدٍ: فَبِوُسعِ الطَّبيعَةِ الدّافِعِيَّةِ لِلفاعِلِ أن تَكونَ مُستَقِلَّةً عن الالتِزامِ الدِّينِيّ. فما دامَتِ المَواقِفُ المُؤَيِّدَةُ حالاتٍ ذاتِيَّةَ الدّافِعِيَّةِ فالمُتَكَلِّمونَ الدِّينِيّونَ في هذهِ الحالاتِ يَبدُونَ حائزِينَ لاعتِقاداتٍ دينِيَّةٍ لكِنَّهُم يَفتَقِرونَ إلى طَبائعَ دافِعِيَّةٍ مُلائمَةٍ. فإذا كانَ بِوُسعِ الفاعِلِينَ أن تَكونَ لَهُم اعتِقاداتٌ على الدَّوامِ وكانوا غالِبًا مّا يَحُوزونَها، بِما يَنسَجِمُ معَ الجَوّانِيَّةِ المُتَواضِعَةِ، فَيُمكِنُ عِندَئذٍ أن يُقالَ إنَّ الجَوّانِيَّةَ المُتَواضِعَةَ لا تُقَدِّمُ سَبَبًا لافتِراضِ أنَّ الجُمَلَ الدِّينِيَّةَ لا تُستَعمَلُ لِلتَّعبيرِ عن اعتِقاداتٍ دينِيَّةٍ[8].

على أنَّ الأمرَ يَختَلِفُ في حالَةِ نَظَرِيَّةِ المَوقِفِ المُعتَدِلَةِ. فَكَونُ النَّظَرِيَّةِ تَفتَرِضُ أنَّ اللُّغَةَ الدِّينِيَّةَ تُستَعمَلُ لِلتَّعبيرِ عن كُلٍّ مِن الاعتِقاداتِ والمَواقِفِ، يَجعَلُها مُفَسِّرَةً بِدِقَّةٍ لِلجَوّانِيَّةِ الأَخلاقِيَّةِ المُتَواضِعَةِ. على أنَّها لا تُواجِهُ صُعوبَةً بِسببِ الحالاتِ التي تَسمَحُ بِها الجَوّانِيَّةُ المُتَواضِعَةُ والتي تتعلَّقُ بِفاعِلِينَ ذَوِي التِزاماتٍ دينِيَّةٍ لكِنَّهُم يَفتَقِرونَ إلى الجانِبِ الدّافِعِيّ الطَّبيعِيّ. فإن أنشَأَ هؤُلاءِ الفاعِلونَ تَقريراتٍ دينِيَّةً فإنَّهُم، استِنادًا إلى نَظَرِيَّةِ المَوقِفِ المُعتَدِلَةِ، ما زالوا يُعَبِّرونَ عن كُلٍّ مِن الاعتِقاداتِ الدِّينِيَّةِ والمَواقِفِ المُؤَيِّدَةِ وإن لَم يَكونوا يُمَثِّلونَ بِدِقَّةٍ مَشاعِرَهُم الشَّخصِيَّةَ. فَتَقريرُ أنَّ ‘اللهَ صالِحٌ‘ مِن غَيرِ حِيازَةِ أيِّ مَوقِفٍ مُؤَيِّدٍ

(8) بِإمكانِ التَّعبيرِيِّينَ الذَّهابُ إلى أنَّ الجُمَلَ الدِّينِيَّةَ تُستَعمَلُ عُرفِيًّا لِلتَّعبيرِ عن مَواقِفَ مُؤَيِّدَةٍ ولَو كانَ لَدَى المُتَكَلِّمِينَ كُلٌّ مِن الاعتِقاداتِ الدِّينِيَّةِ والمَواقِفِ المُؤَيِّدَةِ، بِوَصفِ ذلكَ أمرًا يتعلَّقُ بِالسّايكولوجيا الدِّينِيَّةِ. لكِن إذا كانَ لَدَى الفاعِلِينَ اعتِقاداتٌ دينِيَّةٌ مُتَمايِزَةٌ مِن المَواقِفِ المُؤَيِّدَةِ، فَسيُواجِهُ التَّعبيرِيُّونَ مُهِمَّةً صَعبَةً هيَ إقناعُنا بِأنَّ الجُمَلَ الدِّينِيَّةَ لا تُستَعمَلُ لِلتَّعبيرِ عن هذهِ الاعتِقاداتِ. أمّا حُجَّةُ الدّافِعِيَّةِ فَلَن تَفعَلَ ذلكَ، على أيَّةِ حالٍ.

تُجاهَ اللهِ (أو جانِبٍ دافِعِيٍّ مُناسِبٍ يُمكِنُ أن يُوَلِّدَ مَوقِفًا إيجابِيًّا كهذا) يُمَثِّلُ الجانِبَ المُقابِلَ لِتقريرِ أنَّ 'اللهَ صالِحٌ' مِن غيرِ [67] اعتِقادِ أنَّ اللهَ صالِحٌ. فَإن يَكُنِ التَّقريرُ الأخيرُ مُضَلِّلًا، في حالِ كَونِهِ مَقصودًا، فإنَّ التَّقريرَ السّابِقَ يُقَدِّمُ خِدمَةً غيرَ مُخلِصَةٍ لِلوِجهَةِ الدِّينِيَّةِ التي يَكونُ فيها قَلبُ المَرءِ غيرَ حاضِرٍ.

على أنَّهُ يَظَلُّ ثَمَّةَ إشكالٌ مُستَمِرٌّ بِشَأنِ نَظَرِيَّةِ المَوقِفِ المُعتَدِلَةِ إن كانَت الجَوّانِيَّةُ المُتَواضِعَةُ صادِقَةً. فلِمَ يَجِبُ *بِالضَّرورَةِ* أن تُوجَدَ على نَحوٍ طَبيعِيٍّ عَلاقَةٌ بينَ أن تَكونَ لِلشَّخصِ التِزاماتٌ دينِيَّةٌ وأن يَكونَ مَدفوعًا على نَحوٍ مُناسِبٍ؟ وإن كانَ مُنَظِّرُو المَوقِفِ المُعتَدِلُونَ يَرَونَ أنَّ الجُمَلَ الدِّينِيَّةَ تُعَبِّرُ عُرفِيًّا عن كُلٍّ مِن الاعتِقاداتِ والمَواقِفِ المُؤَيِّدَةِ وإن أمكَنَ فَهمُ الالتِزاماتِ الدِّينِيَّةِ على أنَّها تكمُنُ على نَحوٍ طَبيعِيٍّ في كُلٍّ مِن الاعتِقاداتِ والمَواقِفِ، فما الذي يُفَسِّرُ حَقيقَةَ أنَّ العَلاقَةَ بينَ الاعتِقاداتِ والمَواقِفِ المُؤَيِّدَةِ قائِمَةٌ بِحُكمِ الضَّرورَةِ؟ فما دامَتِ الاعتِقاداتُ والمَواقِفُ المُؤَيِّدَةُ 'وُجوداتٍ مُتَمايِزَةً'، فمِنَ المُحَيِّرِ أن يَكونَ هذا الحُكمُ صادِقًا. فَمَهما يَكُن انفِصالُ الاعتِقاداتِ الدِّينِيَّةِ عن الطَّبائِعِ الدّافِعِيَّةِ على نَحوٍ طَبيعِيٍّ غيرَ مُحتَمَلٍ في مُستَوى المُمارَسَةِ، فإنَّهُ مُمكِنٌ. (وبِعَكسِ ذلكَ، يَمتَلِكُ التَّعبيرِيُّونَ تَفسيرًا دَقيقًا جِدًّا لِسَبَبِ وُجودِ عَلاقَةٍ ضَرورِيَّةٍ بينَ الالتِزاماتِ الدِّينِيَّةِ والطَّبائِعِ الدّافِعِيَّةِ: فالسَّبَبُ هوَ أنَّ الالتِزاماتِ الدِّينِيَّةَ هيَ مَواقِفُ مُؤَيِّدَةٌ. على أنّا قَد رَأَينا أنَّ هذا يَجعَلُ العَلاقَةَ وَثيقَةً جِدًّا، على ما يُقِرُّ بِهِ الجَوّانِيُّونَ المُتَواضِعونَ).

ولِكَي يُجيبَ مُنَظِّرُ المَوقِفِ المُعتَدِلُ عن هذا الإشكالِ يَحتاجُ إلى أن يَنظُرَ في نَوعِ الضَّرورَةِ الذي تَقتَرِحُهُ الجَوّانِيَّةُ المُتَواضِعَةُ. وبِإمكانِنا التَّفريقُ بينَ نَوعَينِ لِلضَّرورَةِ ذَوَي صِلَةٍ (Tresan, 2006). فالضَّروراتُ التي تُسَمّى ضَروراتٍ واسِعَةَ المَدَى، أو *de dicto*، تَمتَدُّ إلى القَضِيَّةِ كامِلَةً؛ أمّا الضَّروراتُ الضَّيِّقَةُ المَدَى، أو *de re*، فتَمتَدُّ إلى صِفاتِ الشَّيءِ المُعطَى*. وفي الآتي مِثالٌ لِذلكَ. فالجُملَةُ (5)

---

* de dicto وde re: تَعبيرانِ لاتينِيّانِ، والتَّرجَمَةُ الحَرفِيَّةُ لِلتَّعبيرِ الأوَّلِ de dicto هيَ 'عَن المَقول about what is said'، ويتعلَّقُ باعتِقادٍ بِشَأنِ صِدقِ قَضِيَّةٍ مّا؛ والتَّرجَمَةُ الحَرفِيَّةُ =

تُمَثِّلُ ضَرورَةً واسِعَةَ المَدَى تُخبِرُنا أَنَّ قَضِيَّةَ 'الأعزابُ رِجالٌ غَيرُ مُتَزَوِّجينَ' قَضِيَّةٌ ضَرورِيَّةٌ.

5. بِالضَّرورَةِ، الأعزابُ رِجالٌ غَيرُ مُتَزَوِّجينَ.

وبِعَكسِ ذلكَ، تُمَثِّلُ الجُملَةُ (6) ضَرورَةً ضَيِّقَةَ المَدَى تُخبِرُنا أَنَّ شَيئًا مّا (الأعزابَ) بِالضَّرورَةِ لَهُ صِفَةٌ مُعَيَّنَةٌ هيَ (كَونُهُم رِجالًا غَيرَ مُتَزَوِّجينَ).

6. الأعزابُ بِالضَّرورَةِ رِجالٌ غَيرُ مُتَزَوِّجينَ.

والفَرقُ بينَ نَمَطَي الضَّرورَةِ مُشارٌ إليهِ عُرفِيًّا مِن خِلالِ مَوقِعِ العامِلِ المُوَجِّهِ الذي تُمَثِّلُهُ 'الضَّرورَة'. إذ يُوجَدُ أيضًا فَرقٌ واضِحٌ بينَ مَعنَى الجُملَةِ (5) ومَعنَى الجُملَةِ (6). فالدَّعوَى الأُولَى ذاتُ المُوَجِّهِ الواسِعِ المَدَى صادِقَةٌ: فمِنَ المُحالِ أن يَكونَ هُناكَ عَزَبٌ مُتَزَوِّجٌ*. أمّا الدَّعوَى الثّانِيَةُ ذاتُ المُوَجِّهِ الضَّيِّقِ المَدَى فَكاذِبَةٌ ومُخطِئَةٌ في حَقِّ الأعزابِ بِدَرَجَةٍ كَبيرَةٍ: فليسَ ضَرورِيًّا أن يَكونَ كُلُّ عَزَبٍ [68] غَيرَ مُتَزَوِّجٍ. فالعَزَبُ ليسَ مُنفَرِدًا بِحُكمِ الضَّرورَةِ. ومِنَ الأَمثِلَةِ الأُخرَى الجُملَةُ (7) التي تُقَرِّرُ ضَرورَةً ذاتَ مَدًى واسِعٍ والجُملَةُ (8) التي تُقَرِّرُ ضَرورَةً ذاتَ مَدًى ضَيِّقٍ.

7. بِالضَّرورَةِ، إن كانَ س كَوكَبًا فإنَّهُ يَدورُ حَولَ نَجمٍ مّا.

8. إن كانَ س كَوكَبًا، فإنَّهُ بِالضَّرورَةِ يَدورُ حَولَ نَجمٍ مّا.

فهاتانِ الجُملَتانِ أيضًا لَهُما مَعنَيانِ مُختَلِفانِ تَمامًا. فَالجُملَةُ (7) تُقَرِّرُ وُجوبَ أَنَّهُ إن كانَ ثَمَّةَ كَوكَبٌ فإنَّهُ يَدورُ حَولَ نَجمٍ مّا، وهيَ عِبارَةٌ تَقريرِيَّةٌ صَحيحَةٌ بِمُقتَضَى

= لِلتَّعبيرِ الثّاني de re هيَ 'عَن الشَّيء about the thing'، ويتعلَّقُ بِاعتِقادٍ بِشَأنِ شَيءٍ في الواقِعِ. [المُترجِم]

* في الأصلِ الإنجليزيِّ unmarried أي غَيرُ مُتَزَوِّجٍ، ولا يَستَقيمُ بِها الكَلامُ. [المُترجِم]

البَيانِ الشّائع لِحَقيقَةِ ما عليهِ الكَواكِبُ. أمّا الجُملَةُ (8) فبِعَكسِ ذلكَ، إذ تُخبِرُنا بِشَيءٍ مّا يتعلَّقُ بِهذهِ الأجسامِ التي هيَ الكَواكِبُ: فهيَ بِالضَّرورَةِ لَها صِفَةُ الدَّورانِ حَولَ النُّجومِ. بيدَ أنَّ هذا يَبدو كاذِبًا لأنَّ الظّاهِرَ إمكانُ أن يُحتَمَلَ عَدَمُ دَورانِ كَوكَبِ المُشتَري، على سبيلِ المِثالِ، حَولَ نَجمٍ مّا أو قَطعُ مَسارِهِ المَداريِّ.

ولا يَتَّضِحُ مُباشَرَةً نَوعُ الضَّرورَةِ الذي يَقتَرِحُهُ الجَوّانِيُّونَ: أضَرورَةٌ واسِعَةُ المَدَى أم ضَرورَةٌ ضَيِّقَةُ المَدَى؟ وتَسمَحُ الجَوّانِيَّةُ بِالقِراءَتَيْنِ الواسِعَةِ المَدَى والضَّيِّقَةِ المَدَى.

الجَوّانِيَّةُ الواسِعَةُ المَدَى. بِالضَّرورَةِ، الالتِزاماتُ الدِّينِيَّةُ تَصحَبُها على نَحوٍ طَبيعِيٍّ طَبائعُ دافِعِيَّةٌ مُناسِبَةٌ.
الجَوّانِيَّةُ الضَّيِّقَةُ المَدَى. الالتِزاماتُ الدِّينِيَّةُ بِالضَّرورَةِ تَصحَبُها على نَحوٍ طَبيعِيٍّ طَبائعُ دافِعِيَّةٌ مُناسِبَةٌ.

فهاتانِ القِراءَتانِ مُختَلِفَتانِ في الدَّلالَةِ. فإن اتَّخَذَتِ الجَوّانِيَّةُ وِجهَةَ الضَّرورَةِ الضَّيِّقَةِ المَدَى فإنَّها تُخبِرُنا عِندَئذٍ بِشَيءٍ مّا يتعلَّقُ بِطَبيعَةِ الالتِزاماتِ الدِّينِيَّةِ: فهيَ حالاتٌ ذِهنِيَّةٌ مُرتَبِطَةٌ بِطَبائعِنا الدّافِعِيَّةِ. ويَبدو أنَّ لِذلكَ لَوازِمَ تتعلَّقُ بِأُطروحتِنا لِلسّايكولوجيا الدِّينِيَّةِ، وأنَّ القِراءَةَ الضَّيِّقَةَ المَدَى لِلضَّرورَةِ الجَوّانِيَّةِ هيَ التي يَستَعمِلُها التَّعبيرِيُّونَ في ذَهابِهِم إلى أنَّ الالتِزاماتِ الدِّينِيَّةَ لَيسَتِ اعتِقاداتٍ بَل يَجِبُ أن تَكونَ مَواقِفَ مُؤيِّدَةً. أمّا إن اتَّخَذَتِ الجَوّانِيَّةُ وِجهَةَ الضَّرورَةِ الواسِعَةِ المَدَى، فسَيَكونُ الضَّرورِيُّ عندَئذٍ قَضِيَّةً تتحدَّثُ عن العَلاقَةِ بينَ الالتِزاماتِ الدِّينِيَّةِ والطَّبائعِ الدّافِعِيَّةِ. وفي هذهِ الحالَةِ الأخيرَةِ ليسَ ثَمَّةَ شَيءٌ مِمّا يتعلَّقُ بالالتِزامِ الدِّينِيِّ نَفسِهِ يَجعَلُهُ بِالضَّرورَةِ مَصحوبًا بِطَبيعَةٍ دافِعِيَّةٍ مُناسِبَةٍ. ويُعَبَّرُ أحيانًا عن هذا الاختِلافِ بِالقَولِ إنَّ الضَّروراتِ الضَّيِّقَةَ المَدَى تَتَعَلَّقُ بِالصِّفاتِ الضَّرورِيَّةِ لِلأشياءِ، في حينِ أنَّ الضَّروراتِ الواسِعَةَ المَدَى مَرَدُّ وُجودِها إلى مَفاهيمِنا. فالضَّرورَةُ الواسِعَةُ المَدَى لِلجُملَةِ (5) لا تُخبِرُنا بِشَيءٍ عن أيِّ عَزَبٍ مَخصوصٍ لا

عِلمَ لَنا بِهِ أصلًا مِن طَريقِ حَقيقَةِ أنَّ الشَّخصَ عَزَبٌ. فَمَرَدُّ وُجودِ الضَّرورَةِ إلى مَفهومِ 'العَزَب'؛ أي إنّا لا نَعُدُّ مِن الأعزابِ إلّا الرِّجالَ الذينَ هُم لَيسُوا مُتَزَوِّجينَ. فَكذلكَ يُمكِنُ فَهمُ الجَوّانِيَّةِ الواسِعَةِ المَدَى [69] على أنَّها ناجِمَةٌ عن حَقيقَةِ أنّا نَعُدُّ الالتِزاماتِ الدِّينِيَّةَ تلكَ الأنواعَ مِن الأشياءِ المُرتَبِطَةَ على نَحوٍ طَبيعِيٍّ بِالطَّبائعِ الدّافِعِيَّةِ. لكِن لا يَلزَمُ مِن ذلكَ وُجوبُ أن تكونَ الالتِزاماتُ الدِّينِيَّةُ ذاتِيَّةَ الدّافِعِيَّةِ (على نَحوٍ طَبيعِيٍّ)؛ فالاعتِقادُ والرَّغبَةُ يُمكِنُ أن يُؤَدِّيا وَظيفَةَ الالتِزامِ الدِّينِيِّ كذلِكَ أداءً جَيِّدًا.

وما لَهُ أَهَمِّيَّةٌ مَخصوصَةٌ مِمّا يتعلَّقُ بِالقِراءَةِ الواسِعَةِ المَدَى لِلجَوّانِيَّةِ تَجَنُّبُها اللَوازِمَ الجَدَلِيَّةَ المُتعلِّقَةَ بِالسّايكولوجيا الدِّينِيَّةِ وإظهارُها بَدَلًا مِن ذلكَ شَيئًا مّا يتعلَّقُ بِمَفهومِ 'الالتِزامِ الدِّينِيِّ' (أو 'الاعتِقادِ الدِّينِيِّ'). والمِثالُ الجَيِّدُ المُشابِهُ هوَ 'الاعتِقادُ المَذمومُ كُلِّيًا' (Tresan, 2006, p. 146). فَبِالضَّرورَةِ، الاعتِقادُ المَذمومُ كُلِّيًا مَذمومٌ كُلِّيًا. على أنَّ مِن الواضِحِ أنَّهُ ليسَ ضَرورِيًا لِلاعتِقادِ المَذمومِ كُلِّيًا أن يَكونَ مَذمومًا كُلِّيًا؛ فَلَو اختَلَفَتِ الأشياءُ لاحتُمِلَ أن يُعامَلَ مُعامَلَةً مُختَلِفَةً. فمِن الواضِحِ أنّا لا نَحتاجُ إلى نظريَّةٍ سايكولوجِيَّةٍ خاصَّةٍ لِلاعتِقاداتِ المَذمومَةِ كُلِّيًا لِتَفسيرِ ضَرورَةِ كَونِها مَذمومَةً كُلِّيًا. فالضَّرورَةُ إنَّما تَنجُمُ عن مُمارَسَتِنا تَصنيفَ الاعتِقاداتِ المَذمومَةِ كُلِّيًا وَحدَها بِوَصفِها اعتِقاداتٍ مَذمومَةً كُلِّيًا. وتَشمَلُ أمثِلَةٌ أُخرَى 'الاعتِقادَ المُفَضَّلَ'، و'الاعتِقادَ التَّوّاقَ'، و'الفيلمَ الدِّعائيَّ' (Tresan, 2006, p. 146). وعلى العُمومِ، يُمكِنُنا فَهمُ الضَّرورَةِ الواسِعَةِ المَدَى على أنَّها مُوَطَّدَةٌ بِمُمارَساتِنا اللُغَوِيَّةِ لا على أنَّها صِفاتٌ أساسِيَّةٌ لِلأشياءِ التي نَصِفُها. فَدَعوَى الجَوّانِيَّةِ الواسِعَةِ المَدَى هيَ أنَّ المُمارَسَةَ اللُغَوِيَّةَ هيَ التي تَعُدُّ الالتِزاماتِ والاعتِقاداتِ الدِّينِيَّةَ مُرتَبِطَةً على نَحوٍ طَبيعِيٍّ بِالطَّبائعِ الدّافِعِيَّةِ؛ فنَحنُ نَمتَنِعُ عن الحُكمِ بِحِيازَةِ فاعِلٍ مّا التِزاماتٍ دينِيَّةً (أو نَقولُ إنَّهُ يَحوزُها حِيازَةً ناقِصَةً أو بَديلَةً) حينَ لا تكونُ الحالَةُ كذلكَ.

لِذلكَ كانَ بِوُسعِ الجَوّانِيَّةِ الدِّينِيَّةِ المُتَواضِعَةِ أن تُنصِفَ الحَدْسَ الذي حاصِلُهُ أنَّ ثَمَّةَ صِلَةً وَثيقَةً بينَ الاعتِقادِ الدِّينِيِّ والدّافِعِيَّةِ، فَضلًا عن مُعالَجَتِها

الأَمثِلَةَ البَرّانِيَّةَ المُضادَّةَ، مِن خِلالِ افتِراضِ عَلاقَةٍ ضَرورِيَّةٍ واسِعَةِ المَدَى بينَ الاعتِقادِ الدِّينِيِّ والحِيازَةِ الطَّبيعِيَّةِ لِطَبيعَةٍ دافِعِيَّةٍ (لِلفَردِ أَو لأَفرادِ المُجتَمَعِ). ثُمَّ إنَّ نظرِيَّةَ المَوقِفِ المُعتَدِلَةَ تُقَدِّمُ تَفسيرًا لِلجَوّانِيَّةِ أَفضَلَ مِن تَفسيرِ نظرِيَّةِ القيمَةِ الظّاهرِيَّةِ. على أَنَّها تَفعَلُ ذلكَ مِن خِلالِ استِبقاءِ الكَثيرِ مِمّا في مُقارَبَةِ القيمَةِ الظّاهرِيَّةِ. فالجُمَلُ الدِّينِيَّةُ تُمَثِّلُ حَقائقَ دينِيَّةً وتُستَعمَلُ لِلتَّعبيرِ عن الاعتِقاداتِ الدِّينِيَّةِ استِنادًا إلى نظرِيَّةِ المَوقِفِ المُعتَدِلَةِ، لكِنَّها تُعَبِّرُ عن مَواقِفَ لامَعرِفِيَّةٍ أَيضًا. [70]

6

مُعارَضَةُ التَّعبيرِيَّة

نَظَرْنا في الفَصلِ 5 في حُجَّةِ الدّافِعِيَّةِ المُؤَيِّدَةِ لِنظريَّةِ المَوقِفِ ووَجَدْنا أَنَّ بِالإمكانِ تَأييدَ نظريَّةِ المَوقِفِ المُعتَدِلَةِ بيدَ أَنَّهُ لَم تَكُنْ ثَمَّةَ حُجَّةٌ مُشابِهَةٌ مُؤَيِّدَةٌ لِلتَّعبيرِيَّةِ. وفي هذا الفَصلِ سنُقَوِّمُ أَكثَرَ المَسالِكِ واعِدِيَّةً المُتعلِّقَةَ بِالحُجَّةِ المُضادَّةِ لِنظريَّةِ المَوقِفِ. ولَمّا كانَتِ النُّسَخُ التَّعبيرِيَّةُ لِنظريَّةِ المَوقِفِ الدِّينِيَّةِ هيَ النُّسَخَ التي كانَتْ مَحَطَّ الاهتِمامِ النَّقدِيِّ الأكبَرِ في أدَبِيّاتِ فَلسَفَةِ الدِّينِ، وَجَّهْتُ جُلَّ اهتِمامي إلى التَّعبيرِيَّةِ وأَتبَعْتُ ذلكَ النَّظَرَ في مَدَى كَونِ الاعتِراضاتِ المُوَجَّهَةِ إلى نظريَّةِ المَوقِفِ المُعتَدِلَةِ فَعّالَةً أيضًا. وفي الوقتِ الذي أَذهَبُ فيهِ إلى أَنَّ التَّعبيرِيَّةَ الدِّينِيَّةَ تَمتَلِكُ إجاباتٍ عن بَعضِ الاعتِراضاتِ المُثارَةِ بِالضِّدِّ مِنها، أَرَى أَنَّها تُواجِهُ بَعضَ المُشكِلاتِ الصَّعبَةِ جِدًّا التي تَجعَلُها نَظَرِيَّةً غَيرَ مَقبولَةٍ؛ أَمّا نظريَّةُ المَوقِفِ المُعتَدِلَةُ فبِعَكسِ ذلكَ، إذ خَرَجَتْ سالِمَةً نِسبِيًّا. وسيتَضَمَّنُ كُلُّ قِسمٍ مِن هذا الفَصلِ النَّظَرَ في أَحَدِ تِلكَ الاعتِراضاتِ.

التَّحليلُ التَّعبيرِيّ

مِن المُفيدِ البَدءُ بِذِكرِ فَرقٍ مُهِمٍّ بينَ أُطروحَةِ اللُّغَةِ الدِّينِيَّةِ التي يَحتاجُ التَّعبيرِيُّونَ الدِّينِيُّونَ إلى تَقديمِها والأُطروحَةِ المُشابِهَةِ لِلُّغَةِ الأخلاقِيَّةِ التي يُقَدِّمُها التَّعبيرِيُّونَ الأخلاقِيُّونَ. فالجُزءُ الأعظَمُ مِن اللُّغَةِ والخِطابِ الأخلاقِيَّيْنِ يُمَيِّزُهُ صِنفٌ مُمَيِّزٌ مِن

المَحمولاتِ التي تُستَعمَلُ لِوَصفِ الأفعالِ والأحداثِ. مِثالُ ذلكَ أنَّ الجُمَلَ الآتِيَةَ: 'السَّرِقَةُ خَطَأٌ'، و'الصَّدَقَةُ فَضيلَةٌ'، و'سُلوكُكَ كانَ شَنيعًا'، و'كانَ ذلكَ هوَ الفِعلَ الشَّريفَ الذي يَنبَغي فِعلُهُ'، تُمَيَّزُ بِأنّها أخلاقِيَّةٌ مِن خِلالِ استِعمالِها مَحمولاتٍ أخلاقِيَّةً. والدَّورُ المَركزِيُّ لِلمَحمولاتِ الأخلاقِيَّةِ في اللُّغَةِ الأخلاقِيَّةِ يَسمَحُ بِأُطروحَةٍ تَعبيرِيَّةٍ مُباشِرَةٍ: فالجُملَةُ الأخلاقِيَّةُ تُعَبِّرُ عن تَقويمٍ لِلأفعالِ والأحداثِ التي يُستَعمَلُ لَها المَحمولُ الأخلاقِيُّ. ثُمَّ إنَّهُ ما دامَتِ المَحمولاتُ الأخلاقِيَّةُ تُقَدِّمُ تَقويمًا إيجابِيًّا أو سَلبِيًّا لِلفِعلِ أو الحَدَثِ المَعنِيِّ، فإنَّ التَّعبيرِيِّينَ [71] يَفتَرِضونَ تَبَعًا لِذلكَ أنَّ المَوقِفَ الذي تُستَعمَلُ الجُملَةُ لِلتَّعبيرِ عنهُ إمّا مَوقِفُ قَبولٍ وإمّا مَوقِفُ رَفضٍ[1].

وبِإمكانِ التَّعبيرِيِّينَ الدِّينِيِّينَ استِخدامُ خطَّةٍ مُشابِهَةٍ لِلمَحمولاتِ الدِّينِيَّةِ: فالعِبارَةُ التَّقريرِيَّةُ التي تَستَعمِلُ مَحمولًا دينِيًّا يتعلَّقُ بِفعلٍ مّا أو حَدَثٍ مّا تُعَبِّرُ عن مَوقِفٍ مِن هذا الحَدَثِ. فلِلتَّعبيرِيِّينَ مَنهَجٌ جاهِزٌ لِتَأويلِ الجُمَلُ التي تَصِفُ، على سبيلِ المِثالِ، حَدَثًا *مُقَدَّرًا تَقديرًا إلهِيًّا* أو شَيئًا *مُقَدَّسًا* أو حَدَثًا *مُعجِزًا*، إذ يَعُدُّونَها تَعبيرًا عن مَواقِفَ لامَعرِفِيَّةٍ تُجاهَ الأفعالِ والأشياءِ والأحداثِ المَعنِيَّةِ. فالجُملَةُ (1) في ما يَأتي، عَلى سَبيلِ المِثالِ، يُمكِنُ تَأويلُها بِالجُملَةِ (2):

1. إنَّ شَقَّ مُوسَى البَحرَ الأحمَرَ كانَ مُعجِزَةً.
2. آو! AWE! (شَقُّ مُوسَى البَحرَ الأحمَرَ).

حَيثُ يَرمِزُ 'آو!' إلى تَعبيرٍ عن دَهشَةٍ (أو أيِّ مَوقِفٍ يَفتَرِضُهُ التَّعبيرِيُّونَ مِمّا يُعَبَّرُ عنهُ عُرفِيًّا بِقَولِ القائلِ إنَّ شَيئًا مّا مُعجِزٌ). فبِهذا القَدْرِ، يُمكِنُ القَولُ إنَّ التَّعبيرِيَّةَ الدِّينِيَّةَ والتَّعبيرِيَّةَ الأخلاقِيَّةَ تَستَخدِمانِ مَنهَجَيْ تَأويلٍ مُتَشابِهَيْنِ. على أنَّ اللُّغَةَ الدِّينِيَّةَ لا تُمَيَّزُ مِن خِلالِ صِنفٍ مِن المَحمولاتِ فقط؛ إذ تَنطَوي أيضًا على

(1) مَعَ ذلكَ، يُنظَرُ الفَصلُ 4 لِلوُقوفِ على الفَرقِ بَينَ نُسخَتَيْ بلاكبيرن وغِبَرد لِلتَّعبيرِيَّةِ الأخلاقِيَّةِ.

أوصافٍ لِلطَّبيعَةِ والفَعّاليَّةِ المُتَعَلِّقَتَيْنِ بِاللهِ وبِفاعِلِينَ آخَرِينَ خارِقِينَ لِلطَّبيعَةِ. فَكَيفَ يُؤَوِّلُ التَّعبيرِيُّونَ الدِّينِيُّونَ، على سبيلِ المِثالِ، الجُملَتَيْنِ (3) و(4) الآتِيَتَيْنِ؟

3. قالَ اللهُ لِنُوحٍ: 'جاءَتْ نِهايَةُ كُلِّ بَشَرٍ'*.

4. ضَرَبَ الرَّبُّ أهلَ بَيتِ شَمسَ**.

فالذي يَبدو أنَّ ثَمَّةَ فَجوَةً في التَّحليلِ التَّعبيرِيِّ حينَ يتعلَّقُ الأمرُ بِالجُمَلِ التي تَصِفُ اللهَ أو تَستَخدِمُ عِباراتٍ اسمِيَّةً دينِيَّةً أُخرَى. وبِإمكانِ التَّعبيرِيِّينَ أن يُحاوِلوا تَأويلَ اللُّغَةِ المُتَعَلِّقَةِ بِاللهِ تَأويلًا حملِيًّا. مِثالُ ذلكَ أنَّ الجُملَةَ (4) يُمكِنُ أن تُقرَأَ على النَّحوِ الآتي:

5. ضَربُ أهلِ بَيتِ شَمسَ كانَ فِعلَ الرَّبِّ.

فما دامَ 'فِعل الرَّبِّ' يُؤدِّي وَظيفَةَ المَحمولِ، فبِالإمكانِ تَأويلُ الجُملَةِ (5) بِما يَنسَجِمُ معَ التَّعبيرِيَّةِ على النَّحوِ الآتي:

6. آو! (ضَربُ أهلِ بَيتِ شَمسَ).

على أنَّ هذا سَيَجعَلُ التَّعبيرِيِّينَ في مُواجَهَةِ مُشكِلَةِ كَيفِيَّةِ تَأويلِ الجُمَلِ التي تَنسِبُ إلى اللهِ صِفاتٍ مِن غَيرِ وُجودِ تَأويلٍ بَديلٍ طَبيعِيٍّ. [72] مِثالُ ذلكَ الجُملَتانِ الآتِيَتانِ:

7. اللهُ عَظيمٌ.

---

* سِفرُ التَّكوين 6: 13. [المُتَرجِم]

** صموئيل الأوَّل 6: 19. [المُتَرجِم]

8. اللهُ كُلِّيُّ العِلمِ.

فالذي يَبدو أَنَّهُ لا تُوجَدُ أَيَّةُ قِراءَةٍ مَقبولَةٍ لِلجُملَةِ (7) أو لِلجُملَةِ (8) بِوُسعِها تَأويلُ الإحالَةِ على اللهِ تَأويلًا حَمليًا. لِذلكَ كانَ ثَمَّةَ سُؤالٌ مُهِمٌّ بِشَأنِ مَدَى تَوَفُّرِ التَّعبيريَّةِ على المَصادِرِ اللازِمَةِ لِتَقديمِ تَأويلٍ كامِلٍ لِلُّغَةِ الدِّينِيَّةِ أو مَدَى وُجوبِ سَماحِها بِكَونِ بَعضِ الجُمَلِ الدِّينِيَّةِ تُمَثِّلُ حَقائقَ دينِيَّةً أو تُحيلُ على اللهِ. على أَنَّهُ يُلحَظُ أَنَّ هذهِ لا تُمَثِّلُ مُشكِلَةً لِنَظريَّةِ المَوقِفِ المُعتَدِلَةِ لأَنَّ التَّعبيرَ عن الحالاتِ اللامَعرِفِيَّةِ يُضيفُ إلى تَمثيلِ الحَقائقِ الدِّينِيَّةِ والإيمانِ بِها ولا يَحلُّ مَحلَّها.

التَّعبيريَّةُ، والإلحادُ، والصِّدق

يَبدو أَنَّ التَّعبيريِّينَ يَقتَرِحونَ أُطروحَةً لِلُّغَةِ الدِّينِيَّةِ مُختَلِفَةً تَمامًا عن الإلحادِ. فإذا كانَ المَلاحِدَةُ يَتَبَنَّونَ تَبَنِّيًا نَمَطِيًّا أُطروحَةَ قيمَةٍ ظاهِرِيَّةٍ لِلُّغَةِ الدِّينِيَّةِ لكِنَّهُم يَعتَقِدونَ أَنَّ الجُمَلَ والاعتِقاداتِ الدِّينِيَّةَ كاذِبَةٌ، فإنَّ التَّعبيريِّينَ يَنفُونَ كَونَ الجُمَلِ الدِّينِيَّةِ تُمَثِّلُ حَقائقَ دينِيَّةً أو تُستَعمَلُ لِلتَّعبيرِ عن اعتِقاداتٍ دينِيَّةٍ بَل يَرَونَ أَنَّها تُعَبِّرُ عن حالاتٍ لامَعرِفِيَّةٍ. فإذا كانَتِ الجُمَلُ الدِّينِيَّةُ لا تُمَثِّلُ حَقائقَ دينِيَّةً، فليسَ بِالإمكانِ إذَن أن تَكونَ مُخطِئَةً بِشَأنِ هذهِ الحَقائقِ؛ وإذا كانَتْ لا تُستَعمَلُ لِلتَّعبيرِ عن اعتِقاداتٍ دينِيَّةٍ، فهيَ إذَن لا تُستَعمَلُ لِلتَّعبيرِ عن اعتِقاداتٍ دينِيَّةٍ كاذِبَةٍ. فالذي يَبدو أَنَّ التَّعبيرِيَّةَ مُتَمايِزَةٌ مِن الإلحادِ. على أَنَّ التَّعبيرِيَّةَ ما زالَتِ هَدَفًا لاتِّهامٍ مُتَواصِلٍ بِأَنَّها تَعتَمِدُ على الإلحادِ أو أَنَّ مَآلَها إليهِ. وقَد ذَكَرْنا هذا الاعتِراضَ في الفَصلِ 1. وقَد أَثارَهُ فان إنواغِن بِقَولِهِ:

> مُنذُ زَمَنٍ لَيسَ بِالبَعيدِ جِدًّا، والزَّمَنُ يُقاسُ في تَأريخِ الفِكرِ، كانَ كُلُّ مَن يَقولُ بِخَطَإٍ أن يُعَدَّ س مِثلَ ف يَعني، وكانَ الجَميعُ يَرَونَ أَنَّهُ يَعني، أَنَّ س لَيسَ ف. (2006, p. 156)

وتُوجَدُ طَريقَتانِ لِتَطويرِ هذا الاعتِراضِ. أمّا إحداهُما فبِالإشارَةِ إلى أنَّهُ إن كانَتِ التَّعبيرِيَّةُ عَلى صَوابٍ، فإنَّ المُؤمِنينَ على خَطَإٍ باعتِقادِهِم أنَّهُم يُحيلونَ على اللهِ وأنَّهُم يَصِفُونَ واقِعًا دينِيًّا. وليسَ في مَقدورِ المُؤمِنينَ بَعدُ أن يَقولوا إنَّهُ *لَواقِعٌ* أنَّ ثَمَّةَ إلهًا أو حَتّى أن يَقولوا إنَّهُ *لَصِدقٌ* أنَّ ثَمَّةَ إلهًا. (Tilley, 1978, p. 37) فالذي يَبدو عُمومًا أنَّ التَّعبيرِيَّةَ تُعاني مُشكِلَةً في تَقديمِ أُطروحَةٍ مَقبولَةٍ لِما يَعنيهِ المُؤمِنونَ حينَ يَدَّعُونَ أنَّ اعتِقاداتِهِم صادِقَةٌ أو واقِعِيَّةٌ. وأمّا الطَّريقَةُ الأُخرَى فيُقالُ فيها إنَّهُ بِالقَدْرِ الذي يَكونُ بِهِ المُعتَقِدُ قادِرًا على أن يَدَّعِيَ، بِما يَنسَجِمُ مَعَ الأُطروحَةِ التَّعبيرِيَّةِ، أنَّ ثَمَّةَ إلهًا أو أنَّ اللهَ *لَهُ* صِفاتٌ مُختَلِفَةٌ، وما إلى ذلكَ، [73] يَكونُ هذا نَوعًا مِن أنواعِ الخِداعِ عَلى ما يَبدو. فالمُعتَقِدُ لا يَفعَلُ شَيئًا سِوَى أنَّهُ *يَقولُ* إنَّ ثَمَّةَ إلهًا، لكِنَّ ما تَستَتبِعُهُ التَّعبيرِيَّةُ هوَ أن لا وُجودَ لِحَقائقَ دينِيَّةٍ مُمَثِّلَةٍ وأنَّ المَواقِفَ التي يُعَبِّرُ عنها المُعتَقِدُ لا تُمَثِّلُ واقِعًا دينِيًّا. فالتَّعبيرِيَّةُ تُظهِرُ المُؤمِنينَ في مَظهَرِ المُدَّعِينَ لأشياءَ لَيسَتْ صادِقَةً حَقًّا (McCutcheon, 2001, p. 182).

وتَبدو هذهِ الاعتِراضاتُ مُسَوَّغَةً حينَ نَنظُرُ في كِتاباتِ بَعضِ التَّعبيرِيِّينَ الدِّينِيِّينَ. وَلْنَأخُذْ مِثالًا لِذلكَ عَيِّنَةً مِن تَعليقاتِ د.ز. فِلِبس D.Z. Philips* على الاعتِقادِ واللُّغَةِ الدِّينِيَّيْنِ، إذ يَقولُ:

> إنَّ الاعتِقادَ الدِّينِيَّ هوَ نَفسهُ التَّعبيرُ عن رُؤيَةٍ أخلاقِيَّةٍ. (1976, p. 143)
>
> إنَّ الثَّناءَ والتَّمجيدَ لا يُحيلانِ على شَيءٍ مّا يُدعَى اللهَ. بَل إنَّ التَّعبيرَ عن هذا الثَّناءِ وهذا التَّمجيدِ هوَ ما نَدعُوهُ عِبادَةَ اللهِ. (1976, p. 149)
>
> إنَّ التَّعبيراتِ الدِّينِيَّةَ عن الثَّناءِ، والتَّمجيدِ، وما إليهِما، لَيسَت تَعبيراتٍ إحالِيَّةً. فَهذهِ الفَعّالِيّاتُ ذَواتُ طَبيعَةٍ تَعبيرِيَّةٍ، وإنَّ ما تُعَبِّرُ عنهُ يُدعَى عِبادَةَ اللهِ. (1976, p. 150)

---

* ديوي زيفانيا فِلِبس (1934-2006م). فَيلَسوفٌ ويلزِيٌّ. كانَ مُناصِرًا أساسِيًّا لِفَلسَفَةِ الدِّينِ الفِتغِنشتايِنِيَّةِ. بَلَغَتْ مَسيرَتُهُ الأكاديمِيَّةُ نَحوَ خَمسَةِ عُقودٍ، وقَبلَ وَفاتِهِ كانَ أُستاذَ فَلسَفَةِ الدِّينِ في جامِعَةِ كليرمونت بِكاليفورنيا، وأُستاذَ الفَلسَفَةِ في جامِعَةِ سوانزي. مِن مُؤَلَّفاتِهِ: (الاعتِقادُ، والتَّغييرُ، وأشكالُ الحَياة)؛ و(الموتُ والخُلود)؛ و(الإيمانُ والبَحثُ الفَلسَفِيّ). [المُتَرجِم]

فالذي يَذهَبُ إليهِ فِلِبس لا يَقتَصِرُ على أنَّ الاعتِقادَ الدِّينِيَّ يَنبَغي أن يُفهَمَ على أنَّهُ مَوقِفٌ لامَعرِفِيٌّ بَل يَرى أيضًا أنَّ التَّعبيراتِ الدِّينِيَّةَ *لَيسَت تَعبيراتٍ إحالِيَّةً*. على أنَّهُ إن لَم يَكُن لَفظُ 'الله' وغَيرُهُ مِن الألفاظِ الدِّينِيَّةِ تَعبيراتٍ إحالِيَّةً فالذي يَبدو أنَّ ما يَقولُهُ المُؤمِنونَ عن اللهِ كاذِبٌ إذَن.

على أنَّ مِن المُثيرِ لِلاهتِمامِ أن نَرَى فِتغِنشتاين - وهو ذو تَأثيرٍ أساسِيٍّ في أُطروحَةِ فِلِبس الدِّينِيَّةِ - يُعَلِّقُ على دَورِ اللُّغَةِ الدِّينِيَّةِ في التَّعبيرِ عن المَشاعِرِ والمَواقِفِ لكِنَّهُ لا يَتَقَدَّمُ بِأيَّةِ دَعوَى أعَمَّ بِشَأنِ التَّعبيراتِ الدِّينِيَّةِ التي تُخفِقُ في الإحالَةِ أو بِشَأنِ كَونِ الجُمَلِ الدِّينِيَّةِ غَيرَ صادِقَةٍ أو وَصفِيَّةٍ. فهوَ يَقولُ، مَثَلًا، إنَّ الاعتِقادَ الدِّينِيَّ 'يُشبِهُ الالتِزامَ العاطِفِيَّ لِنِظامٍ إحالِيٍّ. فهوَ وإن يَكُن *اعتِقادًا*، فإنَّهُ حَقًّا طَريقَةُ حَياةٍ، أو طَريقَةٌ لِتَقويمِ الحَياةِ' (1994, p. 62). ويَقولُ عن عَقيدَةِ القَضاءِ والقَدَرِ إنَّها 'حَسرَةٌ أو صَرخَةٌ أكثَر مِنها نَظَرِيَّةً' (1994, p. 30)، ويَرَى أيضًا أنَّ هذهِ العَقيدَةَ يُمكِنُ أن تُدعَى 'صادِقَةً'، وإن 'لَم يَجُزْ لِلمَرءِ أن يُقَرِّرَها بِوَصفِها حَقيقَةً، ما لَم يَكُن يُعاني عندَ قَولِها' (1994, p. 30). ويَتَناوَلُ فِتغِنشتاين العِبارَةَ التَّقريرِيَّةَ 'إنَّها إرادَةُ اللهِ' فيَدَّعي أنَّهُ لا يَنبَغي لَنا حَتّى أن نَعُدَّها تَقريرًا بَل يَنبَغي أن نَعُدَّها إلزامًا. 'فالعَمَلُ الذي تُؤَدِّيهِ هذهِ الجُملَةُ، أو أيُّ شَيْءٍ مُشابِهٍ لَها في أيَّةِ حالٍ، يُمكِنُ أن يُؤَدِّيَهُ الأمرُ أيضًا' (1994, p. 61).

فَهَل يُمكِنُ إذَن أن يُدافِعَ التَّعبيرِيُّونَ عن الفَرضِيَّةِ المَركَزِيَّةِ التي مُفادُها أنَّ الجُمَلَ الدِّينِيَّةَ لا تُمَثِّلُ حَقائقَ دينِيَّةً وأنَّها تُعَبِّرُ عن مَواقِفَ لامَعرِفِيَّةٍ [74] لا عن اعتِقاداتٍ دينِيَّةٍ في الوَقتِ الذي يُتيحونَ فيهِ *أيضًا* مَجالًا لِلحَديثِ عن الصِّدقِ الدِّينِيِّ، والحَقائقِ الدِّينِيَّةِ، والإحالَةِ الدِّينِيَّةِ؟ في السَّنَواتِ الأخيرَةِ، ولا سِيَّما مُنذُ العَرضِ المُؤَثِّرِ لِسايمن بلاكبيرن لِلتَّعبيرِيَّةِ في كِتابِهِ *نَشْرُ الكَلِماتِ* *Spreading the Word* في عامِ (1984)، حاوَلَ التَّعبيرِيُّونَ في مُختَلِفِ المَيادينِ (ولا سِيَّما عِلمُ الأخلاقِ) تَقديمَ تَأويلاتٍ لِلحَديثِ 'الواقِعِيِّ' الطَّنّانِ عن الصِّدقِ، والحَقائقِ، والإحالَةِ، وما إليها، بِما يَنسَجِمُ معَ نَظَرِيَّتِهِم المَركَزِيَّةِ. وتُسَمّى مُهِمَّةُ إظهارِ كَيفِيَّةِ إمكانِ أن يَكونَ لِمساحَةٍ لامَعرِفِيَّةٍ مِن الخِطابِ مَظهَرٌ تَمثيلِيٌّ بِاسمِ شِبه *الواقِعِيَّة*. ويَستَهدِفُ المَشروعُ شِبهُ

الواقِعِيِّ الدَّليلَ اللُّغَوِيَّ الذي يَدفَعُ بِمُقارَبَةِ القيمَةِ الظّاهرِيَّةِ إلى مِساحَةٍ مُعَيَّنَةٍ لِلُّغَةِ ويُظهِرُ كَيفِيَّةَ إمكانِ أن يُفَسَّرَ هذا الدَّليلُ بِما يَنسَجِمُ معَ النَّظرِيَّةِ التَّعبيرِيَّةِ. ويُلَخِّصُ غِديَن روزن Gideon Rosen* هذا المَذهَبَ تَلخيصًا جَيِّدًا بِقَولِهِ:

> إنَّ الاستراتيجيا [شِبهَ الواقِعِيَّةِ] هيَ بِناءُ مَذهَبٍ يَحتَضِنُ كُلَّ البَلاغَةِ الخِصبَةِ لِلواقِعِيَّةِ مِن غَيرِ تَعديلٍ أو تَحَفُّظٍ أو إعادَةِ تَأويلٍ مُلتَوِيَةٍ لِلُّغَةِ، ولكِنَّهُ معَ ذلكَ مُضادٌّ في رُوحِهِ لِلواقِعِيَّةِ على نَحوٍ مُمَيَّزٍ. فهذا هوَ مَشروعُ شِبهِ الواقِعِيَّةِ. إذ تَبدَأُ بِمُضادَّةٍ لِلواقِعِيَّةِ تَعبيرِيَّةٍ، تَكونُ وَظيفَةُ الخِطابِ في المساحَةِ الخِلافِيَّةِ استِنادًا إليها هيَ التَّعبيرَ عَن مَكنونِ مَشاعِرِنا أو عَواطِفِنا لا تَمثيلَ السِّماتِ الواقِعِيَّةِ لِلأشياءِ. ثُمَّ تُظهِرُ كَيفِيَّةَ تَمَكُّنِ المُنَظِّرِ مِن 'الحُصولِ على حَقٍّ' بَلاغَةِ الواقِعِيَّةِ والمَوضوعِيَّةِ بِتَأويلِ دَعاواها المَركَزِيَّةِ، لا بِوَصفِها إفصاحاتٍ عَن عَقيدَةٍ ميتافيزيقِيَّةٍ مُندَفِعَةٍ، بَل بِوَصفِها هي أنفُسها تَعبيراتٍ عن مَواقِفَ مُختَلِفَةِ الأنواعِ. (Rosen, 1998, pp. 386-7)

والمَناهِجُ الرَّئيسَةُ التي استَخدَمَها التَّعبيرِيُّونَ في تَطويرِ المَشروعِ شِبهِ الواقِعِيِّ تُطَبَّقُ مُباشَرَةً على التَّعبيرِيَّةِ الدِّينِيَّةِ.

فَلْنَأخُذِ الجُملَةَ الآتِيَةَ مِثالًا لِما نَقولُ:

9. 'اللهُ مَوجودٌ' صادِقَةٌ.

ولا شَكَّ في أنَّ هذا أمرٌ سَيُقِرُّ بِهِ مَن يُؤمِنُ بِاللهِ. على أنَّهُ استِنادًا إلى أُطروحَةِ التَّعبيرِيَّةِ الدِّينِيَّةِ التي تَقَدَّمَ بِها فِلِبس ستَكونُ الجُملَةُ (9) كاذِبَةً لأنَّ 'الله' لَيسَ تَعبيرًا إحالِيًّا. على أنَّ ثَمَّةَ خِيارًا أفضَلَ لِلتَّعبيرِيِّينَ هوَ اتِّباعُ استراتيجيا شِبهِ واقِعِيَّةٍ

* غِديَن روزِن (1962–...م). فيلَسوفٌ أمريكِيٌّ. أُستاذُ الفَلسَفَةِ في جامِعَةِ برنستون. حَصَلَ عَلى شَهادَةِ الدُّكتوراه مِن جامِعَةِ برنستون عامَ 1992، وكانَ المُشرِفُ عَلى أُطروحَتِهِ بول بيناسيراف. دَرَّسَ في جامِعَةِ ميشيغان، قَبلَ أن يَلتَحِقَ بِجامِعَةِ برنستون عامَ 1993. مِن مَقالاتِهِ المنشورَةِ: "مَقالاتُ بلاكبيرن في شِبهِ الواقِعِيَّةِ"؛ و"ما التَّجريبِيَّةُ البِنائيَّةُ؟"؛ و"الاسمِيَّةُ، والطَّبيعِيَّةُ، والنِّسبِيَّةُ المَعرِفِيَّةُ". [المُتَرجِم]

مِعياريَّةٍ لِتَبَنّي أُطروحَةٍ *انكِماشِيَّةٍ* لِلصِّدقِ. فاستِنادًا إلى الأُطروحَةِ الانكِماشِيَّةِ لِلصِّدقِ، يُمكِنُ أن يُقالَ إنَّ المُخَطَّط غَيرَ الاقتِباسِيِّ disquotational schema (DS) يُخبِرُنا بِكُلِّ ما يُمكِنُ عُمومًا أن يُقالَ عن الصِّدقِ.

(المُخَطَّطُ غَيرُ الاقتِباسِيّ) 'س' لا تكونُ صادِقَةً إلّا إذا كانَ س. [75]

وفي (المُخَطَّط غَير الاقتِباسِيّ) يَرمِزُ س إلى جُملَةٍ. فَمُفادُ هذهِ النَّظرَةِ الانكِماشِيَّةِ، التي يُعَبَّرُ عنها أحيانًا بِالقَولِ إنَّ الصِّدقَ ليسَ صِفَةً 'ثابِتَةً' أو 'جَوهَرِيَّةً'، أنَّ الصِّدقَ هوَ في المَقامِ الأَوَّلِ وَسيلَةٌ غَيرُ اقتِباسِيَّةٍ تُتيحُ لَنا الانتِقالَ مِن ذِكرِ الجُملَةِ س (على الجانِبِ الأَيمَنِ) إلى استِعمالِ س لِلحَديثِ عن مَوضوعٍ مّا (على الجانِبِ الأَيسَرِ)، وفِعلَ العَكسِ. وبِوُسعِ التَّعبيرِيِّينَ استِعمالُ هذهِ النَّظَرِيَّةِ لِيُبَيِّنوا إمكانَ تَقديمِ المَحمولِ الصِّدقِيِّ في الخِطابِ اللامَعرِفِيِّ مِن غَيرِ تَقويضٍ لِلتَّعبيرِيَّةِ. فَلْنَنظُرْ، مَثَلًا، في الجُملَةِ الآتِيَةِ:

10. اللهُ صالِحٌ.

إذ يُمكِنُ إدراجُها في (المُخَطَّط غَير الاقتِباسِيّ) على النَّحوِ الآتي:

11. 'اللهُ صالِحٌ' لا تكونُ صادِقَةً إلّا إذا كانَ اللهُ صالِحًا.

ويَلزَمُ مِن ذلكَ أنَّ المُؤمِنَ الذي يُثبِتُ الجُملَةَ (10) يُمكِنُهُ أيضًا إثباتُ الجُملَةِ الآتِيَةِ:

12. 'اللهُ صالِحٌ' صادِقَةٌ.

أي إنَّ نظرِيَّةَ الصِّدقِ الانكِماشِيَّةَ تَقتَضي أنَّ المُؤمِنَ حينَ يُثبِتُ الجُملَةَ (12) لا يَأتي بِأيَّةِ مَعلومَةٍ زائدَةٍ على ما في الجُملَةِ (10). فقَولُنا عن الجُملَةِ (12) إنَّها صادِقَةٌ، على سبيلِ المِثالِ، لا يُغَيِّرُ مَضمونَها التَّمثيلِيَّ. فالنَّظرِيَّةُ التَّعبيرِيَّةُ تَقتَضي أنَّ الجُملَتَيْنِ (10) و(12) تُعَبِّرانِ عن مَوقِفَيْنِ لامَعرِفِيَّيْنِ مُتَشابِهَيْنِ. وإن يَكُنْ ثَمَّةَ

اختِلافٌ بينَهُما، فهوَ ليسَ في مَضمونِهما بَل هوَ في كَونِ الجُملَةِ (12) تَعبيرًا أشَدَّ عن المَواقِفِ اللامَعرِفِيَّةِ التي تُعَبِّرُ عنها الجُملَةُ (10).

ويُمكِنُ تَوسيعُ الاستراتيجيا الانكِماشِيَّةِ لِتَشمَلَ تَعبيراتٍ مِفتاحِيَّةً أُخرَى بَدَتْ عَصِيَّةً على أن تُؤَوَّلَ تَأويلًا يَنسَجِمُ مَعَ التَّعبيرِيَّةِ. مِثالُ ذلكَ أنَّ مِن نافِلَةِ الحَديثِ أن يُقالَ إنَّ العِبارَةَ التَّقريرِيَّةَ الصّادِقَةَ هيَ *حَقيقَةٌ* وإنَّ العِبارَةَ التَّقريرِيَّةَ الصّادِقَةَ هيَ صادِقَةٌ *حَقًّا* . فيَلزَمُ مِن ذلكَ أنَّهُ إن كانَ صِدقًا أنَّ اللهَ صالِحٌ فإنَّ مِن الصِّدقِ *حَقًّا* أنَّ اللهَ صالِحٌ، وأنَّهُ إن كانَ صِدقًا فإنَّهُ *حَقيقَةٌ* أيضًا أنَّ اللهَ صالِحٌ. ثُمَّ إنَّ بالإمكانِ أن تُقتَرَحَ القِراءَةُ الانكِماشِيَّةُ لِلإحالَةِ أيضًا: فاللفظُ المُفرَدُ يُحيلُ إن وُجِدَ في جُملَةٍ صادِقَةٍ. فالمُؤمِنُ الذي يُثبِتُ الجُملَةَ (12) يُمكِنُهُ أيضًا إثباتُ الجُملَةِ الآتِيَةِ:

13. 'اللهُ' لَفظٌ مُحيلٌ.

وقد يَعتَرِضُ هُنا مَن يُناصِرُ مُقارَبَةَ القيمَةِ الظّاهِرِيَّةِ بِأنَّ هذهِ التَّأويلاتِ الانكِماشِيَّةَ لِلصِّدقِ، والإحالَةِ، والحَقيقَةِ، وما إليها، غَيرُ مُقنِعَةٍ. على أنَّ هذا يَأخُذُنا إلى مَسألَةِ تَحديدِ الطَّريقَةِ المُثلَى لِتَحليلِ الصِّدقِ في اللُّغَةِ الدِّينِيَّةِ؛ وهوَ موضوعٌ سنبحَثُ فيهِ بِالتَّفصيلِ في [76] القِسمِ الثّاني. أمّا في هذا المَوضِعِ، فيُمكِنُ أن يُقالَ إنَّ النَّظرِيَّةَ الانكِماشِيَّةَ لِلصِّدقِ تُمِدُّ التَّعبيرِيِّينَ بِطريقَةٍ لِتَأويلِ استِعمالِ المَحمولِ الصِّدقِيِّ في اللُّغَةِ الدِّينِيَّةِ، والحَقائِقِ والإحالَةِ والوَصفِ أيضًا، على نَحوٍ مُنسَجِمٍ مَعَ التَّعبيرِيَّةِ. أي إنَّ بِإمكانِ المُؤمِنِينَ أن يَتَحَدَّثوا بِمَشروعِيَّةٍ عن الصِّدقِ والكَذِبِ على نَحوٍ يَنسَجِمُ مَعَ النَّظرِيَّةِ التي مُفادُها أنَّ الإثباتاتِ الدِّينِيَّةَ تَعبيراتٌ عن مَواقِفَ لامَعرِفِيَّةٍ. وإذا كانَ د.ز. فِلِبس قد نَجَحَ في التَّمَلُّصِ مِن مُهِمَّةِ تَأويلِ اللُّغَةِ الدِّينِيَّةِ بِما يَنسَجِمُ مَعَ التَّعبيرِيَّةِ عندَ النُّقطَةِ التي يُقَدِّمُ فيها الصِّدقُ والإحالَةُ والوَصفُ، فإنَّ شِبهَ الواقِعِيِّ يُواصِلُ إلحاحَهُ على القِراءَةِ التَّعبيرِيَّةِ لِهذهِ التَّعبيراتِ[2].

(2) على أنّا سنَرَى في القِسمِ الثّاني مِن هذا الكِتابِ أنَّ د.ز. فِلِبس قَد أيَّدَ، عَلى ما يَبدو، في كِتاباتِهِ المُتَأَخِّرَةِ مُقارَبَةً انكِماشِيَّةً أكثَرَ اكتِمالًا لِلُّغَةِ الدِّينِيَّةِ.

وقَد يَكونُ مُنَظِّرُو القيمَةِ الظّاهرِيَّةِ مَيّالِينَ عِندَ هذهِ النُّقطَةِ إلى الإلحاحِ على مَسأَلَةِ مَدَى اعتِقادِ التَّعبيريِّينَ وُجودَ حَقيقَةٍ على الإطلاقِ حَقًّا في ما يتعلَّقُ بِوُجودِ اللهِ. فإذا كانَ التَّعبيريُّونَ الذينَ يَتَّبِعونَ النَّهجَ شِبهَ الواقِعِيِّ يُقِرُّونَ بِوُجودِ حَقيقَةٍ لِهذا الأَمرِ، أَفَلا يَكونونَ بِذلكَ مُبطِلِينَ لِنَظريَّتِهِم الشَّخصِيَّةِ إبطالًا فَعّالًا؟ فالذي يَبدو أَنَّهُ يَلزَمُ مِن ذلكَ أَنَّ الجُمَلَ الدِّينِيَّةَ تَرمي إلى نَقلِ الحَقائقِ، وهوَ ما بَدا أَنَّ التَّعبيرِيِّينَ يَنفونَهُ. على أَنَّ التَّعبيرِيِّينَ الذينَ يَتَبَنَّونَ المَشروعَ شِبهَ الواقِعِيِّ يَقصِدونَ تَقديمَ أُطروحَةٍ لِلُّغَةِ الدِّينِيَّةِ تُظهِرُ كَيفِيَّةَ البَدءِ مِن نُقطَةِ انطِلاقٍ تَعبيرِيَّةٍ لِلوُصولِ إلى تَأويلٍ لِتلكَ المساحاتِ مِن اللُّغَةِ الدِّينِيَّةِ التي تَبدو كَأَنَّها تَرمي إلى أَن تكونَ مُقَرِّرَةً لِلحَقائقِ وواصِفَةً لَها مِن غَيرِ افتِراضِ أَنَّها تُمَثِّلُ فِعلِيًّا حَقائقَ دينِيَّةً. وهذا هوَ ما يُحاوِلُ التَّعبيرِيُّونَ فِعلَهُ بِذَهابِهِم إلى أَنَّ الجُملَةَ (12) تُعَبِّرُ عن الشَّيءِ نَفسِهِ الذي تُعَبِّرُ عنهُ الجُملَةُ (10) (وإن كانَ على نَحوٍ أَشَدَّ قَليلًا) وأَنَّ الجُملَةَ (13) لَيسَتْ سِوَى تَعليقٍ عَلى الجُملَةِ (12). فَالحَديثُ عن الصِّدقِ والإحالَةِ وما إليهِما لا يَقتَضي افتِراضَ أَنَّ ذلكَ يُقَدِّمُ مَضمونًا مَعرِفِيًّا إضافِيًّا إلى ما يُقالُ. ويُعَبِّرُ بلاكبيرن عن ذلكَ بِقَولِهِ إنَّ الانتِقالَ مِن قَضِيَّةٍ أَنَّ س إلى قَضِيَّةٍ أَنَّ س صادِقَةٌ إلى قَضِيَّةٍ أَنَّهُ حَقيقَةٌ أَنَّ س، يُوَلِّدُ لَدينا إحساسًا بِأَنّا نَرتَقي 'سُلَّمَ رامزي Ramsey's ladder'*،

* نِسبَةً إلى فرانك بلَمبتن رامزي (1903–1930م)، وهوَ فَيلَسوفٌ، وعالِمُ رِياضِيّاتٍ، واقتِصادِيٌّ بريطانِيٌّ. كانَتْ لَهُ إسهاماتٌ أَساسِيَّةٌ في الجَبرِ التَّجريدِيِّ قَبلَ وَفاتِهِ في سِنِّ السّادِسَةِ والعِشرينَ. كانَ صَديقًا مُقَرَّبًا جِدًّا مِن لودفيغ فِتغِنشتاين وكانَ لَهُ أَثَرٌ فاعِلٌ في تَرجَمَةِ كِتابِ فِتغِنشتاين (رِسالَةٌ مَنطِقِيَّةٌ فَلسَفِيَّةٌ) إلى اللُّغَةِ الإنجليزِيَّةِ وفي إقناعِ فِتغِنشتاين بِالعَودَةِ إلى الفَلسَفَةِ وإلى كيمبرِج. مِن دِراساتِهِ: "الكُلِّيّات"؛ و"الحَقائقُ والقَضايا"؛ و"المعرِفَة". ويُمكِنُ فَهمُ المقصودِ بِـ"سُلَّم رامزي" المُشارِ إليهِ في المَتنِ بِالرُّجوعِ إلى ما ذَكَرَهُ رامزي نَفسُهُ مِن أَنَّ الانتِقالَ مِن 'س' إلى 'س صادِقَةٌ' لا يَحمِلُ جَديدًا، إذ قالَ: "مِن الواضِحِ أَنَّ قَولَنا: 'إنَّهُ لَصِدقٌ أَنَّ قَيصَرَ قَد قُتِلَ' لا يَعني سِوى أَنَّ قَيصَرَ قَد قُتِلَ، وأَنَّ قَولَنا: 'إنَّهُ لَكَذِبٌ أَنَّ قَيصَرَ قَد قُتِلَ' يَعني أَنَّ قَيصَرَ لَم يُقتَلْ"، ثُمَّ خَلَصَ إلى قَولِهِ: "الحَقُّ أَن لَيسَتْ ثَمَّةَ مُشكِلَةُ صِدقٍ مُستَقِلَّةٌ، بَل لَيسَ ثَمَّةَ سِوى تَخليطٍ لُغَوِيٍّ". فالانتِقالُ مِن 'س' إلى 'س صادِقَةٌ' هوَ ما يُسَمِّيهِ بلاكبيرن "سُلَّم رامزي" ويَذكُرُ أَنَّهُ أُفُقِيٌّ لأَنَّهُ لا يَنقُلُنا إلى مُستَوًى نَظَرِيٍّ جَديدٍ. [المُترجِم]

الذي تَبدو فيهِ كُلُّ نَقلَةٍ أعلَى مُستَوًى مِن سابِقَتِها. بيدَ أنَّ لَها جَميعًا المَضمونَ نَفسَهُ: 'فسُلَّمُ رامزي سُلَّمٌ أُفُقِيٌّ'. (1998a, pp. 78-9, 294-7)

وتَظَلُّ مَقبولِيَّةُ شِبهِ الواقِعِيَّةِ مَثارَ جَدَلٍ قائمٍ، ولا سِيَّما في ما بَعدَ عِلمِ الأخلاقِ. على أنَّ بِالإمكانِ أن يُرَى أن ليسَ على التَّعبيرِيِّينَ الدِّينِيِّينَ أن يُسَلِّموا بِالهَزيمَةِ حينَ يَتعلَّقُ الأمرُ بِتَأويلِ الحَديثِ عَن الصِّدقِ، والحَقائقِ، والإحالَةِ، والوَصفِ، في الدِّينِ؛ فثَمَّةَ مَصادِرُ أُخرَى مُتَوافِرَةٌ تُقَدِّمُ تَأويلًا يَنسَجِمُ مَعَ التَّعبيرِيَّةِ.

التَّعبيرِيَّةُ، والاستِبطانُ، والدَّليلُ التَّجريبِيّ

مِن الاعتِراضاتِ التي تُثارُ أحيانًا على التَّعبيرِيَّةِ أنَّهُ إذا كانَتِ الجُمَلُ الدِّينِيَّةُ لا تُستَعمَلُ عُرفِيًّا لِلتَّعبيرِ عن اعتِقاداتٍ دِينِيَّةٍ بَل [77] تُعَبِّرُ عن مَواقِفَ لامَعرِفِيَّةٍ، فإنَّ هذهِ الحَقيقَةَ يَنبَغي أن تَكونَ واضِحَةً لِلمُتَكَلِّمينَ. إذ يَرَى رِتشارد سونبيرن، على سبيلِ المِثالِ، أنَّ الطَّريقَةَ الوَحيدَةَ لِحَسمِ الخِلافِ بِشَأنِ صِدقِ التَّعبيرِيَّةِ (هوَ يَستَهدِفُ هُنا نُسخَةَ بْرَيْثوَيْت لِلتَّعبيرِيَّةِ على وَجهِ الخُصوصِ) هيَ 'إجراءُ مَسحٍ سوسيولوجِيٍّ وأدَبِيٍّ لِما يَعتَقِدُ الذينَ يَستَعمِلونَ الجُمَلَ الاعتِقادِيَّةَ أنَّهُم يَفعَلونَهُ بِذلكَ ولِما اعتَقَدوا أنَّهُم يَفعَلونَهُ بِذلكَ على مَدَى ألفَيْ عامٍ مَضَيا' (1993, p.90). ويَعتَقِدُ سونبيرن أنَّ نَظرِيَّةَ القيمَةِ الظّاهِرِيَّةِ ستَكونُ هيَ المُفَضَّلَةَ بِوُضوحٍ عندَ إجراءِ مَسحٍ كهذا. ويَرَى جون أوليري-هوثورن ودانييل هوارد-سنايدَر John O'Leary-Hawthorne and Daniel Howard-Snyder* رَأيًا ذا صِلَةٍ بِذلكَ، إذ يَقولانِ:

---

* جون أوليري-هوثورن. أُستاذُ الفَلسَفَةِ في جامِعَةِ جَنوبِ كالِفورنيا. يُعرَفُ بِإسهامِهِ الرِّيادِيِّ المُعاصِرِ في الميتافيزيقا ونظرِيَّةِ المَعرِفَةِ. مِن مُؤَلَّفاتِهِ: (المضمونُ الضَّيِّق)؛ و(مَقالاتٌ ميتافيزيقِيَّة)؛ و(قَواعِدُ المَعنى: المِعيارِيَّةُ والخِطابُ الدَّلالِيّ). ودانييل هوارد-سنايدَر. أُستاذُ الفَلسَفَةِ في جامِعَةِ غَربِ واشنطن. مَجالاتُ اهتِمامِهِ البَحثِيِّ هيَ فَلسَفَةُ الدِّينِ، واللاهوتُ الفَلسَفِيُّ، ونظرِيَّةُ المعرِفَةِ، والسّايكولوجيا الأخلاقِيَّةُ. مِن مُؤَلَّفاتِهِ المشتَرَكَة: (سُلطَةُ المَنطِق)؛ و(الإيمانُ، والحُرِّيَّةُ، والعَقلانِيَّةُ: فَلسَفَةُ الدِّينِ اليَومَ)؛ و(دَليلُ بلاكويل لِمُشكِلَةِ الشَّرّ). [المُترجِم]

مِن المُلائم أن نَبدَأَ بِالسُّؤالِ عَمّا يَحدُثُ فِعلًا حينَ يُقِرُّ المُؤمِنونَ بِإيمانِهِم. فنَحنُ بِذلكَ إنَّما نَبدَأُ بِأنثروبولوجيا وَصفِيَّةٍ. وَلْنَسأَلِ السُّؤالَ الآتِيَ المُتَّصِلَ بِذلكَ: (أ) هَل يَعتَقِدُ كَثيرٌ مِن المُؤَلِّهِينَ المُعاصِرينَ أَنَّ قَولَنا: 'اللهُ مَوجودٌ' يُعَبِّرُ عن حَقيقَةٍ؟ و(ب) هَل يُعَبِّرُ المُؤَلِّهُونَ المَسيحِيُّونَ، حينَ يُثبِتُونَ إيمانَهُم بِكَلِماتِ قانونِ الإيمانِ النِّيقاوِيِّ Nicene Creed*، عن اعتِقادِهِم أَنَّ ثَمَّةَ إلهًا واحِدًا حَقًّا؟... لِمَ نَسأَلُ هذهِ الأَسئلَةَ؟ لأَنَّ الجَذرِيَّةَ ما بَعدَ الكانْتِيَّةِ تَقتَرِحُ، على ما يَبدو، إجابَةً بِـ 'النَّفيِ' لِبَعضِها أو لِكُلِّها. (O'Leary-Hawthorne & Howard-Snyder, 1996, p. 250)

وإذا عَلِمْنا أَنَّ مُعظَمَ المُؤمِنِينَ يُقِرُّونَ، حينَ يُسأَلونَ عَمّا يَعتَقِدونَ هُم أَنفُسُهُم أَنَّهُم يُوصِلُونَهُ حينَ يُطلِقُونَ أَقوالًا دينِيَّةً، بِأَنَّهُم يُعَبِّرونَ عن حَقائِقَ، أَفَلا يَلزَمُ مِن ذلكَ أَنَّ التَّعبيرِيَّةَ كاذِبَةٌ؟

ومِن النِّقاطِ الواضِحَةِ التي يُمكِنُ إثارَتُها رَدًّا عَلى الحُجَّةِ المُتعلِّقَةِ بِالاعتِقادِ أَنَّ التَّعبيرِيَّةَ نظرِيَّةٌ تتعلَّقُ بِمَعنى الجُمَلِ الدِّينِيَّةِ، ولَيسَتْ نَظرِيَّةً تتعلَّقُ بِآراءِ المُؤمِنِينَ في مَعنَى ما يَقولونَ. ثُمَّ إنَّها مُنفَتِحَةٌ على مَسأَلَةِ مَدَى كَونِ أَحكامِ المُتَكَلِّمِينَ بِشَأنِ الحالاتِ الذِّهنِيَّةِ التي يُعَبِّرونَ عنها مُبَلوَرَةً جَيِّدًا بِما يَكفي لِتَمييزِ مَفهومِ 'الاعتِقاد' الذي هوَ مَوضِعُ خِلافٍ بينَ نظرِيَّةِ القِيمَةِ الظّاهِرِيَّةِ والتَّعبيرِيَّةِ. وقَد رَأَيْنا عندَ مُناقَشَتِنا لِباركلي أَنَّ الحالاتِ الذِّهنِيَّةَ التي يَشيعُ وَصفُها بِـ'الاعتِقادات' رُبَّما لا تتضَمَّنُ اعتِقاداتٍ 'إدخالِيَّةً' فقط بَل تتضَمَّنُ كذلكَ اعتِقاداتٍ 'إخراجِيَّةً' (وهيَ مَواقِفُ لامَعرِفِيَّةٌ). وغالِبًا مّا يُستَعمَلُ 'الاعتِقاد' بِطَريقَةٍ لا تَتَحَسَّسُ التَّمييزَ الفَلسَفِيَّ ذا الصِّلَةِ بِفَصلِ أُطروحَةِ القِيمَةِ الظّاهِرِيَّةِ لِلُّغَةِ الدِّينِيَّةِ عن الأُطروحَةِ التَّعبيرِيَّةِ لَها. فحَتّى لَو وَصَفَ المُتَكَلِّمُونَ الحالاتِ الذِّهنِيَّةَ التي يُعَبِّرونَ عنها بِاستِعمالِهِم اللُّغَةَ

---

* قانونُ الإيمانِ النِّيقاوِيُّ: دُستورٌ وقانونٌ رَتَّبَهُ آباءُ الكنيسَةِ في العالَمِ وأَقَرَّتْهُ المجامِعُ المسكونِيَّةُ لِكنائسِ العالَمِ النِّيقاوِيِّ، ويُؤمِنُ بِهِ المسيحِيُّونَ ويَقرؤونَهُ في الكنائسِ ولا سِيَّما في صَلَواتِ القدّاساتِ. وَسُمِّيَ بِالنِّيقاوِيِّ لأَنَّ قِسمَهُ الأكبَرَ وُضِعَ في المجمعِ المسكونِيِّ الأَوَّلِ الذي عُقِدَ عامَ 325م في نيقيةَ، ثُمَّ أُكمِلَ الجُزءُ الأَخيرُ منهُ في المجمعِ المسكونِيِّ الثّاني عامَ 381م في القسطنطينِيَّةِ. [المُتَرجِم]

الدِّينِيَّةَ بِـ 'الاعتِقادات' ما كانَ ذلكَ لِيُثبِتَ أَنَّهُم يَعُدُّونَ أقوالَهُم مُعَبِّرَةً عن اعتِقاداتٍ إدخاليَّةٍ.

ويَختارُ التَّعبيرِيُّونَ، في ما يتعلَّقُ بِمَسأَلَةِ مَدَى كَونِ المُؤمِنِينَ يَعُدُّونَ إثباتاتِهِم الدِّينِيَّةَ مُعَبِّرَةً عن حَقائقَ، مَزيدًا مِن التَّوسيعِ [78] لِلاستراتيجيا شِبهِ الواقِعِيَّةِ المَذكورَةِ آنِفًا. فكَما أَنَّ 'س' و'س صادِقَةٌ' و'إنَّهُ حَقيقَةٌ أَنَّ س' لا تَرتَقي حَقًّا سُلَّمَ رامزي بَل لا تَعني سِوَى ما تَعنيهِ 'س'، بِإمكانِ التَّعبيرِيِّينَ الذَّهابُ إلى أَنَّ الأَمرَ نَفسَهُ يُمكِنُ أن يُقالَ عن ''س'' تُعَبِّرُ عن حَقيقَةٍ'. فلا نَفعَ في أن نَسأَلَ المُؤمِنِينَ على سبيلِ المِثالِ: أَتَعني دَعوَى أَنَّ 'الله مَوجودٌ' أَنَّ اللهَ مَوجودٌ *صِدقًا* أَم تَعني أَنَّ اللهَ مَوجودٌ *واقِعًا* أَم تَعني أَنَّهُ حَقيقَةٌ أَنَّ اللهَ مَوجودٌ، مُؤَمِّلِينَ أن نَتَوَصَّلَ إلى إجابَةٍ مُبَصِّرَةٍ بِشَأنِ صِدقِ التَّعبيرِيَّةِ أو كَذِبِها. فاستِنادًا إلى ذلكَ، لا يَنبَغي أن نتوقَّعَ مِن استِطلاعِ آراءِ المُؤمِنِينَ بِشَأنِ مَعنَى ما يَقولونَ أن يُبدِيَ لَنا أَيَّةَ مَعلومَةٍ ليسَ بِمَقدورِ التَّعبيرِيِّينَ أن يُفَسِّروها. وبِإمكانِ الحَديثِ عمّا تَستَهدِفُهُ الأَقوالُ الدِّينِيَّةُ مِن التَّعبيرِ عن اعتِقاداتٍ أو التَّعبيرِ عن حَقائقَ أن يُفَسَّرَ في ضِمنِ الإطارِ التَّعبيريِّ بِوَصفِهِ تَعبيراتٍ إضافِيَّةً عن مَواقِفَ لامَعرِفِيَّةٍ.

التَّعبيرِيَّةُ هيَ الذّاتِيَّة

يَذهَبُ د.ز. فِلِبس (الذي بَيَّنْتُ أَنَّ بالإمكانِ أن يُعَدَّ هوَ نَفسُهُ تَعبيرِيًّا دينِيًّا) إلى أَنَّ أُطروحَةَ برَيْثوَيْت لِلُّغَةِ الدِّينِيَّةِ تَرُدُّ اللُّغَةَ الدِّينِيَّةَ إلى كَونِها 'مُعَزِّزاتٍ سايكولوجِيَّةً لِلجُهدِ الأَخلاقِيِّ'. وهوَ أَيضًا يَرفُضُ 'الذّاتِيَّةَ الرَّدِّيَّةَ' لأَنَّها تُقَدِّمُ صُورَةً كاذِبَةً لِلدَّورِ الذي تُؤَدِّيهِ المَفاهيمُ الدِّينِيَّةُ في حَياةِ المُؤمِنِينَ. إذ يَرَى فِلِبس أَنَّ المَفاهيمَ الدِّينِيَّةَ مُرتَبِطَةٌ ارتِباطًا جَوهَرِيًّا بِسُلوكِ المُؤمِنِينَ ومَواقِفِهِم، فيَقولُ:

> إنَّ اللُّغَةَ [الدِّينِيَّةَ] لا تَرتَبِطُ بِتَصَرُّفِ المُؤمِنِينَ ارتباطًا عارِضًا تَكونُ فيهِ تَعزيزًا سايكولوجِيًّا لَهُ. بَل إنَّها، بِعَكسِ ذلكَ، تَرتَبِطُ بِهِ ارتباطًا داخِلِيًّا يُفهَمُ في ضَوئهِ تَصَرُّفُ المُؤمِنِينَ مِن زاوِيَةِ هذهِ اللُّغَةِ. (Phillips, 1974, p. 144)

ويَرَى فِلبس أن ليسَ بإمكانِ المَرءِ أن 'يَفهَمَ' الاعتِقادَ الدِّينِيَّ إلّا في سِياقِ السُّلوكِ والمَواقِفِ التي تُشَكِّلُ الحَياةَ الدِّينيَّةَ. ويَعُدُّ فِلبس هذهِ الفِكرَةَ مُتَأَصِّلَةً في تَعليقاتِ فِتغِنشتاين على الاعتِقادِ الدِّينِيِّ.

ولا يُقَدِّمُ فِلبس بَيانًا مُحَدَّدًا لِما يَعنيهِ بِالذّاتِيَّةِ أو الرَّدِّيَّةِ. على أنّي أرَى أنَّ الرَّدِّيَّةَ الدِّينيَّةَ نظريَّةٌ تُقَدِّمُ شُروطَ الصِّدقِ لِصِنفِ الجُمَلِ الدِّينيَّةِ مِن زاوِيَةِ صِنفٍ مِن الجُمَلِ يَتعلَّقُ بِمَوضوعٍ آخَرَ. وأرَى أنَّ الذّاتِيَّةَ الدِّينيَّةَ حالَةٌ خاصَّةٌ مِن الرَّدِّيَّةِ 'يُرَدُّ' فيها صِنفُ الجُمَلِ الدِّينيَّةِ إلى جُمَلٍ تتعلَّقُ بِالسّايكولوجيا الإنسانِيَّةِ (أو تُقَدِّمُ شُروطَ صِدقِ الجُمَلِ الدِّينيَّةِ مِن زاوِيَةِ هذهِ الجُمَلِ التي تتعلَّقُ بِالسّايكولوجيا الإنسانِيَّةِ). مِثالُ ذلكَ أنَّهُ إذا قُدِّمَ شَرطُ صِدقِ الجُملَةِ (14) مِن خِلالِ الجُملَةِ (15)، كانَ هذا تَحليلًا رَدِّيًّا ذاتِيًّا: [79]

14. خَلَقَ اللهُ العالَمَ.

15. أنا [المُتَكَلِّمُ] أعجَبُ لِوُجودِ العالَمِ.

وسَأُرجِئُ مُهِمَّةَ التَّعليقِ على مَقبولِيَّةِ النَّظرِيَّتَيْنِ الذّاتِيَّةِ والرَّدِّيَّةِ إلى القِسمِ الثّاني (وسنَرَى هُناكَ أنَّ فِتغِنشتاين كانَ في زَمَنٍ مّا مُتَعاطِفًا مَعَ الذّاتِيَّةِ الدِّينيَّةِ). على أنَّ مِن الواضِحِ أنَّ تلكَ التَّعبيرِيَّةَ لَيسَتْ هيَ الذّاتِيَّةَ أو أيَّ نَوعٍ مِن الرَّدِّيَّةِ. فهاتانِ النَّظرِيَّتانِ الأخيرَتانِ تُحاوِلانِ أن تُقَدِّما تَحليلًا لِشُروطِ صِدقِ الجُمَلِ الدِّينيَّةِ يُظهِرُ أنَّها تتعلَّقُ حَقًّا بِمَوضوعٍ لادينِيٍّ. أمّا التَّعبيرِيَّةُ فلا تُقَدِّمُ تَحليلًا كهذا. فَقَد رَأَينا أنَّ التَّعبيرِيِّينَ يَذهَبونَ إلى أنَّ الجُملَةَ (14) تَعني (شَيئًا مّا يُشبِهُ أن يَكونَ):

16. وا! !W (العالَم).

حَيثُ يَرمِزُ 'وا!' إلى مَوقِفِ عَجَبٍ، على سبيلِ المِثالِ. فَالجُملَةُ (16)، بِخِلافِ الجُملَةِ (15)، لَيسَتْ قابِلَةً لِلصِّدقِ. وتَذهَبُ الذّاتِيَّةُ الدِّينيَّةُ إلى أنَّ الجُمَلَ الدِّينيَّةَ تَنقُلُ حالاتِ المُتَكَلِّمِينَ الذِّهنِيَّةَ؛ أمّا التَّعبيرِيُّونَ فيَذهَبونَ إلى أنَّ الجُمَلَ الدِّينيَّةَ تُستَعمَلُ عُرفِيًّا لِلتَّعبيرِ عن حالاتِها الذِّهنِيَّةِ اللامَعرِفِيَّةِ.

وقبلَ مُغادَرَةِ هذا الموضوعِ مِن المُفيدِ أن يُنظَرَ، لِلمُقارَنَةِ فحَسْبُ، في التَّضادِّ بينَ النَّظريَّتَيْنِ الذّاتيَّةِ والتَّعبيريَّةِ الذي ذَكَرَهُ فِتغِنشتاين عندَ مُناقشَتِهِ الإحساسَ في كِتابِهِ بُحوثٌ فَلسَفيَّةٌ *Philosophical Investigations*. ويَبدو أنَّ بَعضَ ما كانَ يَرمي إليهِ فِتغِنشتاين هوَ أن يَضَعَ مَوضِعَ الشَّكِّ التَّأويلَ المِعياريَّ والمَقبولَ جِدًّا بِحُكمِ البَديهَةِ وهوَ تَأويلُ حَديثِ المَرءِ عن أحاسيسِهِ بِوَصفِها تُحيلُ على حالاتٍ داخِليَّةٍ. أي إنَّ اللُّغَةَ الحِسِّيَّةَ تُستَعمَلُ لِوَصفِ حالاتِنا الذِّهنيَّةِ. مِثالُ ذلكَ أنَّ الدَّعوَى الحِسِّيَّةَ (17) لا تَكونُ صادِقَةً إلّا إذا كانَ لَدَى الشَّخصِ أَلَمٌ في كَتِفِهِ:

17. لَدَيَّ أَلَمٌ في كَتِفي.

ويُمكِنُ فَهمُ العِبارَةِ التَّقريريَّةِ الحِسِّيَّةِ عُمومًا على أنَّها خَبَرٌ يُمَثِّلُ الحالاتِ الحِسِّيَّةَ لِلمُتَكَلِّمِ. ويَعرِضُ فِتغِنشتاين كَثيرًا من الحُجَجِ المُضادَّةِ لِلأُنموذَجِ الذّاتِيِّ لِلأخبارِ الحِسِّيَّةِ، وأشهَرُها حُجَّةُ اللُّغَةِ الخاصَّةِ، لكِنِّي لَسْتُ بِصَدَدِ البَحثِ فيها هُنا. على أنّي أَوَدُّ أن أنظُرَ في أُطروحتِهِ البَديلَةِ لِلُّغَةِ الحِسِّيَّةِ. فالذي يَبدو أنَّ مَذهَبَهُ هوَ أنَّهُ بَدَلًا مِن أن نَعُدَّ الجُملَةَ (17) مُمَثِّلَةً لِحالَةٍ ذِهنِيَّةٍ داخِلِيَّةٍ يَنبَغي لَنا أن نَنظُرَ إليها على أنَّها تَعبيرٌ لُغَويٌّ عن سُلوكٍ أَلَمِيٍّ. أي إنَّ العِبارَةَ التَّقريريَّةَ تُؤَدِّي وَظيفَةَ التَّعبيرِ عن أَلَمِ المَرءِ لا وَظيفَةَ الإخبارِ عَنهُ. يَقولُ فِتغِنشتاين:

> ثَمَّةَ إمكانٌ ها هُنا: إذ تَرتَبِطُ الكلِماتُ بِالتَّعبيراتِ البدائيَّةِ، الطَّبيعِيَّةِ، عن الإحساسِ وتُستَعمَلُ بَدَلًا منها. إذ يُؤذي الطِّفلُ نَفسَهُ فَيَصرُخُ؛ ثُمَّ يَتَحَدَّثُ الكِبارُ إليهِ فَيُعَلِّمونَهُ [80] الهُتافَ ومِن بَعدُ الجُمَلَ. إنَّهُم يُعَلِّمونَ الطِّفلَ سُلوكًا أَلَمِيًّا جَديدًا.
>
> فقد يُقالُ: 'أنتَ تَقولُ إذَن إنَّ كلمةَ ''أَلَم'' تَعني الصُّراخَ حَقًّا؟' – فإجابَتي أنَّ العَكسَ هوَ الصَّحيحُ: فالتَّعبيرُ اللَفظِيُّ عن الألَمِ يَحلُّ محلَّ الصُّراخِ ولا يَصِفُهُ. (1953, p. 244)

فالذي أفهَمُهُ مِن كَلامِ فِتغِنشتاين أَنَّهُ لا يُنكِرُ وُجودَ الأَحاسيسِ، ولا يُساوي بينَ الأَحاسيسِ والسُّلوكِ، بَل يُقَدِّمُ أُطروحَةً لِمَعنَى العِباراتِ التَّقريرِيَّةِ الحِسِّيَّةِ. مِثالُ ذلكَ أَنَّ هذهِ الأُطروحَةَ يُمكِنُ أن تُؤَوِّلَ الجُملَةَ (17) بِالآتي:

18. أُوخ! OUCH! (كَتِفي).

حَيثُ يُعَبِّرُ 'أُوخ!' عن الأَلَمِ تُجاهَ المساحَةِ المُحَدَّدَةِ بِما بينَ القَوسَيْنِ. وسيَكونُ قَولُ المَرءِ: 'أَنا مُتَأَلِّمٌ'، استِنادًا إلى هذهِ المُقارَبَةِ، مُجَرَّدَ تَعبيرٍ أَقَلَّ 'بدائيَّةً' مِن 'أُوخ!'. وإذا كانَ الشَّكلُ الظّاهِريُّ لِلدَّعوَى الحِسِّيَّةِ تَمثيلِيًّا، فإنَّها تُؤَدِّي حَقًّا وظيفَةَ التَّعبيرِ عن أَحاسيسِ المَرءِ الشَّخصِيَّةِ. ويُمكِنُ القَولُ استِنادًا إلى التَّأويلِ الذي قَدَّمْتُهُ هُنا إنَّ فِتغِنشتاين يَعرِضُ أُطروحَةً تَعبيرِيَّةً لِلُّغَةِ الحِسِّيَّةِ.

التَّعبيرِيَّةُ الدِّينِيَّةُ والمَنطِق

مِن المُشكِلاتِ المَركَزِيَّةِ التي يُواجِهُها التَّعبيرِيُّونَ الدِّينِيُّونَ تَفسيرُ ما يَظهَرُ بِهِ مَعنَى الجُملَةِ مِن ثَباتٍ في السِّياقاتِ التَّقريرِيَّةِ وغَيرِ التَّقريرِيَّةِ. ويَشيعُ النَّظَرُ إلى هذهِ المُشكِلَةِ، التي قُدِّمَتْ أَصلًا بِاسمِ مُشكِلَةِ فريجه-غيتش (Geach, 1965)، على أَنَّها العَقَبَةُ الكَؤودُ الرَّئيسَةُ التي تَعتَرِضُ طَريقَ التَّعبيرِيَّةِ الأَخلاقِيَّةِ (Schroeder, 2008). وثَمَّةَ شَكلٌ مُبَسَّطٌ لِهذهِ الصُّعوبَةِ يَعتَرِضُ طَريقَ التَّعبيرِيَّةِ الدِّينِيَّةِ ويتعلَّقُ بِاستِعمالِ النَّفيِ في الخِطابِ الدِّينِيِّ. فَالجُمَلُ الدِّينِيَّةُ يُمكِنُ نَفيُها ويَكونُ بَعضُها مُنسَجِمًا مع بَعضٍ أو غَيرَ مُنسَجِمٍ. فَلْنَفتَرِضْ أَنَّ ثَمَّةَ مُؤمِنًا يَدَّعي أن:

19. سَيَكونُ ثَمَّةَ حِسابٌ أَخيرٌ.

فاستِنادًا إلى النَّظرِيَّةِ التَّعبيرِيَّةِ، يَنبَغي فَهمُ هذهِ الدَّعوَى على أَنَّها تَعبيرٌ عن مَواقِفَ لامَعرِفِيَّةٍ. ولا يَتَّضِحُ تَمامًا ما سيَقولُهُ التَّعبيرِيُّونَ عن الدَّعوَى المُضادَّةِ الآتِيَةِ:

20. لَن يَكونَ ثَمَّةَ حِسابٌ أخيرٌ.

إذ يُفتَرَضُ أنَّ الجُملَةَ (20) لا بُدَّ مِن أن تُعَبِّرَ عن حالاتٍ ذِهنيَّةٍ مُنافِيَةٍ لِلحالاتِ الذِّهنيَّةِ التي تُعَبِّرُ عنها الجُملَةُ (19) إن كانَتِ الجُملَتانِ (19) و(20) مُتضارِبَتَيْن. لكِنَّ ذلكَ يُوَلِّدُ مُشكِلَةً واضِحَةً؛ إذ كيفَ يُمكِنُ أن تَكونَ المَجموعَةُ الأخيرَةُ مِن المَواقِفِ [81] مُنافِيَةً لِلمَجموعَةِ السّابِقَةِ؟ إذ لا يُمكِنُ أن *تَتَناقَضا*، لأنَّ التَّناقُضَ يَقتَضي تَقريرَ الدَّعوَى القابِلَةِ لِلصِّدقِ مَعَ تَقريرِ نَفيِها؛ فالمَواقِفُ اللامَعرِفِيَّةُ لا يُمكِنُ أن يُناقِضَ بَعضُها بَعضًا. فَإذا اعتَقَدْنا س واعتَقَدْنا *نَفيَ* س، فإنّا نَعلَمُ أنَّ أَحَدَ الاعتِقادَيْنِ لا بُدَّ أن يَكونَ كاذِبًا لأنَّ العالَمَ لا يُمكِنُ أن يَتَماشَى مَعَ صِدقِ كِلا الاعتِقادَيْنِ. أمّا إذا رَغِبْتُ في ص ورَغِبْتُ في *نَفيِ* ص، فإنَّهُ سَيَكونُ لَدَيَّ مَوقِفانِ مُتَعارِضانِ وقَد أفتَقِرُ إلى الوِجهَةِ الواضِحَةِ بِشَأنِ كَيفِيَّةِ العَيشِ، لكِنِّي لَن أكونَ مُرتَكِبًا لِخَطَإٍ مَنطِقِيٍّ. فكذلكَ، يُمكِنُ القَولُ إنَّ حِيازَةَ المَواقِفِ اللامَعرِفِيَّةِ التي تُعَبِّرُ عنها الجُملَةُ (19) والمَواقِفِ اللامَعرِفِيَّةِ التي تُعَبِّرُ عنها الجُملَةُ (20) أيضًا لَن تَكونَ في حالَةِ تَضارُبٍ. لِذلكَ، على التَّعبيرِيِّينَ أن يَجِدوا أُطروحَةً مُختَلِفَةً لِلنَّفيِ في اللُّغَةِ الدِّينِيَّةِ.

وما النَّفيُ إلّا صُعوبَةٌ واحِدَةٌ في مَدًى مِن الصُّعوباتِ ذَواتِ الصِّلَةِ التي تُواجِهُ التَّعبيرِيِّينَ عندَ تَعامُلِهِم مَعَ الجُمَلِ الدِّينِيَّةِ المُضَمَّنَةِ في جُمَلٍ لا تكونُ مُقَرَّرَةً فيها. فَلْنَنظُرْ في المِثالَيْنِ الآتِيَيْن:

21. إن كانَ يَسوعُ قَد قامَ، فإذَن سَيَكونُ ثَمَّةَ حِسابٌ أخيرٌ.

22. أصِدقٌ أنَّهُ سَيَكونُ ثَمَّةَ حِسابٌ أخيرٌ؟

فالجُملَةُ (21) شَرطِيَّةٌ، والمُتَكَلِّمُ إذ يَنطِقُ بِها لا يُقَرِّرُ أنَّ يَسوعَ قَد قامَ ولا أنَّهُ سَيَكونُ ثَمَّةَ حِسابٌ أخيرٌ. وسيَكونُ مُنسَجِمًا أن يَدَّعِيَ المُتكَلِّمُ بِإخلاصٍ أنَّهُ *إن* كانَ يَسوعُ قَد قامَ، *فإذَن* سَيَكونُ ثَمَّةَ حِسابٌ أخيرٌ مِن غَيرِ أن يُقِرَّ بِأنَّ يَسوعَ قَد بُعِثَ أو بِأَنَّهُ سَيَكونُ ثَمَّةَ حِسابٌ أخيرٌ. والشَّيْءُ نَفسُهُ يُقالُ عن الجُملَةِ (22)،

فسُؤالُنا: هَل سَيكونُ ثَمَّةَ حِسابٌ أخيرٌ؟ لَيسَ تَقريرًا لأن سَيكونُ ثَمَّةَ حِسابٌ أخيرٌ؛ فحَقيقَةُ أنَّ سُؤالًا كهذا قَد سُئِلَ قَد تُشيرُ إلى أنَّ المُتكلِّمَ ليسَ في مَوضِعِ التَّقريرِ لَهُ. فَما الذي تَعنيهِ هذهِ الجُمَلُ إذَن استِنادًا إلى النَّظريَّةِ التَّعبيريَّةِ؟ الذي يَبدو أنَّهُ لا تُوجَدُ أيَّةُ مَواقِفَ لامَعرفِيَّةٍ ذاتِ صِلَةٍ يُعَبِّرُ عنها.

ومِن طَرائِقِ تَجَنُّبِ هذهِ الصُّعوبَةِ قَصرُ النَّظريَّةِ التَّعبيريَّةِ على التَّقريراتِ الدِّينيَّةِ. لكِن مِن الواضِحِ أنَّ نظريَّةً كهذهِ ستُعاني نَقصًا حَقيقِيًّا. إذ لَن تكونَ لَها أُطروحَةٌ تُقَدِّمُها بِشأنِ الأسئلَةِ الدِّينيَّةِ أو الجُمَلِ الشَّرطِيَّةِ الدِّينيَّةِ. ثُمَّ إنَّهُ ما لَم يَستَطِعِ التَّعبيريُّونَ تَقديمَ تَفسيرٍ لِلدَّعاوَى الدِّينيَّةِ يَضمَنُ أن يَكونَ لِلجُملَةِ الدِّينيَّةِ المَعنَى نَفسُهُ حينَ تُقَرَّرُ وحينَ تُضَمَّنُ، فلَن تَكونَ النَّظريَّةُ قادِرَةً على تَفسيرِ سَلامَةِ الحُجَجِ الدِّينيَّةِ. فَلْنَأخُذْ *قِياسًا استِلزامِيًّا* بَسيطًا مُثبَتًا في الخِطابِ الدِّينِيِّ، مُقَدِّمَتُهُ الأُولَى هيَ:

23. اللهُ رَحيمٌ.

فالمُفتَرَضُ أنَّ التَّعبيريِّينَ يَعُدُّونَ الجُملَةَ (23) مُعَبِّرَةً عن مَوقِفٍ لامَعرفِيٍّ. لكِن لِنَنظُرْ في المُقَدِّمَةِ الثّانِيَةِ: [82]

24. إذا كانَ اللهُ رَحيمًا، فسَيَنجو النّاسُ جَميعًا.

فيَلزَمُ مِن الجُملَتَيْنِ (23) و(24) الآتي:

25. سَيَنجو النّاسُ جَميعًا.

فالنَّتيجَةُ (25) يُفتَرَضُ أن يُؤَوِّلَها التَّعبيريُّونَ أيضًا بِأنَّها تَعبيرٌ عن مَوقِفٍ لامَعرفِيٍّ. لكِن كيفَ يُؤَوِّلُ التَّعبيريُّونَ الجُملَةَ الشَّرطِيَّةَ (24)؟

فهُنا يُواجِهُ التَّعبيريُّونَ الدِّينِيُّونَ مُعضِلَةً. فَلْنَفتَرِضْ أنَّ الجُملَتَيْنِ (23) و(25) تَعنِيانِ شَيئَيْنِ مُختَلِفَيْنِ حينَ تُضَمَّنانِ في الجُملَةِ (24). فيَلزَمُ مِن ذلكَ أنَّ الحُجَّةَ غيرُ

سَليمَةٍ لأَنَّها تتضَمَّنُ مُغالَطَةً مَبنِيَّةً على الاشتِراكِ اللَفظِيِّ. على أنَّ الحُجَّةَ تَبدو سَليمَةً بِوُضوحٍ. وَلْنَفترِضْ، بَدَلًا مِن ذلكَ، أنَّ التَّعبيريِّينَ يُبقونَ الحُجَّةَ صَحيحَةً ويُقِرُّونَ بِأَنَّ الجُملَتَيْنِ (23) و(25) تَعنِيانِ الشَّيْءَ نَفسَهُ حينَ تُضَمَّنانِ في الجُملَةِ (24). فما دامَتِ الجُملَةُ (24) لا تُعَبِّرُ عن المَواقِفِ التي تُعَبِّرُ عنها الجُملَتانِ (23) و(25) كِلتاهُما، فيَلزَمُ مِن ذلكَ أنَّ مَعنَى الجُملَتَيْنِ (23) و(25) لا تُحَدِّدُهُ المَواقِفُ التي تُستَعمَلُ الجُملَتانِ لِلتَّعبيرِ عنها وأنَّ التَّعبيريَّةَ تَكونُ بِذلك كاذِبَةً. ومِن الواضِحِ أنَّ التَّعبيرِيِّينَ لا يُمكِنُهُم تَبَنِّي الخِيارِ الثّاني، بيدَ أنَّ الخِيارَ الأوَّلَ يُبطِلُ الكَثرَةَ الكاثِرَةَ مِن الحُجَجِ المُؤَسَّسَةِ جَيِّدًا التي يُوقَفُ عليها في الخِطابِ الدِّينِيِّ. فالحُجَجُ الدِّينِيَّةُ التي تَشمَلُ الحُجَّةَ الأنطولوجِيَّةَ والحُجَجَ المُتعلِّقَةَ بِصِفاتِ اللهِ، والأَسبابُ المُوجِبَةُ لِلتَّعَدُّدِيَّةِ لا لِلحَصرِيَّةِ، والاستِدلالاتُ المُستَنبَطَةُ مِن الاعتِباراتِ المُتَعلِّقَةِ بِالكِتابِ المُقَدَّسِ، وما لا يُعَدُّ ولا يُحصَى مِن الحُجَجِ اللاهوتِيَّةِ، وما إليها، كُلُّ أُولئكَ سَيَكونُ غَيرَ صالِحٍ لِلاحتِجاجِ بِهِ طِبقًا لِما تَراهُ التَّعبيريَّةُ.

ومِن المُفيدِ عندَ هذهِ النُّقطةِ مِن البَحثِ أن يُذكَرَ سَبَبُ عَدَمِ تَقديمِ الجُمَلِ الدِّينِيَّةِ المُضَمَّنَةِ أَيَّةَ صُعوبَةٍ لِنظرِيَّةِ القيمَةِ الظّاهِرِيَّةِ (ولِنظرِيَّةِ المَوقِفِ المُعتَدِلَةِ). إذ تَذهَبُ هذهِ النَّظرِيَّةُ إلى أنَّ الجُمَلَ الدِّينِيَّةَ تَرمي إلى تَمثيلِ حَقائقَ دينِيَّةٍ، وأنَّ المَحمولاتِ في الجُملَةِ الدِّينِيَّةِ تَدُلُّ على صِفاتٍ. فالجُملَةُ (23)، على سبيلِ المِثالِ، لَها مَضمونٌ هوَ *اللهُ* رَحيمٌ. لِذلكَ، لا يُهِمُّ: أَمُستَقِلَّةً كانَتْ هذهِ الجُملَةُ أم مُضَمَّنَةً؛ لأَنَّها تُمَثِّلُ الحَقيقَةَ الدِّينِيَّةَ نَفسَها في كِلا السِّياقَيْنِ. وبِعَكسِ ذلكَ، يَرَى التَّعبيريُّونَ أنَّ مَعانِيَ الدَّعاوَى الدِّينِيَّةِ إنَّما تُحَدِّدُها المَواقِفُ التي تُعَبِّرُ عنها. لِذلكَ، لا يُوجَدُ مُكَوِّنٌ مُشتَرَكٌ لِلمَعنَى بينَ الأَحداثِ المُستَقِلَّةِ والمُضَمَّنَةِ لِلدَّعاوَى الدِّينِيَّةِ يُمكِنُ أن يَلجَأَ إليهِ التَّعبيريُّونَ لِيُبَيِّنوا أنَّها تَعني الشَّيْءَ نَفسَهُ في كِلا السِّياقَيْنِ[3].

---

(3) كانَتْ ثَمَّةَ مُحاوَلاتٌ لِلتَّعبيريِّينَ لِرَدِّ هذا الاعتِراضِ وما يُشبِهُهُ مِن الاعتِراضاتِ، ولا سِيَّما التَّعبيريُّونَ الأخلاقِيُّونَ (Blackburn, 1998a)؛ على أنَّ مُشكِلَةَ فريجه-غيتش بَقِيَتْ عَصِيَّةً على الحَلِّ. ولِلوُقوفِ على مَزيدٍ مِن التَّحليلِ المُفَصَّلِ، يُنظَر: Schroeder (2008).

التَّعبيريَّةُ والتَّفسير

ثَمَّةَ عَقَبَةٌ كَبيرَةٌ أُخرَى تَعتَرِضُ سَبيلَ التَّعبيريَّةِ هيَ أَنَّ وَصفَ الحَقائقِ الدِّينِيَّةِ يُمكِنُ أَن يَظهَرَ في تَفسيرِ الحَقائقِ اللادينِيَّةِ، ولا سِيَّما [83] الحَقائقُ العِلمِيَّةُ والتَّأريخِيَّةُ. إذ يُمكِنُ استِعمالُ فِعلِ اللهِ في العالَمِ لِتَفسيرِ سببِ حُدوثِ أَحداثٍ مُعَيَّنَةٍ، ويُمكِنُ استِعمالُ خَلقِ اللهِ لِلعالَمِ بِوَصفِهِ جُزءًا مِن تَفسيرِ كُلِّ ما قَد حَدَثَ أَو سيَحدُثُ؛ ويُمكِنُ التَّسليمُ بِوُجودِهِ وبِفِعلِهِ بِوَصفِهِما تَفسيرًا لِقَوانينِ الطَّبيعَةِ، على سبيلِ المِثالِ. فإذا كانَتِ الجُمَلُ الدِّينِيَّةُ تُعَبِّرُ عن مَواقِفَ ولا تُعَبِّرُ عن حَقائقَ دينِيَّةٍ، فكيفَ يُمكِنُ استِعمالُها لِتَفسيرِ أُمورٍ تَأريخِيَّةٍ وعِلمِيَّةٍ قابِلَةٍ لِلمُلاحَظَةِ ومِن الواضِحِ أَنَّها واقِعِيَّةٌ؟

فالذي يَبدو أَنَّ الخِيارَ المَعقولَ الوَحيدَ المُتاحَ لِلتَّعبيرِيِّينَ أَن يَذهَبوا إلى أَنَّ التَّفسيراتِ الدِّينِيَّةَ طَرائقُ لِلتَّعبيرِ حَقًّا عن مَواقِفَ تُجاهَ ما تُفَسِّرُهُ. على أَنَّهُ يَصعُبُ كَثيرًا أَن تُرَى كَيفِيَّةُ إمكانِ أَن يُدافَعَ دِفاعًا فَعّالًا عن مَذهَبٍ كهذا. ويَرَى فِلِبس في إحدَى كِتاباتِهِ أَنَّ بَعضَ الجُمَلِ الدِّينِيَّةِ التي تَبدو كَأَنَّها تفسيراتٌ يَنبَغي أَن يُنظَرَ إليها بَدَلًا مِن ذلكَ على أَنَّها مُعَبِّرَةٌ عن مَواقِفَ. مِثالُ ذلكَ أَنَّهُ يَتَصَوَّرُ أَنَّ النّاسَ الذينَ يُواجِهونَ ظَرفًا مُؤلِمًا أَو صَعبًا قَد يَقولونَ: 'إنَّها مَشيئةُ اللهِ'. ويَذهَبُ إلى أَنَّ الحَديثَ عن مَشيئةِ اللهِ في هذا السِّياقِ لا يُقَدِّمُ تَفسيرًا. 'فَفِكرَةُ مَشيئةِ اللهِ لا عَلاقَةَ لَها بِما حَدَثَ بِوَصفِها *تَفسيرًا* أعلَى' (1988, p. 281)[4]. ويُفَصِّلُ الحَديثَ في ذلكَ، فيَقولُ:

> 'إنَّها مَشيئةُ اللهِ' لَيسَتْ إجابَةً عن سُؤالِ 'لِمَ يَحدُثُ هذا؟'، لكِنَّها طَريقَةٌ قَد يَرغَبُ بِها شَخصٌ مّا رَغبَةً مُلِحَّةً في أَن يَسأَلَ هذا السُّؤالَ. فَفِكرَةُ مَشيئةِ اللهِ لَم تُكَوَّنْ بَحثًا عن تَفسيراتٍ بَل كُوِّنَتْ مُفارِقَةً لِلتَّفسيراتِ. (1995, pp. 281-282)
>
> حينَ يُواجِهُ النّاسُ الأَحداثَ التي تَمُرُّ بِهِم يَقولونَ: 'إنَّهُ القَدَرُ'، و'إنَّهُ

---

(4) يُنظَرُ أيضًا: Malcolm (1997, pp. 85-86).

> عَبَثٌ'، و'إنَّهُ بِلا مَعنًى'، و'هكذا تكونُ الأشياءُ'، و'هكذا الحَياةُ'، و'هكذا تَجري الأُمورُ' كما يَقولونَ: 'إنَّها مَشيئةُ اللهِ' (1988, p. 280)

وفِلِبس مُحِقٌّ في إشارتِهِ إلى أنَّ جُملَةَ 'إنَّها مَشيئةُ اللهِ' تُستَعمَلُ في بَعضِ السِّياقاتِ لِلتَّعبيرِ عن رِضا المَرءِ بِالحَدَثِ الذي يُحيلُ عليهِ أو قَبولِهِ لَهُ. لكِن لا يَلزَمُ مِن ذلكَ أن الجُملَةَ ليسَ لَها عُرفِيًّا مَضمونٌ قَضَوِيٌّ؛ أي لِلحَدَثِ المُحالِ عليهِ وهوَ *أَنَّ اللهَ قَد شاءَهُ*.

ثُمَّ إنَّ مِثالَ 'إنَّها مَشيئةُ اللهِ'، مِن بَينِ عَدَدٍ كَبيرٍ مِن أَمثِلَةِ التَّفسيراتِ الدِّينيَّةِ، مِن أَقَلِّ الأَمثِلَةِ إشكاليَّةً لِلتَّعبيريَّةِ. ذلكَ بِأَنَّ تَسمِيَةَ شَيْءٍ مّا 'مَشيئةَ اللهِ' يُمكِنُ فَهمُهُ حَمليًّا فيَكونُ بِذلكَ مُلائمًا لِلأُنموذَجِ (16) التَّأويليِّ التَّعبيريِّ. فَلنَأخُذْ، بِالضِّدِّ مِن ذلكَ، الجُملَةَ الآتِيَةَ:

26. إنَّ خَلقَ اللهِ المُدَبِّرَ لِلعالَمِ بِبَشَرِهِ ذَوي الفِعلِ الحُرِّ يُفَسِّرُ على الوَجهِ الأَمثَلِ دَليلَ الظُّروفِ المنسَجِمَةِ بِدِقَّةٍ. [84]

ولَئِنْ كانَ مِن المُحتَمَلِ أَلّا نَعُدُّ الجُملَةَ (26) صادِقَةً، ليسَ مِن الواضِحِ الكيفيَّةُ التي يُمكِنُ بِها أن يُقَدِّمَ التَّعبيريُّونَ تَأويلًا لَها يَجعَلُها مُعَبِّرَةً عن مَوقِفٍ لا مُمَثِّلَةً لِحَقيقَةٍ دينيَّةٍ.

خاتِمَة

يُواجِهُ التَّعبيريُّونَ الدِّينيُّونَ عَدَدًا من المُشكِلاتِ التي لا يَجِدونَ لَها إجابَةً مُقنِعَةً على ما يَبدو. على أَنَّهُ لَمّا كانَتْ أَخطَرُ هذهِ المُشكِلاتِ إنَّما يُثيرُها نَفيُ تَمثيلِ الجُمَلِ الدِّينيَّةِ حَقائقَ دينيَّةً، كانَتْ نظريَّةُ المَوقِفِ المُعتَدِلَةُ في مَنأًى عن مُواجَهَةِ صُعوباتٍ مُماثِلَةٍ. إذ يَرَى مُنَظِّرُو المَوقِفِ المُعتَدِلونَ أَنَّ الجُمَلَ الدِّينيَّةَ تُمَثِّلُ حَقائقَ دينيَّةً، لِذلكَ يُمكِنُ استِعمالُها في التَّفسيراتِ ويُمكِنُ استِعمالُها في المُقَدِّماتِ والجُمَلِ الشَّرطيَّةِ المُضَمَّنَةِ مِن غَيرِ تَقويضٍ لِسَلامَةِ الحُجَجِ الدِّينيَّةِ. ويَرَى مُنَظِّرُو

المَوقِفِ المُعتَدِلونَ أيضًا أَنَّ الجُمَلَ الدِّينِيَّةَ تُستَعمَلُ عُرفِيًّا لِلتَّعبيرِ عن اعتِقاداتٍ دينِيَّةٍ، فمِن الواضِحِ أَنَّ هذا المَذهَبَ ليسَ مُحاوَلَةً لِجَعلِ استِعمالِ الخِطابِ الدِّينِيِّ مُتَناغِمًا معَ الإلحادِ. ثُمَّ إنَّ افتِراضَ أَنَّ الجُمَلَ الدِّينِيَّةَ تُستَعمَلُ عُرفِيًّا أيضًا لِلتَّعبيرِ عن حالاتٍ لامَعرِفِيَّةٍ يَجعَلُ النَّظريَّةَ قادِرَةً على إنصافِ الدَّليلِ والبَداهَةِ القاضِيَيْنِ بأَنَّ الدَّعاوَى الدِّينِيَّةَ مُرتَبِطَةٌ ارتِباطًا وثيقًا بِمَشاعِرِ النّاسِ، ودَوافِعِهِم، ومَواقِفِهِم. وعلى الرَّغمِ مِن كُلِّ ما لَقِيَتْهُ نظريَّةُ المَوقِفِ مِن دِعايَةٍ سَيِّئةٍ، ولَو في صُوَرِها التي هيَ أَكثَرُ تَطَرُّفًا، تُمِدُّنا نظريَّةُ المَوقِفِ بِنَظَرِيَّةٍ مَقبولَةٍ لِلُّغَةِ الدِّينِيَّةِ يُمكِنُ الدِّفاعُ عنها. [85]

7

الإحالَة

عندَ مُناقَشَةِ اللاهوتِ الأبوفاتيكِيِّ في الفَصلِ 2، رَأَيْنا أَنَّ بِالإمكانِ إثارَةَ اعتِراضٍ حَقيقِيٍّ على هذهِ النَّظَرِيَّةِ استِنادًا إلى افتِراضَيْنِ هُما:

1. أَنَّ اللهَ God اسمُ عَلَمٍ.
2. أَنَّ أَسماءَ الأعلامِ تُعَبِّرُ عن صِفاتٍ تُحَدِّدُ إحالَتَها.

وفي هذا الفَصلِ نَشرَعُ في تَمحيصِ هاتَيْنِ المُقَدِّمَتَيْنِ، مُولِينَ الافتِراضَ الثّانِيَ الوَصفِيَّ اهتِمامًا خاصًّا، بُغيَةَ أن نَتَوَصَّلَ إلى أُطروحَةٍ يُمكِنُ الدِّفاعُ عنها عُمومًا بِشَأنِ مَعنَى 'الله' وإلى أن نُقَرِّرَ كذلكَ: هَل يَؤُولُ المَذهَبُ الأبوفاتيكِيُّ إلى أَنَّ المُؤمِنِينَ غَيرُ قادِرِينَ على الإحالَةِ على اللهِ؟ وستُعالِجُ مُناقَشَتُنا بَعدَ ذلكَ السُّؤالَ الوَثيقَ الصِّلَةِ وهوَ: كَيفَ يُسَمِّي 'اللهُ' اللهَ؟ - وكَيفَ يُسَمِّي الاسمُ حامِلَهُ عُمومًا؟

هَلِ اللهُ اسمُ عَلَمٍ؟

إنَّ المُقَدِّمَةَ (1) تَبدو مَقبولَةً جِدًّا. إذ يُستَعمَلُ 'الله' استِعمالًا قِياسِيًّا لِتَسمِيَةِ اللهِ ويُشارِكُ أسماءَ الأعلامِ الأُخرَى في عددٍ مِن السِّماتِ الأَساسِيَّةِ. ذلِكَ بِأَنَّ 'الله'، شَأنُهُ شَأنُ أسماءِ الأعلامِ الأُخرَى نَحوِ 'سُقراط'، و'هِلاري كلِنتن'، و'مارس'،

و'فرنسا'، و'سياتل'، يُسَمِّي مَوضوعَهُ مِن غَيرِ وُجودِ بِنيَةٍ تَركيبيَّةٍ[1]. وكذلِكَ، لا يُرَكَّبُ 'الله' معَ المُعَدِّلاتِ المُقَيِّدَةِ، مُشْبِهًا في ذلكَ كَثيرًا مِن أَسماءِ الأَعلامِ الأُخرَى ومُخالِفًا العِباراتِ الاسمِيَّةَ الأُخرَى. أي إنَّهُ ما مِن مَعلوماتٍ تَقييدِيَّةٍ إضافِيَّةٍ يُحتاجُ إليها (أو خاصَّةٍ) لِيُعلَمَ الشَّيْءُ المُسَمّى. فحينَ نَعمِدُ إلى تَعديلِ اللَفظِ عندَ حَديثِنا عن 'إلهِ الفَلاسِفَةِ the god of philosophers'، على سَبيلِ المِثالِ، لا نَكونُ بِذلكَ مُستعمِلِينَ إيّاهُ اسمَ عَلَمٍ في هذهِ العِبارَةِ. بَل نَكونُ قَد استَعمَلْنا هذا التَّعبيرَ لِلتَّفريقِ بينَ اللهِ God ومَوجودٍ مُحَدَّدٍ في الجَدَلِ القائمِ في فَلسَفَةِ [86] الدِّينِ يُدعَى 'الله God'. ويُمكِنُ القَولُ على نَحوٍ أَعَمَّ إنَّ استِعمالَ 'الله God' اسمًا name و'إله god' اسمًا عامًّا common noun مِمّا تَشيعُ مَعرِفَتُهُ ويُشارُ إليهِ عُرفِيًّا بِتَكبيرِ الحَرفِ الأَوَّلِ مِن أَوَّلِهِما وإبقائِهِ صَغيرًا في ثانيهِما. وتُوحي هذهِ النِّقاطُ بِأَنَّ 'الله God' يُشبِهُ أَسماءَ الأَعلامِ الأُخرَى تَركيبِيًّا ودَلالِيًّا.

وقَد ذَهَبَ مارك جونستن Mark Johnston* حَديثًا إلى أَنَّ 'الله' كانَ قَد ظَهَرَ في الكِتابِ المُقَدَّسِ العِبرانِيِّ بِوَصفِهِ لَقَبًا أو تَعبيرًا تَشريفِيًّا لا اسمًا. 'ومِمّا هوَ مُبهَمٌ تَمامًا: هَل 'الله'، على النَّحوِ الذي نَستَعمِلُهُ بِهِ اليَومَ، اسمٌ *name* البَتَّةَ، في مُقابَلَةِ عُنوانٍ مَضغوطٍ، شَيءٍ مّا يُشبِهُ في الواقِعِ 'المَوجودَ الأَسمى' أو 'الأَعلى'' (2011, pp. 6-7)؟ على أَنَّ ذلكَ لا يُقَدِّمُ سِوَى مَعلوماتٍ تَأريخِيَّةٍ بِشَأنِ استِعمالِ هذا التَّعبيرِ. ويُلحَظُ أَنَّ الأَلفاظَ التي تُقَدَّمُ بِوَصفِها أَلقابًا يُمكِنُ أن تُصبِحَ لاحِقًا أَسماءً names. مِثالُ ذلكَ أَنَّ إدوارد إلنغتن Edward

---

(1) الافتِقارُ إلى البِنيَةِ التَّركيبِيَّةِ سِمَةٌ مُشتَرَكَةٌ لأَسماءِ الأَعلامِ لكِنَّها غَيرُ مُطَّرِدَةٍ: ومِمّا يُمكِنُ الذَّهابُ إلى أَنَّهُ مِن هذهِ الحالاتِ: 'المَلِكُ هنري الثّامِنُ King Henry VIII'، و'المُوَقَّرُ روان وليمز the Right Reverend Rowan Williams'، و'جاك السَّفّاحُ Jack the Ripper'.

* مارك جونستن. فَيلَسوفٌ أُستراليٌّ. أَمضى مُعظَمَ مَسيرَتِهِ المِهنِيَّةِ في جامِعَةِ برنستون. كَتَبَ كَثيرًا مِنَ المَقالاتِ في مَوضوعاتِ الميتافيزيقا، وفَلسَفَةِ العَقلِ، والمنطِقِ الفَلسَفِيِّ، والرِّياضِيّاتِ، وأَلَّفَ حَديثًا كِتابَيْنِ في فَلسَفَةِ الدِّينِ هُما: (إنقاذُ اللهِ: الدِّينُ بَعدَ الوَثَنِيَّةِ)؛ و(المَوتُ الحَيّ). [المُتَرجِم]

Ellington* كانَ يُدعَى أَوَّلًا 'الدُّوق Duke' لِسببٍ واضِحٍ هوَ أَنَّ سُلوكَهُ الكَيِّسَ وذَوقَهُ في اختيارِ المَلابسِ 'أَكسَباهُ صُورَةَ الشّابِّ النَّبيلِ' (Terkel, 1975, p. 74). على أَنَّ شَرعِيَّةَ 'الدّوق إلِنغتن' أو 'الدّوق' فحَسْبُ بِوَصفِهِ اسمًا أَصبَحَ يُعرَفُ بِهِ هذا الموسيقِيُّ لاحِقًا واشتهرَ بِهِ لَيسَتْ مَوضِعَ شَكٍّ بِسببِ استِعمالِهِ الأَوَّلِ بِوَصفِهِ اسمًا تَشريفِيًّا أو بِسببِ حَقيقَةِ أَنَّهُ لَم يَكُنْ دوقًا. فالاستِعمالُ التَّأريخِيُّ لِكلِمةِ 'الله' بِوَصفِها لَقَبًا ليسَ إذَن سَبَبًا كافِيًا يَدعو إلى التَّغاضي عن الدَّليلِ الدَّلالِيِّ والتَّركيبِيِّ الذي يَشهَدُ بِأَنَّ 'الله' اسمُ عَلَمٍ. وستَكونُ لي عَودَةٌ إلى هذهِ المَسأَلَةِ لاحِقًا، لكِن دَعُونا الآنَ نُواصِلْ حَديثَنا على أَساسِ افتِراضِ أَنَّ 'الله' اسمُ عَلَمٍ.

الوَصفِيَّةُ واللاوَصفِيَّة

لِنَعُدْ إلى الجُملَةِ (2) المذكورَةِ في بِدايَةِ هذا الفَصلِ، وَلْنَسأَلْ: أَوَصفِيِّينَ يَنبَغي لَنا أن نَكونَ أَم لاوَصفِيِّينَ في ما يتعلَّقُ بِـ 'الله' والأَسماءِ عُمومًا؟ ثَمَّةَ إرثٌ طَويلٌ، يَمتَدُّ إلى الوَراءِ وُصولًا إلى أَنسيلم Anselm** في أَقَلِّ تَقديرٍ، مِن النَّظَرِ إلى 'الله' على أَنَّ لَهُ مَضمونًا وَصفِيًّا. إذ يَرَى أَنسيلم، في خِضَمِّ تَطويرِهِ حُجَّتَهُ الوُجودِيَّةَ، أَنَّ 'الله' لَفظٌ بَديلٌ مِن 'الذي لا يُمكِنُ تَصَوُّرُ ما هوَ أَعظَمُ مِنهُ'. وقَد مَكَّنَهُ هذا مِن أن يَذهَبَ إلى أَنَّ 'الأَحمَقَ' الذي يَعتَقِدُ أَنَّ اللهَ ليسَ سِوَى شَيءٍ خَيالِيٍّ إنَّما يَعتَقِدُ بِذلكَ أَنَّ المَوجودَ الذي لا يُمكِنُ تَصَوُّرُ ما هوَ أَعظَمُ مِنهُ ليسَ سِوَى شَيءٍ خَيالِيٍّ. وكذلكَ غالِبًا مّا تَعرِضُ الكِتاباتُ المُعاصِرَةُ في فَلسَفَةِ الدِّينِ صِفاتِ

* إدوارد كَنَدي الدّوق إلِنغتن (1899–1974م). مُلَحِّنٌ، وعازِفُ بيانو، وقائدٌ لِفِرقَةِ جاز أمريكِيٌّ استَمَرَّتْ قِيادَتُهُ لَها مِن عامِ 1923 إلى حينِ وَفاتِهِ، في مَسيرَةٍ مِهنِيَّةٍ امتَدَّتْ نَحوَ ما يَزيدُ عَلى خَمسينَ عامًا. [المُترجِم]

** أنسيلم أُسقُفُ كانتربري (1033–1109م). لاهوتِيٌّ وفَيلَسوفٌ إيطالِيٌّ مِن أَوائلِ الفَلاسِفَةِ المَدرَسِيِّينَ. كانَ لهُ تَأثيرٌ بالِغٌ في اللاهوتِ الغَربِيِّ، وكانَ يَعتَقِدُ أَنَّ الإيمانَ يَجِبُ أن يَسبِقَ المعرِفَةَ؛ فيَجِبُ أن تُؤمِنَ لِتَعرِفَ، ومَعَ ذلكَ يُمكِنُ أن يُبنَى الإيمانُ على المعرِفَةِ. اشتهرَ بِكتابَيْهِ (المُناجاة) و(التَّمهيد). [المُترجِم]

مُختَلِفَةً لِلّهِ عادَةً مّا يُقالُ عنها إنّها تُعَرِّفُ 'الله'. وقَد رَأَيْنا أَنَّ اللاهوتِيِّينَ الأَبوفاتيكِيِّينَ لا يَقبَلُونَ هذهِ المُقارَبَةَ. لكِنْ هَل يُمكِنُ الدِّفاعُ عنها؟ سأَبدَأُ بِعَرضِ بَعضِ الاعتِباراتِ النَّظريَّةِ العامَّةِ المُتعلِّقَةِ بِالمَذهَبَيْنِ الوَصفِيِّ واللاوَصفِيِّ ثُمَّ أُطَبِّقُها على 'الله'.

أمّا الأُطروحَةُ الكلاسيكِيَّةُ لِلنَّظريَّةِ اللاوَصفِيَّةِ فمُقَدِّمُها هوَ ج.س. مِل، إذ يَقولُ: 'اسمُ العَلَمِ ليسَ سِوَى عَلامَةٍ لا مَعنَى لَها نَربِطُها في عُقولِنا بِالفِكرَةِ المُتَعَلِّقَةِ بِالشَّيءِ، فكُلَّما صادَفَ أن وَقَعَتِ العَلامَةُ في مَرمَى أبصارِنا أو خالَطَتْ أفكارَنا، أَمكَنَ أن نُفَكِّرَ في ذلكَ الشَّيءِ المُفرَدِ' [87] (1974, p. 35). فالذي كانَ مِلْ يَعتَقِدُهُ عُمومًا أَنَّ اسمَ العَلَمِ لَيسَتْ مُهِمَّتُهُ نَقلَ أَيَّةِ مَعلومَةٍ تتعلَّقُ بِمَرجِعِهِ، وأَنَّ استِعمالَ الاسم لا يَعتَمِدُ على أَيَّةِ صِفَةٍ لِلشَّيءِ الذي يُسَمِّيهِ. فعَلى ذلكَ، يُمكِنُ أن يُحيلَ اسمُ العَلَمِ على شَيءٍ مّا ولَو احتُمِلَ أن يُغَيِّرَ الشَّيءُ صِفاتِهِ أو كُنّا مُخطِئينَ في تَحديدِ حَقيقَةِ صِفاتِهِ. مِثالُ ذلكَ أَنَّ اسمَ 'دارتمث Dartmouth' كانَ قَد أُطلِقَ على مَدينَةٍ في جَنوبِ غَربِ إنجلترا لأَنَّها تَقَعُ عندَ مَصَبِّ نَهرِ دارت Dart River. لكِن إن حَدَثَ على نَحوٍ مّا أن حَوَّلَ النَّهرُ مَجراهُ بَعيدًا عن دارتمث، فلَن يَكونَ ذلكَ مَدعاةً إلى اعتِقادِ أَنَّ اسمَ المَدينَةِ يَنبَغي أن يَتَغَيَّرَ أو سيَتَغَيَّرُ (1974, p. 33). ويُطلَقُ على نَظريَّةِ مِلْ أَحيانًا اسمُ نَظريَّةِ 'فايدو Fido' – فايدو Fido*: فالاسمُ يُحيلُ على حامِلِهِ، وهذا كُلُّ ما يُناطُ بِأَسماءِ الأَعلامِ مِن مُهِمَّةٍ. وما دامَ بِإمكانِ اسمِ العَلَمِ أن يُحيلَ مِن غَيرِ أن يَنقُلَ أَيَّةَ مَعلومَةٍ تتعلَّقُ بِالشَّيءِ المُحالِ عليهِ، فستَكونُ هذهِ النَّظريَّةُ مُناسِبَةً أيضًا لِلّاهوتِ الأَبوفاتيكِيِّ. فَبِمُقتَضى النَّظريَّةِ المِلْيانِيَّةِ يُمكِنُ أن يُحيلَ 'الله' على اللهِ ولَو لَم يَكُنْ بِالإمكانِ تَصَوُّرُ طَبيعَةِ اللهِ.

وتُواجِهُ النَّظريَّةُ المِلْيانِيَّةُ عَدَدًا مِن الصُّعوباتِ. وفي الآتي ثَلاثَةٌ مِن

* نَظَرِيَّةُ 'فايدو' – فايدو: نَظَرِيَّةٌ مِن نَظَرِيّاتِ المعنى مُفادُها أَنَّ مَعنى الكلمَةِ شَيءٌ تَرمِزُ إليهِ (الاسمُ 'فايدو' يَعني الكَلبَ فايدو)؛ فيَكونُ اللَفظُ بِذلكَ لَقَبًا لِنَظريَّةٍ مِن نَظَريّاتِ المعنى في التَّسمِيَةِ. [المُترجِم]

الاعتِراضاتِ التي تُناقَشُ على نِطاقٍ واسِعٍ. أمّا أوَّلُها فيتعلَّقُ بِالمُشكِلَةِ الواضِحَةِ التي مُفادُها أنَّهُ إذا كانَ مَعنَى الاسمِ تَستَنفِدُهُ إحالَتُهُ على الشَّيءِ، فالأسماءُ التي لَيسَتْ لَها أشياءُ تُناظِرُها، كَأسماءِ الشَّخصِيّاتِ الخَيالِيَّةِ، تَفتَقِرُ إذَن إلى المَعنَى. لكِنّا قادِرونَ في ما يَبدو على تَكوينِ جُمَلٍ ذَواتِ مَعنًى تَستَخدِمُ أسماءً جُوفًا، نَحو:

3. ميدوسا Medusa* تُحَوِّلُ النّاسَ إلى حِجارَةٍ.

وتَبْدو الجُملَةُ (4) الآتِيَةُ ذاتَ مَعنًى وصادِقَةً في الوَقتِ نَفسِهِ:

4. ميدوسا غَيرُ مَوجودَةٍ في الواقِعِ.

وأمثالُ هذِهِ الجُمَلِ وإن بَدا أنَّها لا تَقِلُّ في حِيازَتِها لِلمَعنَى عن جُمَلٍ مُشابِهَةٍ تَستَخدِمُ أسماءً لِمَراجِعَ مَوجودَةٍ، فإنَّ أحَدَ مُكَوِّناتِها الرَّئيسَةِ لا مَعنَى لَهُ طِبقًا لِنَظرِيَّةِ مِلْ. وأمّا المُشكِلَةُ الثّانِيَةُ فهِيَ أنَّهُ يَلزَمُ مِن مَذهَبِ مِلْ أنَّ الأسماءَ المُختَلِفَةَ التي تُحيلُ على شَيءٍ واحِدٍ، مِثلَ 'جورج أورويل George Orwell' و'إيرِك بلير Eric Blair'**، يَجِبُ أن يَكونَ لَها مَعنًى واحِدٌ. فالجُملَتانِ (5) و(6) الآتِيَتانِ يَجِبُ إذَن أن يَكونَ لَهُما مَعنًى واحِدٌ:

---

* تَروي الميثولوجيا الإغريقيَّةُ أُسطورةَ ميدوسا التي كانَت تُحَوِّلُ كلَّ مَن يَنظُرُ إلى عَينَيْها إلى حَجَرٍ. وقَد كانَتْ في البَدءِ فتاةً جَميلةً تبهرُ كلَّ مَن يَراها بِجَمالِها، إلى أن وَقَعَتْ في حُبِّ بوسيدون، وارتَكَبَت الخَطيئةَ مَعَهُ في مَعبَدِ أثينا. فلَمّا وَصَلَ الخَبَرُ إلى أثينا غَضِبَتْ عَلَيها، وقَرَّرَتْ أن تُحَوِّلَها إلى امرأةٍ قَبيحَةٍ بَشعةِ المظهَرِ، وحَوَّلَتْ شَعرَها إلى ثَعابينَ. وبَدَأَتْ ميدوسا تَنتَقِمُ مِن كلِّ مَن تَلقاهُ، فبِمُجَرَّدِ نَظَرِهِ إلى عَينَيْها تُسيطرُ لَعنَتُها عليهِ وتُحَوِّلُهُ إلى حَجَرٍ. [المُتَرجِم]

** إيرِك آرثر بلير هو الاسمُ الحَقيقيُّ لِجورج أورويل، وهوَ الاسمُ المستَعارُ الذي اشتهرَ بِهِ (1903–1950م). صِحافِيٌّ وروائيٌّ بريطانيٌّ. اشتهرَ بِالوُضوحِ، والذَّكاءِ، وخِفَّةِ الدَّمِ، والتَّحذيرِ مِن غِيابِ العَدالَةِ الاجتِماعيَّةِ، ومُعارَضَةِ الحُكمِ الشُّمولِيِّ، والإيمانِ بالاشتِراكيَّةِ الدّيمقراطيَّةِ. مِن آثارِهِ: (مَزرَعَةُ الحَيَوان)؛ و(1984)؛ و(الصُّعودُ إلى الهَواء). [المُتَرجِم]

5. إيرِك بلير وإيرِك بلير شَخصٌ واحِدٌ.

6. إيرِك بلير وجورج أورويل شَخصٌ واحِدٌ.

على أنَّ الجُملَةَ (6) تَبدو مُخبِرَةً، واستِدلالِيَّةً، وتَوسيعًا كامِنًا ذا قيمَةٍ لِمَعرِفَتِنا على حَدِّ تَعبيرِ فريجه، في حينِ أنَّ الجُملَةَ (5) بَديهِيَّةٌ وصادِقَةٌ صِدقًا تَحليلِيًّا. ويَبدو مَذهَبُ مِلْ عاجِزًا عن تَفسيرِ هذا التَّغَيُّرِ في [88] الدَّلالَةِ المَعرِفِيَّةِ لِلجُمَلِ عندَ استِبدالِ التَّعبيراتِ المُشتَرَكَةِ الإحالَةِ. وأمّا المُشكِلَةُ الثّالِثَةُ فتتعلَّقُ بِأسماءِ الأعلامِ المُضَمَّنَةِ في المَعزُوّاتِ الاعتِقادِيَّةِ. مِثالُ ذلكَ أنَّ الجُملَتَيْنِ (7) و(8) الآتِيَتَيْنِ لا تَختَلِفانِ إلّا في إحلالِ ’كلارك كنت Clark Kent ‘ مَحلَّ ’سوبَرمان Superman ‘(2):

7. لويز لَيْن Lois Lane تَعتَقِدُ أنَّ سوبَرمان يُمكِنُهُ التَّحَرُّكُ بِأسرَعَ مِن الإطلاقَةِ المُسرِعَةِ.

8. لويز لَيْن Lois Lane تَعتَقِدُ أنَّ كلارك كنت يُمكِنُهُ التَّحَرُّكُ بِأسرَعَ مِن الإطلاقَةِ المُسرِعَةِ.

فاستِنادًا إلى مَذهَبِ مِلْ، يَجِبُ أن تَكونَ الجُملَتانِ (7) و(8) مُعَبِّرَتَيْنِ عن قَضِيَّةٍ واحِدَةٍ. على أنَّ الأمرَ ليسَ كذلكَ لأنَّ الجُملَةَ (7) صادِقَةٌ والجُملَةَ (8) كاذِبَةٌ.

وقَد حَفَّزَتْ هذهِ المُشكِلاتُ الخِياراتِ الوَصفِيَّةَ، ولا سِيَّما تلكَ التي طَوَّرَها غوتلوب فريجه (1892) وبرتراند رَسِل Bertrand Russell* (1905)، والتي تُفيدُ

---

(2) مِن أجلِ عَدَمِ الخَوضِ في تَعقيداتِ تَأويلِ الجُملَةِ المُتعلِّقَةِ بِالتَّخَيُّلِ، أفتَرِضُ هُنا أنَّ كلارك كنت ولويز لَيْن (والقِصَصَ المُتعلِّقَةَ بِهما) مِن الحَقائقِ.

• برتراند آرثَر وِليَم رَسِل (1872–1970م). فَيلَسوفٌ، وعالِمُ مَنطِقٍ، ورياضِيٌّ، ومؤرِّخٌ، وناقِدٌ اجتِماعِيٌّ بريطانِيٌّ. حازَ سنةَ 1950 جائزةَ نوبل لِلآداب. كانَ في مراحِلَ مِن حياتِهِ لِيبراليًّا واشتراكيًّا وداعيةَ سلام، إلّا أنَّهُ أقَرَّ بِأنَّهُ لَم يَكُنْ أيًّا مِن هؤلاءِ بِالمعنى العَميقِ. قادَ الثَّورَةَ البريطانيَّةَ المُضادَّةَ لِلمِثاليَّةِ في بِداياتِ القَرنِ العشرينَ. يُعَدُّ مِن مُؤَسِّسي الفَلسَفَةِ التَّحليليَّةِ =

أنَّ اسمَ العَلَمِ ليسَ 'عَلامَةً بِلا مَعنًى' بَل يُعَبِّرُ عن مَعلوماتٍ تُحَدِّدُ مَرجِعَهُ. إذ يَرَى رَسِل أنَّ أسماءَ الأعلامِ أوصافٌ مُعَرِّفَةٌ مُتَخفِّيَةٌ. ويَذهَبُ إلى أنَّ اسمَ 'بِسمارك Bismarck'*، عَلى سَبيلِ المِثالِ، يُمكِنُ أن يُربَطَ بِوَصفٍ هوَ *أوّلُ مُستَشارٍ لِلإمبراطوريَّةِ الألمانيَّةِ*. أمّا فريجه فيَرَى أنَّ اسمَ العَلَمِ لَهُ مُفادٌ sense كما أنَّ لَهُ إحالَةً reference. فأمّا مُفادُ الاسمِ فهوَ طَريقَةُ عَرضٍ تُحَدِّدُ الإحالَةَ لكِن لا يُشتَرَطُ أن تَكونَ وَصفًا مُتَخفِّيًا يُمكِنُ التَّعبيرُ عنهُ بِوَصفِهِ وَصفًا مُعَرِّفًا(3). إذ يُمكِنُ أن تَكونَ إدراكيَّةً، على سبيلِ المِثالِ؛ فالطَّريقَةُ التي يَظهَرُ بِها شَيءٌ مّا لِلمُدرِكِ يُمكِنُ أن تَكونَ طريقَةَ عَرضِهِ. وستَكونُ النُّسخَةُ التي طَوَّرَها رَسِل مِن الوَصفِيَّةِ بُؤرَةَ اهتِمامي، لكِن تَظَلُّ نَظَريَّةُ فريجه خِيارًا مُهِمًّا.

وإعطاءُ الوَصفِيِّينَ اسمَ العَلَمِ مَضمونًا وَصفِيًّا يَجعَلُ مَوقِفَهُم أفضَلَ مِن مَوقِفِ أنصارِ مَذهَبِ مِلْ في مُعالَجَةِ المُشكِلاتِ الثَّلاثِ المَذكورَةِ آنِفًا. فالمُشكِلَةُ الأُولَى ستَختَفي لأنَّ اسمَ العَلَمِ سيَكونُ بِالإمكانِ أن يَكونَ ذا مَعنًى ولَو لَم يَكُنْ ذا مَرجِعٍ؛ فالمَضمونُ الوَصفِيُّ يَظَلُّ واحِدًا سَواءٌ أوُجِدَ مَن يَحمِلُهُ أم لَم يُوجَدْ. وسَيَكونُ بِالإمكانِ أيضًا تَفسيرُ التَّغَيُّراتِ في الدَّلالَةِ المَعرِفِيَّةِ وقِيَمِ الصِّدقِ التي تَحدُثُ حينَ يَكونُ ثَمَّةَ استِبدالٌ في الألفاظِ المُشتَرَكَةِ الإحالَةِ، والتي تُسَلِّطُ المُشكِلَتانِ الثّانِيَةُ والثّالِثَةُ الأضواءَ عليها. فإذا كانَ لاسمَيْنِ مَضمونانِ وَصفِيّانِ

= مَعَ سَلَفِهِ غوتلوب فريجه وتِلميذِهِ لودفيغ فتغنِشتاين، ومِن أهَمِّ عُلَماءِ المنطِقِ في القَرنِ العشرِينَ. ألَّفَ معَ وايتهيد كتابَ (مَبادِئ الرِّياضيّات)، وهوَ مُحاوَلَةٌ لِشَرحِ الرِّياضيّاتِ بِالمنطقِ. وتُعدُّ مَقالَتُهُ الفَلسَفِيَّةُ (في الدَّلالَةِ التَّعيينِيَّة) أُنموذجًا فكريًّا في الفَلسَفَةِ. مِن آثارِهِ الأُخرى: (تاريخُ الفَلسَفَةِ الغَربيَّة)؛ و(عِبادَةُ الإنسانِ الحُرّ)؛ و(الدِّينُ والعِلم). [المُترجم]

* أوتو فون بِسمارك (1815–1898م). رَجُلُ دَولَةٍ، وسِياسيٌّ بروسِيٌّ–ألمانيٌّ. شَغَلَ مَنصِبَ رَئيسِ وُزَراءِ مَملَكَةِ بروسيا بَينَ عامَي 1862 و1890، وأشرَفَ عَلى تَوحيدِ الوِلاياتِ الألمانيَّةِ وتَأسيسِ الإمبراطوريَّةِ الألمانيَّةِ أو ما يُسَمّى بـِ (الرّايخ الألمانيّ الثّاني)، وأصبَحَ أوَّلَ مُستَشارٍ لَها بَعدَ قِيامِها في عام 1871، حَتّى عَزَلَهُ فِلهلم الثّاني في عام 1890. ولِدَورِهِ المُهِمِّ خِلالَ مُستَشارِيَّتِهِ لِلرّايخ الألمانيّ أثَّرَتْ أفكارُهُ في السِّياسَةِ الدّاخليَّةِ والخارجيَّةِ لألمانيا في نهايَةِ القَرنِ التّاسِعَ عَشَرَ، ولذا لُقِّبَ بِـ (المستَشار الحَديديّ). [المُترجِم]

(3) لِلوُقوفِ على مُناقَشَةٍ لِهذِهِ المسألَةِ، يُنظَر: McDowell (1977).

مُختَلِفانِ لكِنَّهُما يُسَمِّيانِ شَيئًا واحِدًا، فمِن المُتَوَقَّعِ أن يُوَلِّدَ استِبدالُ أحَدِهِما بِالآخَرِ تَغَيُّرًا في المَعنَى ويُمكِنُ أن يُوَلِّدَ تَغَيُّرًا في قيمَةِ صِدقِ الجُملَةِ التي يَكونانِ فيها.

ومِن الصُّعوباتِ التي أدرَكَها الوَصفِيُّونَ الأوائلُ أنَّ الأشخاصَ المُختلِفينَ قَد يَربِطونَ مَضامينَ وَصفِيَّةً مُختَلِفَةً بِاسمٍ واحِدٍ. فَفي الوَقتِ الذي قَد يَربِطُ فيهِ شَخصٌ مّا بِـ 'أرسطو Aristotle'* مَضمونًا وَصفِيًّا هوَ *تِلميذُ أفلاطون*** *ومُعَلِّمُ الإسكَندَرِ الأكبَرِ****، قَد يَربِطُ بِهِ شَخصٌ آخَرُ [89] مَضمونًا وَصفِيًّا هوَ *تِلميذُ أفلاطون المَولودُ في ستاجيرا عامَ 384* ق.م. وكانَ فريجه (1892) يَعتَقِدُ أنَّ هذهِ التَّنَوُّعاتِ في المُفادِ يُمكِنُ التَّسامُحُ فيها بِشَرطِ أن تَكونَ المُفاداتُ المُختلِفَةُ مُحَدِّدَةً لإحالَةٍ واحِدَةٍ (كما هوَ الأمرُ في حالَتِنا هذهِ)[4]. على أنَّ التَّنَوُّعاتِ في المُفادِ أو المَضمونِ الوَصفِيِّ تُوَلِّدُ مُشكِلاتٍ أكثَرَ صُعوبَةً لِلأقوالِ المُتَعَلِّقَةِ بِـ 'اللهِ'. فإذا استَعمَلَ المَسيحِيُّ لَفظَ 'الله' مَعَ مَضمونٍ وَصفِيٍّ هوَ *خالِقُ الكَونِ*،

---

* أرسطو (384-322 ق.م). فَيلَسوفٌ يونانيٌّ. تِلميذُ أفلاطون ومُعَلِّمُ الإسكندرِ الأكبرِ، وأحَدُ عُظَماءِ المفكِّرينَ. تَناوَلَتْ كتاباتُهُ عِدَّةَ مَجالاتٍ كالفيزياءِ، والميتافيزيقا، والشِّعرِ، والمسرحِ، والموسيقى، والمنطقِ، والبَلاغَةِ، واللُّغَوِيّاتِ، والسِّياسَةِ، والحُكومةِ، والأخلاقِ، وعِلمِ الأحياءِ، وعِلمِ الحَيَوانِ. ويُعَدُّ مِن أهَمِّ مُؤَسِّسِي الفَلسَفَةِ الغَربيَّةِ. [المُترجِم]

** أفلاطون (428-427/ 348-347 ق.م). فَيلَسوفٌ يونانيٌّ كلاسيكيٌّ. يُعَدُّ مُؤَسِّسَ أكاديميَّةِ أثينا التي هيَ أوَّلُ مَعهَدٍ لِلتَّعليمِ العالي في العالَمِ الغَربيِّ. مُعلِّمُهُ سُقراط وتِلميذُهُ أرسطو. ويُعَدُّ واضِعَ الأُسسِ الأولَى لِلفَلسَفَةِ الغَربيَّةِ والعُلوم. اتَّضَحَ نُبوغُهُ وأسلوبُهُ في مُحاوراتِهِ السُّقراطيَّةِ (نحو ثلاثينَ محاورةً) التي تناوَلَتْ مَوضوعاتٍ فَلسفيَّةً شتَّى، كالمعرفةِ، والمنطقِ، واللُّغَةِ، والرِّياضيّاتِ، والميتافيزيقا، والأخلاقِ، والسِّياسةِ. [المُترجِم]

*** الإسكَندَرُ الأكبَرُ (356-323 ق.م). هوَ الإسكَندَرُ الثّالِثُ المقدونيُّ، المعروفُ بِعِدَّةِ أسماءٍ أُخرى أبرَزُها الإسكَندَرُ الكَبيرُ، والإسكَندَرُ المقدونيُّ. وهوَ مِن مُلوكِ مَقدونيا الإغريقِ، ومِن أشهَرِ القادَةِ العَسكَرِيِّينَ والفاتِحِينَ عبرَ التّأريخِ. وُلِدَ في مَدينَةِ بيلا، وتَلمَذَ لِلفَيلسوفِ المشهورِ أرسطو حَتّى بَلَغَ رَبيعَهُ السّادِسَ عَشَرَ. ولَمّا بَلَغَ عامَهُ الثّلاثينَ، كانَ قَد أسَّسَ إحدى كُبرى الإمبراطوريّاتِ التي عَرَفَها العالَمُ القَديمُ، والتي امتَدَّتْ مِن سَواحِلِ البَحرِ الأيونيِّ غَربًا إلى سِلسِلَةِ جِبالِ الهمالايا شَرقًا. يُعَدُّ مِن أنجَحِ القادَةِ العَسكَرِيِّينَ في مَسيرَتِهِم، إذ لَم يُهزَمْ في أيَّةِ مَعركَةٍ خاضَها. [المُتَرجِم]

(4) لِلوُقوفِ على تَعاطي رَسِل مَعَ هذهِ المُشكِلَةِ، يُنظَر: (1917, p. 208).

المُساوي والمُشارِكُ في الأَبَدِيَّةِ لِيَسوعَ المَسيحِ ولِلرُّوحِ القُدُسِ ورَبَطَ المُسلِمُ لَفظَ 'الله' بِمَضمونٍ وَصفِيٍّ هوَ *خالِقُ الكَونِ، المَوجودُ المُتَفَرِّدُ والمُطلَقُ*، فَلَن يَكونا مُتَّفِقَيْنِ في أَيَّةِ دَعوَى يُنشِئانِها بِشَأنِ اللهِ. ويُمكِنُ القَولُ على نَحوٍ أَعَمَّ إنَّهُ إذا كانَتِ الدَّعاوَى التي يُقِرُّها دينٌ مّا (أو طائفَةٌ دينِيَّةٌ مّا) وتَرفُضُها أديانٌ أُخرَى مُثبَتَةً في المَضمونِ الوَصفِيِّ لِلَفظِ 'الله'، فسيَكونُ المُتَحَدِّثونَ المُنتَسِبونَ إلى الأديانِ أو الطَّوائفِ المُختَلِفَةِ مُتَحَدِّثينَ في أغراضٍ مُتَضادَّةٍ عندَ حَديثِهِم عن اللهِ (Alston 1991, pp. 259-260). فالمَسيحِيُّونَ وغَيرُ المَسيحِيِّينَ، على سبيلِ المِثالِ، لَن يَكونوا قادِرينَ على الاتِّفاقِ بِشَأنِ اللهِ حتّى في النِّقاطِ الواضِحَةِ الانسِجامِ لأَنَّهُم سيَكونونَ مُحيلينَ على أشياءَ مُختَلِفَةٍ. وهذهِ نتيجَةٌ صادِمَةٌ لِلحِسِّ تَمامًا.

ثُمَّ إنَّ الوَصفِيَّةَ تُعاني إشكالِيَّةً فَلسَفِيَّةً لِسَبَبٍ آخَرَ. ذلكَ بِأَنَّهُ إذا ما رَبَطَ شَخصٌ مّا مَضمونًا وَصفِيًّا هوَ *خالِقُ الكَونِ، المُساوي والمُشارِكُ في الأَبَدِيَّةِ لِيَسوعَ المَسيحِ ولِلرُّوحِ القُدُسِ* بِلَفظِ 'الله'، فسَتكونُ الجُملَةُ (9) مُكافِئَةً لِلجُملَةِ (10) في ما يَأتي:

9. اللهُ خَلَقَ العالَمَ.

10. خالِقُ الكَونِ، المُساوي والمُشارِكُ في الأَبَدِيَّةِ لِيَسوعَ المَسيحِ ولِلرُّوحِ القُدُسِ، خَلَقَ العالَمَ.

لكِنَّ ذلكَ يَبدو خَطَأً: فالجُملَةُ (10) صادِقَةٌ صِدقًا تَحليلِيًّا، في حينِ أَنَّ الجُملَةَ (9) لا تَبدو تَحليلِيَّةً حَتّى لِلشَّخصِ الذي يَرَى أصلًا أَنَّ اللهَ خالِقٌ لِلكَونِ. ويُمكِنُ القَولُ عُمومًا إنَّهُ إذا كانَ لَدَينا اسمٌ هوَ س ومَضمونٌ وَصفِيٌّ هوَ ص، فسَتكونُ النَّتيجَةُ بِحَسَبِ الرُّؤيَةِ الوَصفِيَّةِ هيَ أَنَّ 'س هوَ ص' صادِقَةٌ صِدقًا تَحليلِيًّا. وليسَ هذا عَلى ما يَبدو صَحيحًا.

وثَمَّةَ مَوقِفٌ وَصفِيٌّ أكثرُ تَطَوُّرًا اقتَرَحَهُ فِتغِنشتاين (1953, p. 79) وطَوَّرَهُ سيرل Searle* (1958) مُفادُهُ أنَّ ثَمَّةَ عُنقودًا مِن الأوصافِ يَرتَبِطُ بِاسمِ العَلَمِ. *فالوَصفُ العُنقوديُّ* يُحَدِّدُ عَدَدًا مِن الصِّفاتِ المُمَيِّزَةِ لِلمَرجِعِ. ويُمكِنُ أن يُستَعمَلَ اسمُ العَلَمِ استِعمالًا مُلائمًا مِن غَيرِ الوَفاءِ بِمُقتَضَياتِ جَميعِ عَناصِرِ الوَصفِ العُنقودِيِّ. ويَعرِضُ سيرل هذا المَوقِفَ على النَّحوِ الآتي:

> لِنفتَرِضْ أنّا سَألْنا مُستعمِلِي اسمَ 'أرسطو' أن يُبَيِّنوا ما يَعُدُّونَهُ حَقائقَ يَقينِيَّةً وأساسِيَّةً وثابِتَةً بِشَأنِهِ. فسَتَكونُ إجاباتُهُم مَجموعَةً مِن العِباراتِ التَّقريرِيَّةِ الوَصفِيَّةِ الإحالِيَّةِ المُتَفَرِّدَةِ. [90] فالذي أذهَبُ إليهِ أنَّ القُوَّةَ الوَصفِيَّةَ لِقَولِنا: 'هذا أرسطو' هِيَ تَقريرُ أنَّ عَدَدًا كافِيًا مِن هذهِ العِباراتِ التَّقريرِيَّةِ، وإن كانَ بَعدُ غَيرَ مُحَدَّدٍ، صادِقٌ بِشَأنِ هذا المَوضوعِ. (1958, p. 171)

فالنَّظرِيَّةُ العُنقودِيَّةُ إذَن لا تَعُدُّ أيَّ مُكَوِّنٍ مَخصوصٍ مِن مُكَوِّناتِ الوَصفِ العُنقودِيِّ أو حَتّى الوَصفَ العُنقوديَّ كامِلًا مُكافِئًا لِمَضمونِ الاسمِ، مُتَجَنِّبَةً بِذلكَ مُشكِلَةَ تَحليلِيَّةِ الجُملَةِ (9). وقَد يَكونُ بِإمكانِ النَّظرِيَّةِ العُنقودِيَّةِ لأسماءِ الأعلامِ المُطَبَّقَةِ على لَفظِ 'الله' أن تَكونَ قادِرَةً أيضًا على تَجَنُّبِ مُشكِلَةِ المَضامينِ المُختَلِفَةِ التي يُثبِتُها في الاسمِ مُؤمِنونَ مُختَلِفو الدِّياناتِ. فَلْنَفتَرِضْ أنَّ عُنقودَ أوصافِ 'الله' يَشتَمِلُ على أوصافٍ مُختَصَّةٍ بِالاعتِقادِ المَسيحِيِّ وعلى أوصافٍ مُختَصَّةٍ بِالاعتِقادِ الإسلامِيِّ أيضًا، مِن غَيرِ جَعلِ أيٍّ مِن هذهِ الأوصافِ ضَرورِيًّا لِصِحَّةِ استِعمالِ الاسمِ. فلِذلكَ، لَن يَكونَ المَسيحِيُّونَ والمُسلِمونَ مُحيلِينَ على شَيئَيْنِ مُختَلِفَيْنِ

---

* جون روجرز سيرل (1932-...م). فَيلَسوفٌ أمريكِيٌّ. اهتَمَّ بِخاصَّةٍ بِفَلسَفَةِ اللُّغَةِ وبِفَلسَفَةِ العَقلِ، وكانَ أستاذَ الفَلسَفَةِ في جامِعَةِ باركلي في كالِفورنيا. أثَّرَ فيهِ أستاذُهُ جون أوستِن، وأكَّدَ أنَّ الوَحدَةَ الأساسِيَّةَ لِلتَّواصُلِ هيَ الفِعلُ الكَلامِيُّ، وطَوَّرَ نَظَرِيَّةً مُتَجانِسَةً لِلأفعالِ الكَلامِيَّةِ، جاعِلًا بُؤرَةَ اهتِمامِهِ مُختَلِفَ أنواعِ القَصدِ الذي يُمَيِّزُ التَّواصُلَ اللِسانِيَّ. مِن مُؤَلَّفاتِهِ: (العَقلُ واللُّغَةُ والمُجتَمَعُ: الفَلسَفَةُ في العالَمِ الواقِعِيّ)؛ و(القَصدِيَّةُ: بَحثٌ في فَلسَفَةِ العَقلِ)؛ و(أفعالُ الكَلامِ: دِراسَةٌ في فَلسَفَةِ اللُّغَةِ). [المُترجِم]

بِمُجَرَّدِ استِعمالِهِم كَلِمَةَ 'الله'، بِشَرطِ أن يَستَعمِلوا (أو أن يَكونوا مَيّالِينَ إلى أن يَستَعمِلوا) أوصافًا مِن العُنقودِ نَفسِهِ.

ومِمّا يَنبَغي أن يَكونَ قد اتَّضَحَ أصلًا مِن الأسبابِ المَذكورَةِ مِن قَبلُ أَنَّ الأبوفاتيكِيَّةَ لا يُمكِنُها أن تَقبَلَ النَّظرِيَّةَ الوَصفِيَّةَ لِلإحالَةِ سَواءٌ أكانَتْ عُنقودِيَّةَ الوِجهَةِ أم لَم تَكُنْ. فأيُّ مَضمونٍ وَصفِيٍّ يُستَعمَلُ لِتَمييزِ اللهِ مِن خِلالِ أوصافٍ ذاتِيَّةٍ ستَكونُ عاقِبَتُهُ، استِنادًا إلى الأبوفاتيكِيَّةِ، هيَ الإخفاقَ. على أنَّ عَدَدًا مِن الاعتِراضاتِ المُلزِمَةِ على النَّظرِيَّةِ الوَصفِيَّةِ، التي يُعَدُّ أشهَرَ مَن أثارَها كَيْث دونِلن Keith Donnellan* (1972) ودَيْـفِـد كـابـلـن David Kaplan** (1989) وصـول كريبكه Saul Kripke*** (1977; 1980)، أدَّى إلى إعادَةِ إحياءِ الاهتِمامِ بِمَذهَبِ مِلْ. وسَأسوقُ في الآتي اثنَيْنِ مِن هذهِ الاعتِراضاتِ.

أمّا أوَّلُهُما فهوَ أنَّ مِن الميزاتِ الواضِحَةِ لِلنَّظرِيَّةِ الوَصفِيَّةِ أنَّها تُقَدِّمُ أطروحَةً لِكُلٍّ مِن مَعنَى الاسمِ وكَيفِيَّةِ تَسمِيَةِ الاسمِ ما يَحمِلُهُ: فالاسمُ وَصفٌ اختِزالِيٌّ

---

* كَيْث سيجوك دونِلن (1931-2015م). فَيلَسوفٌ أمريكِيٌّ، وأُستاذٌ في قِسمِ الفَلسَفَةِ بِجامِعَةِ كالِفورنيا. أسهَمَ في فَلسَفَةِ اللُّغَةِ، ولا سِيَّما تَحليلُ أسماءِ الأعلامِ والأوصافِ التَّعريفِيَّةِ. مِن آثارِهِ: (''الإحالَةُ والأوصافُ التَّعريفِيَّة'')؛ و(''أسماءُ الأعلامِ والأوصافُ التَّعريفِيَّة'')؛ و(مَقالاتٌ في الإحالَةِ، واللُّغَةِ، والعَقل). [المُتَرجِم]

** دَيْفِد بِنيامين كابلن (1933-...م). فَيلَسوفٌ أمريكِيٌّ، وأُستاذُ فَلسَفَةِ العِلمِ في قِسمِ الفَلسَفَةِ بِجامِعَةِ كالِفورنيا. يَنصَبُّ اهتِمامُهُ عَلى فَلسَفَةِ اللُّغَةِ، والمنطِقِ، والميتافيزيقا، ونَظَرِيَّةِ المَعرِفَةِ، وفَلسَفَتَيْ فريجه ورَسِل. مِن مَنشوراتِهِ: (''الكَلِمات'')؛ و(''مُشكِلَةٌ في عِلمِ الدَّلالَةِ العالَمِيِّ المُمكِن'')؛ و(فَلسَفَةُ دَيْفِد كابلن). [المُتَرجِم]

*** صول كريبكه (1940-...م). فَيلَسوفٌ، ومَنطِقِيٌّ أمريكِيٌّ. أُستاذُ الفَلسَفَةِ في جامِعَةِ نيويورك، وأُستاذٌ في جامِعَةِ برنستون. أصبَحَ مُنذُ سِتِّينِيّاتِ القَرنِ العِشرينَ شَخصِيَّةً مَركَزِيَّةً في عَدَدٍ مِن الحُقولِ المُتَعَلِّقَةِ بِالمنطِقِ الرِّياضِيِّ، وفَلسَفَةِ اللُّغَةِ، وفَلسَفَةِ الرِّياضِيّاتِ، والميتافيزيقا، ونَظَرِيَّةِ المعرِفَةِ، ونَظَرِيَّةِ المجموعاتِ. لا يَزالُ كَثيرٌ مِن أعمالِهِ غَيرَ مَنشورٍ أو غَيرَ مَوجودٍ إلّا بِصيغَةِ تَسجيلاتٍ عَلى أشرِطَةٍ ومَخطوطاتٍ غَيرِ مُتَداوَلَةٍ إلّا في نِطاقٍ ضَيِّقٍ. مِن مُؤَلَّفاتِهِ: (التَّسمِيَةُ والضَّرورَة)؛ و(مُشكِلاتٌ فَلسَفِيَّة - بُحوثٌ مَجموعَةٌ، الجُزءُ الأوَّل)؛ و(الإحالَةُ والوُجودُ - مُحاضَراتُ جون لوك). [المُتَرجِم]

مُعَرِّفٌ (طِبقًا لِنُسخةِ رَسِل مِن النَّظريَّةِ)، والشَّيْءُ المُسَمّى هوَ ما يَفي بِمُقتَضَياتِ هذا الوَصفِ. لكِن مِمّا يُؤسَفُ عليهِ أنَّ استِعمالَ الوَصفِ التَّعيينِيِّ المُعَرِّفِ لا يَكفي لِتَسمِيَةِ الشَّيْءِ. فَلْنَفتَرِضْ أنَّ جَيْن قد تَعَلَّمَت اسمَ 'شَيْكسبير Shakespeare'* في المَدرَسَةِ وأنَّ الحَقيقَةَ الأساسيَّةَ التي تتذَكَّرُها هيَ أنَّ شيكسبير هوَ مُؤَلِّفُ مَسرحيَّةِ *هامْلِت Hamlet*. فإذا ما سُئِلَتْ: 'مَنْ شَيْكسبير؟'، أجابَتْ بِثِقَةٍ: 'مُؤَلِّفُ *هامْلِت*'. فالذي تَذهَبُ إليهِ الوَصفِيَّةُ أنَّ 'مُؤَلِّف *هامْلِت*' وَصفٌ مُعَرِّفٌ يُقَدِّمُ مَضمونَ الاسمِ ويُحَدِّدُ الشَّيْءَ المُسَمّى. لكِن لِنَفتَرِضْ أنَّ فرانسِس بَيْكن Francis Bacon** هوَ مَن كَتَبَ *هامْلِت*. فعِندَئذٍ سيَكونُ وَصفُ جَيْن كاذِبًا في ما يَتَعَلَّقُ بِشَيْكسبير، وسيُخفِقُ 'شَيْكسبير' استِنادًا إلى النَّظريَّةِ الوَصفِيَّةِ إمّا في تَمييزِ شَيْءٍ مّا وإمّا في تَسمِيَةِ فرانسِس بَيْكن. على أنَّهُ لا يَبدو أنَّ جَيْن كانَت تَستَعمِلُ اسمَ 'شَيْكسبير' لِلحَديثِ عن بَيْكن طَوالَ هذا الوَقتِ. بَل يَبدو أنَّها كانَت تَتَحَدَّثُ عن شَيْكسبير حينَ قالَتْ 'شَيْكسبير' لكِن كانَ لَها اعتِقادٌ كاذِبٌ بِشَأنِهِ. [91] وبالإمكانِ إثارَةُ المُشكِلَةِ نَفسِها بِشَأنِ النَّظريّاتِ العُنقوديَّةِ. فإن رَبَطْنا عَدَدًا مِن الأوصافِ بِاسمِ 'شَيْكسبير' - أنَّهُ مُؤَلِّفُ *هامْلِت*، وأنَّهُ وُلِدَ عامَ 1564 في ستراتفورد أُبون أيفن Stratford-upon-Avon، وأنَّهُ كانَ لاعِبًا معَ رِجالِ اللورد تشامبَرلَيْن Lord Chamberlain's Men، وما إلى ذلكَ - أمكَنَ عَلى ما يَبدو أن نَكونَ مُخطِئينَ

---

* ولِيَم شَيْكسبير (1564-1616م). شاعِرٌ، وكاتِبٌ إنجليزيٌّ يُصَنَّفُ بوصفِهِ أعظمَ كاتبٍ بِاللُّغَةِ الإنجليزيَّةِ، وأعظمَ كاتِبٍ مَسرَحِيٍّ في العالَمِ، وكثيرًا ما يُعَدُّ الشّاعِرَ الوَطَنِيَّ لإنجلترا. سَبَرَ في مَسرَحيّاتِهِ أغوارَ النَّفسِ البَشَريَّةِ وحَلَّلَها في بِناءٍ مُتَناسِقٍ جَعَلَها أشبَهَ شَيءٍ بِالسّمفونِيّاتِ الشِّعريَّةِ. مِن أشهَرِ آثارِهِ الكوميديَّةِ: (كوميديا الأخطاء)؛ و(تاجِرُ البُندُقِيَّة)؛ ومِن أشهَرِ آثارِهِ التراجيدِيَّةِ: (روميو وجولييت)؛ و(يوليوس قيصر)؛ و(هامْلِت)؛ و(عُطَيل)؛ و(ماكبث). [المُترجِم]

** فرانسِس بَيْكن (1561-1626م). فَيلَسوفٌ، ورَجُلُ دَولةٍ، وكاتِبٌ، وخَطيبٌ إنجليزيٌّ، مَعروفٌ بِقِيادَتِهِ لِلثَّورَةِ العِلمِيَّةِ بِفَلسَفَتِهِ الجَديدَةِ القائمةِ على المُلاحظةِ والتَّجريبِ. كانَ مِن الرُّوّادِ الذينَ تَنَبَّهوا إلى عَدَمِ جَدوَى المنطِقِ الأرسطِيِّ الذي يَعتَمِدُ على القِياسِ. من آثارِهِ: (تَاريخُ الحَياةِ والموت)؛ و(أطلانطا الجَديدَة). [المُترجِم]

نِظاميًّا في جَميعِ هذهِ التَّفصيلاتِ في الوَقتِ الذي نَظَلُّ فيهِ مُحيلِينَ على شَيْكسبير. لِذلكَ يَبدو أَنَّ النَّظَرِيَّةَ الوَصفِيَّةَ تُوَلِّدُ الاستِنتاجَ الخَطَأَ بِشَأنِ ما يُحيلُ الاسمُ عليهِ.

وأمّا الاعتِراضُ الثّاني فهو أَنَّ بِإمكانِ المُتَحَدِّثِينَ أَن يُحيلوا على أشياءَ في الوَقتِ الذي يَفتَقِرونَ فيهِ إلى المَصادِرِ الوَصفِيَّةِ التي تَقتَضي النَّظرِيَّةُ الوَصفِيَّةُ أن يَكونوا حائزِينَ لَها. فَلْنَفتَرِضْ أَنَّ جَيْن قَد سَمِعَتْ أَنَّ دَيْفِد أتينبورو David Attenborough* ذو نَزعَةٍ طَبيعِيَّةٍ. فَكَونُهُ ذا نَزعَةٍ طَبيعِيَّةٍ هوَ الصِّفَةُ الوَحيدَةُ التي تَربِطُها بِثِقَةٍ بِاسمِ 'دَيْفِد أتينبورو'. على أَنَّ مِنَ الواضِحِ أَنَّ كَونَهُ ذا نَزعَةٍ طَبيعِيَّةٍ لا يُعَيِّنُ دَيْفِد أتينبورو تَعيينًا مُتَفَرِّدًا؛ ثُمَّ إِنَّ جَيْن لا تَعتَقِدُ أَنَّهُ لا يُوجَدُ سِوَى شَخصٍ واحِدٍ ذي نَزعَةٍ طَبيعِيَّةٍ. ومعَ ذلكَ، يَبدو أَنَّ جَيْن تَنجَحُ في الإحالَةِ على رِتشارد أتينبورو Richard Attenborough** عندَ استِعمالِها اسمَهُ وإنْ كانَ الاسمُ يَفتَقِرُ إلى المَضمونِ الوَصفِيِّ اللازِمِ لِتَحديدِ الشَّخصِ المُسَمّى تَحديدًا مُتَفَرِّدًا. فهاتانِ الحُجَّتانِ، اللَّتانِ تُسَمَّيانِ أَحيانًا حُجَّتَيِ الخَطَإ والجَهلِ (Devitt and Sterelny, 1999)، تَدعَمانِ الفِكرَةَ المَوروثَةَ مِن مِلْ وهيَ أَنَّ اسمَ العَلَمِ يُحيلُ على مَرجِعِهِ مِن غَيرِ تَوَسُّطِ مَضمونٍ وَصفِيٍّ[5].

• دَيْفِد فريدرِك أتينبورو (1926-...م). مُذيعٌ، ومُؤَرِّخٌ طَبيعِيٌّ إنجليزِيٌّ. أكثَرُ ما يُعرَفُ بِهِ كِتابَتُهُ السِّلسِلَةَ الوَثائقِيَّةَ لِلتّاريخِ الطَّبيعِيِّ وتَقديمُها في هَيئَةِ الإذاعَةِ البريطانيَّةِ. مِن مُؤَلَّفاتِهِ: (الحَياةُ في الأرض)؛ و(الكَوكَبُ الحَيّ)؛ و(أَطلَسُ العالَمِ الحَيّ). [المُترجِم]

•• رِتشارد صاموئيل أتينبورو (1923-2014م). مُمَثِّلٌ، ومُنتِجُ أفلام، وسِياسِيٌّ إنجليزِيٌّ. هوَ الأخُ الأكبَرُ لِلمُذيعِ والمُؤَرِّخِ الطَّبيعِيِّ دَيْفِد فريدرِك أتينبورو. [المُتَرجِم]

(5) ذَهَبَ كريبكه زِيادَةً على ذلكَ إلى أَنَّ أسماءَ الأعلامِ، بِخِلافِ الأوصافِ المُعَرِّفَةِ، تُسَمّي الشَّيْءَ الواحِدَ في عالَمَيْنِ مُمكِنَيْنِ مُختَلِفَيْنِ. وتَعتَمِدُ هذهِ الحُجَجُ على الحُدوسِ المُوَجَّهَةِ التي هيَ أَقَلُّ إلزامًا مِن تلكَ التي تُحيلُ على الشَّيْءِ في الوَقتِ الذي تَكونُ فيهِ جاهِلَةً أو مُخطِئَةً بِشَأنِهِ. وهيَ، بِخِلافِ الاعتِراضاتِ التي سَرَدْناها هُنا، تُقَدِّمُ مُشكِلاتٍ تَعتَرِضُ سَبيلَ النَّظرِيّاتِ الوَصفِيَّةِ التي تَعُدُّ أسماءَ الأعلامِ مُرادِفَةً لِلأوصافِ المُعَرِّفَةِ لا النَّظرِيّاتِ الوَصفِيَّةِ التي تَعُدُّ الأوصافَ المُعَرِّفَةَ هيَ ما يُقَرِّرُ تَسمِيَةَ اسمِ العَلَمِ. وهذهِ الحُجَجُ أَقَلُّ إقناعًا أيضًا في السِّياقِ الحالِيِّ لأَنَّ المَضمونَ الوَصفِيَّ الذي يُمكِنُ أن يُعَدَّ مُكَوِّنًا لِجُزءٍ مِن مَضمونِ 'الله' قَد يَشتَمِلُ على صِفاتٍ يَحوزُها اللهُ في جَميعِ العَوالِمِ المُمكِنَةِ. ولِلوُقوفِ على مَزيدٍ مِنَ المُناقَشَةِ، يُنظَر: Sosa (2001).

اللاوَصفِيَّةُ مَرَّةً أُخرَى

إنَّ المُشكِلاتِ التي اعتَرَضَت طَريقَ الوَصفِيَّةِ أَدَّتْ إلى إحياءِ نَظَريّاتٍ لاوَصفِيَّةٍ لِلإحالَةِ. وقَد كانَتْ لِهذهِ النَّظريّاتِ جاذِبِيَّةٌ واضِحَةٌ لَدَى اللاهوتِيِّينَ الأبوفاتيكِيِّينَ لأنَّها تَسمَحُ بِالإحالَةِ على اللهِ حَتّى معَ الإخفاقِ النِّظامِيِّ في الأوصافِ التي قَد نَربِطُها بِاستِعمالِ الاسمِ. ولَمّا كانَتِ الأبوفاتيكيَّةُ تَعُدُّ الكَثيرَ مِن أوصافِنا لِلّهِ كاذِبَةً لكِنَّها تَفتَرِضُ أنّا قادِرونَ على الإحالَةِ على اللهِ، ظَهَرَتِ النَّظريّاتُ اللاوَصفِيَّةُ بِمَظهَرِ المُقَدِّمَةِ لِطَريقَةٍ مُوَفَّقَةٍ لِلتَّخَلُّصِ مِن تَبِعاتِ الاعتِراضِ الذي مُفادُهُ أنَّ النَّظريَّةَ تُبطِلُ الإحالَةَ على اللهِ. على أنَّهُ لا بُدَّ مِن أن تَكونَ لِلنَّظريّاتِ اللاوَصفِيَّةِ جاذِبِيَّةٌ أكبرُ في فَلسَفَةِ الدِّينِ. فمِنَ المُثيرِ لِلاهتِمامِ تَعاطُفُ وِلیَم أولستن معَ النَّظريَّةِ اللاوَصفِيَّةِ بِوَصفِها النَّظريَّةَ التي تَسمَحُ لِذَوي الاعتِقاداتِ الكاذِبَةِ بِشَأنِ اللهِ أن يَكونوا قادِرينَ على التَّحَدُّثِ عن اللهِ. وعلى الرَّغمِ مِن اعتِقادِ أولستن إمكانَ أن يُمَثَّلَ اللهُ تَمثيلًا صادِقًا ورَفضِهِ الأبوفاتيكِيَّةَ، يَرَى أنَّهُ إذا كانَتِ الأوصافُ المَربوطَةُ بِـ 'الله' كاذِبَةً - وقَد يَكونُ مَرَدُّ ذلكَ إلى سُوءِ الفَهمِ أو إلى مَحدودِيَّةِ طَبيعَتِنا الخَطّاءَةِ - ومُخفِقَةً في تَمثيلِ أيِّ شَيْءٍ واقِعِيٍّ، فعِندَئِذٍ يَكونُ 'النّاسُ مُحيلينَ على *اللهِ*، ومُتَوَجِّهينَ بِصَلَواتِهِم إليهِ، ومُتَعَبِّدينَ لَهُ، لكِنَّهُم، ويا للأَسَفِ، يَكونونَ حائزينَ لِمَعلوماتٍ مُضَلِّلَةٍ جَذرِيًّا بِشَأنِ طَبيعَتِهِ وأغراضِهِ' (1989, p. 111). فإذا لَم يَكُنْ أولستن يَعتَقِدُ أنّا مُخطِئونَ كُلِّيًّا، فإنَّهُ يَتَّخِذُ [92] إمكانَ الخَطَإِ الجَذرِيِّ أساسًا لِتَفضيلِ النَّظريَّةِ التي تَذهَبُ إلى أنَّ تَسمِيَةَ 'الله' لا يُقَرِّرُها المَضمونُ الوَصفِيُّ.

وتَتَجَنَّبُ النَّظريّاتُ المِلْيانِيَّةُ تَجَنُّبًا تامًّا أيضًا المُشكِلَةَ المَذكورَةَ مِن قَبلُ المُتعلِّقَةَ بِرَبطِ مُؤمِني أديانٍ أو طَوائفَ مُختَلِفَةٍ أوصافًا مُختَلِفَةً بِاللهِ، بِما يُوَلِّدُ تَنافِياتٍ بينَ مَضامينِ 'الله' بِحَسَبِ استِعمالِ مُتَحَدِّثِينَ مُختَلِفينَ لَهُ. فبِخِلافِ النَّظريَّةِ الوَصفِيَّةِ، لا تَحتاجُ النَّظريَّةُ المِلْيانِيَّةُ المُتَعَلِّقَةُ بِـ 'الله' إلى أن تُقَدِّمَ وَصفًا عُنقودِيًّا يَكونُ مُختَلِفُ المُؤمِنينَ مَيّالِينَ إلى استِعمالِهِ. ثُمَّ إنَّ المِلْيانِيَّةَ في مَنأًى كذلِكَ عن

المُشكِلَةِ التي تَعتَرِضُ طريقَ النَّظريّاتِ الوَصفِيَّةِ والتي تَنجُمُ عن الصُّعوباتِ الفَلسَفِيَّةِ المُتَعلِّقَةِ بِالاتِّساقِ الدّاخِلِيِّ لِبَعضِ المَحمولاتِ الإلهِيَّةِ. مِثالُ ذلكَ المُشكِلَةُ المَشهورَةُ المُتَعلِّقَةُ بِكُلِّيَّةِ القُدرَةِ وهيَ مُفارَقَةُ الصَّخرَةِ (Savage, 1967): فإن كانَ بإمكانِ اللهِ أن يَخلُقَ صَخرَةً ثَقيلَةً جِدًّا بِحَيثُ لا يُمكِنُهُ رَفعُها، فهذا يَعني أنَّ ثَمَّةَ شَيئًا لا يُمكِنُهُ فِعلُهُ (أي رَفعَ الصَّخرَةِ التي كانَ قَد خَلَقَها)، لكِن إن لَم يَكُنْ بِإمكانِ اللهِ أن يَخلُقَ صَخرَةً ثَقيلَةً جِدًّا بِحَيثُ لا يُمكِنُهُ رَفعُها، فهذا يَعني كذلِكَ أنَّ ثَمَّةَ شَيئًا لا يُمكِنُهُ فِعلُهُ (خَلقَ الصَّخرَةِ). فالنَّظريَّةُ اللاوَصفِيَّةُ لِلإحالَةِ الدِّينِيَّةِ تَضمَنُ عَدَمَ إبطالِ هذهِ المُشكِلاتِ الحَديثَ عن اللهِ. فما دامَ الوَصفُ ليسَ ضامِنًا لِلإحالَةِ على اللهِ، ولَو كانَتْ بَعضُ المَحمولاتِ الرَّئيسَةِ المُستَعمَلَةِ لِلّهِ مُتَناقِضَةً، فسَيَظَلُّ بِإمكانِ كلِمَةِ 'الله' الإحالَةُ على اللهِ.

فهَل عَلَينا مِن أجلِ ذلكَ أن نَتَبَنّى نَظريَّةً مِلْيانِيَّةً بِشَأنِ مَعنَى الأسماءِ، مُفادُها أنَّ كُلَّ ما يُقَدِّمُهُ الاسمُ لِمَعنَى الجُملَةِ هوَ مَرجِعُهُ؟ وقَد رَأَيْنا أنَّهُ يَلزَمُ مِن المَنظورِ المِلْيانِيِّ أن يَكونَ لِلأسماءِ المُختَلِفَةِ ذاتِ المَرجِعِ الواحِدِ مَعنًى واحِدٌ. ويَعتَقِدُ جونستن، الذي يَتَبَنّى نَظريَّةً مِلْيانِيَّةً في الأسماءِ عُمومًا، أنَّ هذهِ النُّقطَةَ يُمكِنُ أن تُستَعمَلَ لإظهارِ أنَّ النَّظَريَّةَ المِلْيانِيَّةَ لا تُطَبَّقُ على 'الله' وأنَّ 'الله' ليسَ اسمًا، إذ يَقولُ:

> إنَّ مِن دَواعي التَّماسُكِ المَنطِقِيِّ أن يُشَكَّ، كما شَكَّ اللاهوتِيُّ مَرقيون Marcion* في القَرنِ الثّاني، في حَقيقَةِ كَونِ يَهوه Yahweh** هوَ اللهَ. وقَد

* مَرقيون السّينوبِيُّ (85-160م). ابنُ أسقُفِ سينوب في إقليم البنطس عَلى شاطِئِ البَحرِ الأسوَدِ. أثَّرَتْ فيهِ الأفكارُ الغنوصِيَّةُ، فحَرمَهُ والِدُهُ مِن الكَنيسَةِ، فخَرَجَ مِن سينوب وطافَ آسيا الصُّغرى، ووَصَلَ إلى روما فمَنَحَ كنيستَها هَدِيَّةً مادِّيَّةً كبيرَةً، ونَشَرَ تَعاليمَهُ، وتَجَمَّعَ حَولَهُ كثيرٌ مِن الأتباعِ. وقَد رَفَضَ لاهوتُهُ الأُلوهِيَّةَ الموصوفَةَ في الكُتُبِ المُقَدَّسَةِ العِبريَّةِ. [المُتَرجِم]

** يَهوه: أحرُفٌ مُقَدَّسَةٌ يَتَألَّفُ مِنها اسمُ اللهِ عِندَ العِبرانِيِّينَ. وبِسَبَبِ خاصِّيَّتِها المُقَدَّسَةِ، اتَّجَهَ اليَهودُ مُنذُ نَحوِ عام 300 ق.م إلى تَجَنُّبِ نُطقِ تِلكَ الأحرُفِ عندَ قِراءَةِ الكِتابِ المُقَدَّسِ، واستَبدَلوا بِها كلِمَةَ (أدوناي)، أي (الرَّبّ) بِالعِبريَّةِ. وحينَ دَخَلَتِ الحُروفُ المُتَحَرِّكَةُ =

شَكَّ مَرقيون أيضًا في كَونِ الإلهِ الذي ظَهَرَ لإبراهيمَ هوَ اللهَ. فإذا كانَ مَرقيون مُخطِئًا في ذلكَ، فَخَطَؤُهُ لا يَتَعَلَّقُ بِمَعاني الكَلِماتِ. إنَّهُ يتعلَّقُ بِالحَقائقِ اللاهوتِيَّةِ لِلأَمرِ. وهذا نَفسُهُ يَستَلزِمُ أَنَّ 'يَهوه' لا يَعني 'الله...' إذ لَو كانَ هذانِ مُتَكافِئَيْنِ في المَعنى، ما كانَ ثَمَّةَ مَجالٌ لِحُدوثِ أخطاءٍ واقِعِيَّةٍ ذاتِ صِلَةٍ. (2011, p. 6)

ويُمكِنُ أن تُعادَ صِياغَةُ هذهِ الحُجَّةِ على النَّحوِ الآتي:

11. يَعتَقِدُ مَرقيون أَنَّ يَهوه هوَ اللهُ.

12. يَعتَقِدُ مَرقيون أَنَّ اللهَ هوَ اللهُ.[93]

فالجُملَتانِ (11) و(12) لا تَختَلِفانِ إلّا في إحلالِ 'يَهوه' مَحلَّ 'الله'، بيدَ أَنَّ الجُملَةَ (11) كاذِبَةٌ والجُملَةَ (12) صادِقَةٌ. ويُظهِرُ هذا، استِنادًا إلى ما يَقولُهُ جونستن، أَنَّ 'يَهوه' لا يُمكِنُ أن يَكونَ مَعناهُ هوَ مَعنَى 'الله' نَفسَهُ. ذلكَ بِأنّا لَو افترَضْنا أَنَّ يَهوه هوَ اللهُ لَكانَ مَرقيون قَد ارتَكَبَ خَطأً لاهوتِيًا بِاعتِقادِهِ أَنَّ يَهوه ليسَ هوَ اللهَ، لكِن لا يُمكِنُ اتِّهامُهُ بِاعتِقادِ أَنَّ اللهَ ليسَ هوَ اللهَ، وهذا ما سيُمَثِّلُ تَخَبُّطًا لُغَوِيًا عَبَثِيًا. بيدَ أَنَّ جونستن يَعرِضُ ما يُمَثِّلُ مُشكِلَةً حَقيقيَّةً لِلنَّظَرِيَّةِ المِلْيانِيَّةِ في الأَسماءِ كما لَو أَنَّها سبَبٌ لاعتِقادِ أَنَّ 'الله' ليسَ اسمًا. ويُعَدُّ الاعتِراضُ نُسخَةً مِن الاعتِراضِ السّابِقِ على المِلْيانِيَّةِ: أَنَّ تَبادُلَ الأَسماءِ المُشتَرَكَةِ الإحالَةِ المُضَمَّنَةِ في صِفاتٍ مَوقِفِيَّةٍ قَضَوِيَّةٍ يُمكِنُ أن يُوَلِّدَ تَغَيُّرًا في قيمَةِ صِدقِ هذهِ الصِّفاتِ. فهذا الاعتِراضُ إذَن لا يَتَعَلَّقُ تَعَلُّقًا خاصًا بِالإحالَةِ *الدِّينِيَّةِ* ولا يُقَدِّمُ سَبَبًا لاعتِقادِ أَنَّ 'الله' ليسَ اسمًا أَفضَلَ مِن سَبَبِ اعتِقادِ أَنَّ 'جورج أورويل' و'إيرِك بلير' لَيسا اسمَيْنِ.

= في المَخطوطاتِ العِبرِيَّةِ، حُشِرَتْ أحرُفُ كلِمَةِ (أدوناي) في الحُروفِ المُقَدَّسَةِ. ومُنذُ القَرنِ السّادِسَ عَشَرَ، استَقَرَّت الكلمَةُ المُوَلَّدَةُ (يَهوه) بإدماجِ الأحرُفِ المُتَحَرِّكَةِ والأحرُفِ السّاكِنَةِ. ويُعتَقَدُ عُمومًا أَنَّ النُّطقَ الأصليَّ كانَ (يَهوه) أو (جيهوفه)، ويُستَعمَلُ كِلا هذَيْنِ الشَّكلَيْنِ في أعمالِ الدّارِسِينَ. [المُترجِم]

وتُذَكِّرُنا مُشكِلَةُ استِبدالِ الأسماءِ المُشتَرَكَةِ الإحالَةِ بِأنَّهُ على الرَّغمِ مِن جَميعِ الصُّعوباتِ التي تَبدو عَصِيَّةً على التَّذليلِ والتي تَكتَنِفُ الوَصفِيَّةَ، تَظَلُّ الاعتِراضاتِ على المِلْيانِيَّةِ التي أُثيرَتْ مِن قَبلُ غَيرَ مُجابٍ عنها. وقَد سُخِّرَ قَدْرٌ كبيرٌ مِمّا كُتِبَ حَديثًا في فَلسَفَةِ اللُّغَةِ لِمُعالَجَةِ هذهِ الاعتِراضاتِ. وثَمَّةَ مُحاوَلَةٌ واعِدَةٌ لِحَلِّ مُشكِلَةِ استِبدالِ الأسماءِ في النِّسَبِ المَوقِفِيَّةِ القَضَوِيَّةِ تَعتَمِدُ على التَّفريقِ بينَ مَضمونِ الجُملَةِ وما تُوحي بِهِ أو تتضَمَّنُهُ (Salmon, 1986)[6]. فَلْنَأخُذ المِثالَ السّابِقَ المُتَعلِّقَ بِاعتِقادِ لويز لَيْن بِشَأنِ سوبَرمان. فَإذا لَم يَكُن لاسمَيْ 'سوبَرمان' و'كلارك كنت' مَضمونٌ وَصفِيٌّ وكانَ سوبَرمان وكلارك كنت شَخصًا واحِدًا، فالذي يَبدو أنَّ الجُملَتَيْنِ (7) و(8) لا بُدَّ أن تُخبِرا بِشَيْءٍ واحِدٍ. ويَستَتبِعُ التَّأويلُ بِطَريقَةِ مِلْ أنَّ كِلتا الجُملَتَيْنِ صادِقَةٌ وأنَّ لويز لَيْن تَعتَقِدُ حَقًّا أنَّ كلارك كنت يُمكِنُهُ التَّحَرُّكُ بِأسرَعَ مِن الإطلاقَةِ المُسرِعَةِ. فَلِمَ تَبدو الجُملَةُ (8) كاذِبَةً إذَن؟ سَبَبُ ذلكَ أنَّها تتضَمَّنُ جُملَةً مُختَلِفَةً هيَ كاذِبَةٌ. فالجُملَةُ (8) تتضَمَّنُ أنَّ لويز لَيْن تُقِرُّ بِالقَضِيَّةِ التي مُفادُها أنَّ كنت يَتَحَرَّكُ بِأسرَعَ مِن الإطلاقَةِ المُسرِعَةِ، حَيثُ يُقَدِّمُ كنت مُتَنَكِّرًا بِشَخصِيَّةِ مُراسِلٍ صَحَفِيٍّ رَقيقٍ لِصَحيفَةِ *دَيلي بلانِت* *Daily*

(6) ثَمَّةَ اتِّجاهٌ دِفاعِيٌّ بارِزٌ آخَرُ يَرَى أنَّ أفعالَ المَوقِفِ القَضَوِيَّةَ كالفِعلِ *يَعتَقِدُ* *believe* يَنبَغي أن تُؤَوَّلَ على أنَّها تَنطَوي على مُكَوِّنٍ يَتَحَسَّسُ نَظرَةَ المُعتَقِدِ بِشَأنِ المَضمونِ القَضَوِيِّ الذي يُقالُ لِيُعتَقَدَ. فالجُملَةُ (11)، على سبيلِ المِثالِ، تُحَدِّدُ عَلاقَةً بينَ مَرقيون، والقَضِيَّةِ التي مُفادُها أنَّ يَهوه هوَ اللهُ، و'مُكَوِّنٍ غَيرِ مُفصَحٍ عَنهُ' أيضًا يتضَمَّنُ طَريقَةَ مَرقيون في التَّفكيرِ في القَضِيَّةِ ويَشتَمِلُ على طَريقَتِهِ في تَصَوُّرِ يَهوه واللهِ. فما دامَ مَرقيون يتَصَوَّرُ يَهوه واللهَ بِطَريقَتَيْنِ مُختَلِفَتَيْنِ إذ يتصَوَّرَ الأوَّلَ على أنَّهُ اللهُ الخاصُّ بِالعَهدِ القَديمِ والثّانِيَ على أنَّهُ اللهُ الخاصُّ بِالعَهدِ الجَديدِ، فبِإمكانِنا أن نَكشِفَ عَن سَبَبِ حِيازَةِ الجُملَتَيْنِ (11) و(12) قيمَتَيْ صِدقٍ مُختَلِفَتَيْنِ: فلِلمَوقِفَيْنِ القَضَوِيَّيْنِ كِلَيْهِما المُعتَقِدُ نَفسُهُ، والمَضمونُ القَضَوِيُّ نَفسُهُ، لكِنَّ لَهُما طَريقَتَيْنِ مُختَلِفَتَيْنِ لِتَمثيلِ القَضِيَّةِ، لِذلكَ لا تَعني العِبارَتانِ التَّقريرِيَّتانِ الشَّيْءَ نَفسَهُ ومِن المُمكِنِ أن تَختَلِفَ قيمَتا صِدقِهِما تَبَعًا لِحُدوسِنا. وتُسَمّى هذهِ أحيانًا *النَّظَرِيَّةَ التَّأشيرِيَّةَ الخَفِيَّةَ* *hidden indexical theory*، لأنَّها تُقَدِّمُ مُكَوِّنًا لِلمَواقِفِ القَضَوِيَّةِ يَختَلِفُ بِاختِلافِ السِّياقِ (أي طَريقَةِ تَفكيرِ المُعتَقِدِ في القَضِيَّةِ) ولا يُعَبَّرُ عنهُ صَراحَةً في الجُملَةِ. يُنظَر: Crimmins (1992).

Planet. لكِن مِن الواضِحِ أنَّ هذهِ الدَّعوَى المُضَمَّنَةَ كاذِبَةٌ: فلويز لا تُقِرُّ بِالقَضِيَّةِ حينَ تُقَدَّمُ بِالصِّفَةِ التَّنَكُّرِيَّةِ المُقَدَّمَةِ في الجُملَةِ (8). ويُمكِنُ القَولُ على العُمومِ إنَّهُ استِنادًا إلى هذا الدِّفاعِ عن المِلْيانِيَّةِ يُمكِنُ تَفسيرُ حالاتِ الاستِبدالِ المُشكِلَةِ بِأنّا نَخلِطُ بينَ القَضِيَّةِ التي المُعَبَّرِ عنها بِالجُملَةِ المُتَعلِّقَةِ بِالمَواقِفِ القَضَوِيَّةِ وما يَتَضَمَّنُهُ القَولُ مِن نَظرَةِ المُعتَقِدِ إلى دَعوَى التَّطابُقِ هذهِ.

ويُمكِنُ تَطبيقُ هذهِ النُّقطَةِ نَفسِها على مِثالِ مَرقيون. فإذا كانَ يَهوه هوَ اللهَ، كانَ مَرقيون بِاعتِقادِهِ أنَّ اللهَ هوَ اللهُ مُعتَقِدًا أيضًا أنَّ يَهوه هوَ اللهُ. وسببُ كَونِ الجُملَةِ (12) صادِقَةً في حينِ أنَّ الجُملَةَ (11) تَبدو كاذِبَةً هوَ أنَّ الجُملَةَ [94] (11) تتضَمَّنُ ما هوَ كاذِبٌ بِشَأنِ نَظرَةِ مَرقيون إلى الأمرِ، أي أنَّهُ يُقِرُّ بِما يَأتي:

13. يَهوه هوَ اللهُ.

على أنَّ الجُملَةَ (11) لا تُخبِرُ - أي لَيسَتْ جُزءًا مِن مَضمونِ الجُملَةِ (11) - أنَّ مَرقيون نَفسَهُ يُقِرُّ بِالجُملَةِ (13). ويَستَتبِعُ هذا الدِّفاعُ عن المِلْيانِيَّةِ أنَّ مرقيون لا يَرتَكِبُ خَطأً لُغَوِيًّا عَبَثِيًّا بِذَهابِهِ إلى أنَّ يَهوه ليسَ هوَ اللهَ، على ما يَذهَبُ إليهِ جونستن. بَل يَكمُنُ خَطؤُهُ في إخفاقِهِ في الحُصولِ على النَّظرَةِ الصَّحيحَةِ إلى اللهِ: إنَّهُ يُخفِقُ في تَمييزِ اللهِ المُتَخَفِّي في صُورَةِ اللهِ الذي ظَهَرَ لِمُوسَى[7].

وتَظَلُّ الطَّريقَةُ المُثلَى لِمُعالَجَةِ الاعتِراضاتِ على الصُّوَرِ الحَديثَةِ لِلمِلْيانِيَّةِ أو لِمَدَى إمكانِ الإجابَةِ عنها مِن المَوضوعاتِ الخِلافِيَّةِ في فَلسَفَةِ اللُّغَةِ. ولا غَرابَةَ في أنَّهُ كانَتْ ثَمَّةَ مُحاوَلاتٌ أيضًا لإحياءِ النَّظريّاتِ الوَصفِيَّةِ لِلإحالَةِ، وإن قُدِّمَتْ

---

(7) اتَّخَذَ سَوْمز Soames (2002) مُقارَبَةً شَديدَةَ التَّعَلُّقِ بما نَحنُ بِصَدَدِهِ هُنا. على أنَّ سَوْمز يَسمَحُ بِأن يَكونَ لِبَعضِ الأسماءِ مَضمونٌ وَصفِيٌّ، وليسَ مِن الواضِحِ ما يُمكِنُ أن يَكونَ مَوقِفَهُ مِن اسمِ 'الله'؛ فإذا كانَ لِـ 'الله' مَضمونٌ وَصفِيٌّ فَلَم يَكُن سَوْمز لِيَتَبَنَّى هذهِ الاستراتيجيا في هذهِ الحالَةِ لأنَّ الجُملَتَيْنِ (11) و(12) لَن تَكونا مُعَبِّرَتَيْنِ عن القَضِيَّةِ نَفسِها.

بِصُورَةٍ مُختَلِفَةٍ عن النَّظريَّتَيْنِ اللَّتَيْنِ تَقَدَّمَ بِهِما فريجه ورَسِل. وقَد دافَعَ كنت باك Kent Bach* (2002) عن صُورَةٍ حديثَةٍ لِلوَصفِيَّةِ مُثيرَةٍ لِلاهتِمامِ بِخاصَّةٍ تُدعَى *النَّظَرِيَّةَ الوَصفِيَّةَ الاسمِيَّةَ* *nominal description theory* (NDT)(8). وتَذهَبُ هذهِ النَّظريَّةُ إلى أنَّ مَضمونَ اسمِ العَلَمِ ع هوَ 'حامِلُ 'ع'' أو 'الشَّيْء المُسَمّى 'ع''. فالاسمُ 'يَهوه' إذَن، على سبيلِ المِثالِ، يَنبَغي أن يُؤَوَّلَ بِـ 'حامِل 'يَهوه''، والاسمُ 'كنت كلارك' يَنبَغي أن يُؤَوَّلَ بِـ 'حامِل 'كنت كلارك''، وهكذا دَوالَيْكَ. وبِخِلافِ النَّظريّاتِ الوَصفِيَّةِ الأُخرَى، لا تَعُدُّ النَّظَرِيَّةُ الوَصفِيَّةُ الاسمِيَّةُ الاسمَ مُعَبِّرًا عن أيَّةِ صِفاتٍ جَوهَرِيَّةٍ تُعَيِّنُ الشَّيْءَ المُسَمّى. فَـ 'كورت غودِل Kurt Gödel'**، على سبيلِ المِثالِ، لا يُكافِئُ 'المَنطِقِيَّ الذي أثبَتَ عَدَمَ اكتِمالِ الحِسابِ'، ولا يَعتَمِدُ الاستِعمالُ الجَيِّدُ لِهذا الاسمِ على رَبطِ المُتَحَدِّثِ وَصفًا صَحيحًا بِالاسمِ أو أيَّةِ صِفَةٍ جوهَرِيَّةٍ البَتَّةَ. وبِذلكَ تَتَجَنَّبُ النَّظَرِيَّةُ الوَصفِيَّةُ الاسمِيَّةُ حُجَّتَي الجَهلِ والخَطَإِ. على أنَّ الاستِعمالَ الصَّحيحَ لِلاسمِ يَقتَضي تَميِيزَ المُتَحَدِّثِ الصِّفَةَ الاسمِيَّةَ، التي تُحَدِّدُها النَّظَرِيَّةُ الوَصفِيَّةُ الاسمِيَّةُ، وهيَ أنَّ كورت غودِل هوَ حامِلُ 'كورت غودِل': فليسَ بِوُسعِ الشَّخصِ أن يَستَعمِلَ الاسمَ 'كورت غودِل' استِعمالًا جَيِّدًا لِلإحالَةِ على كورت غودِل مِن غَيرِ مَعرِفَةِ أنَّ هذا الاسمَ يُسَمِّيهِ. وتَتَجَنَّبُ النَّظَرِيَّةُ الوَصفِيَّةُ الاسمِيَّةُ أيضًا مُشكِلَةَ استِبدالِ الأسماءِ المُشتَرَكَةِ الإحالَةِ. فما دامَ 'الله' يُعَبِّرُ عن صِفَةِ حَملِ الاسمِ 'الله' وما دامَ 'يَهوه' يُعَبِّرُ عَن صِفَةٍ مُمَيِّزَةٍ هيَ حَملُ الاسمِ 'يَهوه'، فالنَّظرِيَّةُ لا تَقتَضي أن تَكونَ الجُملَتانِ (11)

---

* كنت باك (1943–...م). فَيلَسوفٌ أمريكِيٌّ. أُستاذُ الفَلسَفَةِ في جامِعَةِ وِلايَةِ سان فرانسِسكو. تَشمَلُ مَجالاتُ اهتِماماتِهِ البَحثِيَّةِ الأساسِيَّةِ فَلسَفَةَ اللُّغَةِ، واللِّسانِيّاتِ، ونَظَرِيَّةَ المعرِفَةِ. مِن مُؤَلَّفاتِهِ: (التَّواصُلُ اللُّغَوِيُّ والأفعالُ الكَلامِيَّة)؛ و(الفِكرُ والإحالَة). [المُتَرجِم]

(8) يُنظَرُ أيضًا: Katz (1994).

** كورت غودِل (1906–1978م). مَنطِقِيٌّ، ورِياضِيٌّ، وفَيلَسوفٌ نَمساوِيٌّ أمريكِيٌّ. عُدَّ هوَ وأرسطو وتارسكي وفريجه أهَمَّ مَناطِقَةِ التَّاريخ، وكانَ لَهُ أثَرٌ كَبيرٌ في التَّفكيرِ العِلمِيِّ والفَلسَفِيِّ في القَرنِ العِشرينَ. بَرهَنَ عَلى عَدَمِ اكتِمالِ الأنساقِ الشَّكلِيَّةِ أي الأنساقِ التي تَفتَرِضُ الصِّياغَةَ الشَّكلِيَّةَ لِعِلمِ حِسابِ الأعدادِ الطَّبيعِيَّةِ. [المُتَرجِم]

و(12) مُتكافِئتَيْنِ ولا أن تَكونَ الأَسماءُ المُختَلِفَةُ لِلشَّيءِ الواحِدِ قابِلَةً، في العُمومِ، لِلتَّبادُلِ في السِّياقاتِ المَوقِفِيَّةِ القَضَويَّةِ.

وقَد تَبدو النَّظَرِيَّةُ الوَصفِيَّةُ الاسمِيَّةُ بادِيَ الرَّأيِ حَلًّا مُخيِّرًا لِلصُّعوباتِ التي تُوَلِّدُها الوَصفِيَّةُ لأَنّا حينَ نَستَعمِلُ الاسمَ س، لا نَعُدُّهُ عُمومًا حائزًا لِمَعنى 'حامِلِ س'. على أَنَّ النَّظَرِيَّةَ الوَصفِيَّةَ الاسمِيَّةَ نَظَرِيَّةٌ تتعلَّقُ بِمَعاني الأَسماءِ ولَيسَتْ نَظريَّةً لِما نُفَكِّرُ فيهِ [95] أو نُوصِلُهُ حينَ نَستَعمِلُ الاسمَ. وتَستَتبِعُ النَّظَرِيَّةُ الوَصفِيَّةُ الاسمِيَّةُ أَنَّ مَعنَى جُملَةِ 'اللهُ صالِحٌ' هوَ 'حامِلُ 'الله' صالِحٌ'، لكِن ما يُوصَلُ وما يُفَكِّرُ فيهِ المُتَحَدِّثُ عندَ استِعمالِ هذهِ الجُملَةِ قَد يَكونُ مُقتَصِرًا على اللهِ ولا يتعلَّقُ بِحامِلِ اسمِ اللهِ. وحَتّى في هذهِ الحالَةِ، يُمكِنُ القَولُ إنَّ المُتَحَدِّثينَ يَستَعمِلونَ جُملَةً تتعلَّقُ بِحامِلِ اسمِ اللهِ مِن أَجلِ أَن يُوصِلوا شَيئًا مّا يتعلَّقُ بِاللهِ مُباشَرَةً. فبِإمكانِ المُتَحَدِّثينَ استِعمالُ جُمَلٍ لإيصالِ شَيْءٍ مّا سِوَى ما تُخبِرُ بِهِ الجُملَةُ إخبارًا صارِمًا.

فأَمامَنا إِذَن نظريَّتانِ واعِدَتانِ بِشَأنِ مَضمونِ الأَسماءِ، هُما النَّظَرِيَّةُ الوَصفِيَّةُ الاسمِيَّةُ وتَطويرٌ مُعَقَّدٌ لِلمِلْيانِيَّةِ، وكِلتاهُما تُقَدِّمُ خِياراتٍ يُمكِنُ الدِّفاعُ عنها لِفَهمِ مَعنَى 'الله'. والذي أَعتَقِدُهُ أَنَّ النَّظَرِيَّةَ الوَصفِيَّةَ الاسمِيَّةَ تُقَدِّمُ أَكثَرَ المُعالَجاتِ إِقناعًا وخُلُوًّا مِن الإشكالاتِ لِمَضمونِ الأَسماءِ مِن بينَ ما يَتَوافَرُ حالِيًّا مِن المُعالَجاتِ. على أَنَّهُ ليسَ مِن الضَّروريِّ، في ما يتعلَّقُ بِأَغراضِ بَحثِنا هُنا، التَّوَصُّلُ إلى قَولٍ فَصلٍ بِشَأنِ هذَيْنِ الخِيارَيْنِ لأَنَّ آثارَهُما في اللُّغَةِ الدِّينِيَّةِ مُتَشابِهَةٌ. إذ يُلحَظُ أَنَّ كِلتا النَّظرِيَّتَيْنِ مُنسَجِمَةٌ معَ اللاهوتِ الأَبوفاتيكِيِّ: فَلا وُجودَ لِمَضمونٍ وَصفِيٍّ لِـ 'الله' في النَّظَرِيَّةِ المِلْيانِيَّةِ، ولَيسَ لِلمَضمونِ الوَصفِيِّ أَيَّةُ صِفَةٍ ذاتِيَّةٍ لِلّهِ في النَّظَرِيَّةِ الوَصفِيَّةِ الاسمِيَّةِ. على أَنَّهُ يَنبَغي أن يُلحَظَ أَنَّ كِلتا النَّظريَّتَيْنِ تَتطلَّبُ مَزيدًا مِن الحَذَرِ عندَ مُناقَشَةِ الصِّفاتِ الإلهِيَّةِ: فإن أَمكَنَ وُجودُ صِفاتٍ لِلّهِ، ولَو كانَتْ صِفاتٍ ضَرورِيَّةً، فإنَّها لَيسَتْ جُزءًا مِن تَعريفِ مَعنَى 'الله'.

ولا شَكَّ في أَنَّ تَبَنِّيَ إحدَى هاتَيْنِ الأُطروحَتَيْنِ لِمَعنَى 'الله' لا يَمنَعُ تَقديمَ 'الله' بِوَصفِهِ اسمًا وَصفِيًّا. أَي إنَّ بِالإمكانِ استِعمالَ 'الله' اسمًا لِحامِلٍ يَفي

بِمُقتَضَياتِ وَصفٍ مُعَيَّنٍ، وهذهِ أحيانًا هيَ الطَّريقَةُ التي يُقَدَّمُ بِها الاسمُ في النِّقاشِ الفَلسَفِيِّ. ومِن أمثِلَةِ الاسمِ الوَصفِيِّ 'جاك السَّفّاحُ Jack the Ripper'. فهذا الاسمُ يُسَمِّي شَخصًا (مَهما يَكُنْ) قَتَلَ خَمسَ نِساءٍ في وايتشابل Whitechapel في عامِ 1888. فإن تَبَيَّنَ لاحِقًا أنَّ الشَّخصَ الذي كُنّا نعتَقِدُ أنَّهُ جاك السَّفّاحُ لَيسَ هوَ هذا القاتِلَ، فسنَكُفُّ عن اعتِقادِ أنَّ هذا الشَّخصَ هوَ جاك السَّفّاحُ. فالاسمُ الوَصفِيُّ 'جاك السَّفّاحُ' يَتبَعُ الشَّخصَ الذي يَفي بِمُقتَضَياتِ الوَصفِ المَربوطِ بِهِ. بيدَ أنَّ 'الله' لا يُستَعمَلُ عُمومًا في الخِطابِ الدِّينِيِّ اسمًا وَصفِيًّا بَل يُستَعمَلُ اسمًا لِلمَوجودِ الذي لَهُ اتِّصالٌ مُباشِرٌ أو غَيرُ مُباشِرٍ بِحَياةِ المُؤمِنينَ وخِبرَتِهِم. فقَد يَرَى المُؤمِنونَ أنَّ لِلّهِ صِفاتٍ مُعَيَّنَةً، لكِن ليسَ في مَعنَى 'الله' ما يَضمَنُ أن يَكونَ ما يُحيلونَ عليهِ حائزًا فِعلًا لِهذهِ الصِّفاتِ.

الإحالَةُ على الله

الشِّقُّ الآخَرُ لِمُشكِلَةِ الإحالَةِ هوَ تَفسيرُ كَيفِيَّةِ نَجاحِ اسمِ 'الله' في تَمييزِ اللهِ إن لَم يُنجِزْ ذلكَ المَضمونُ الوَصفِيُّ [96] لاسمِ العَلَم. على أنَّ اللاوَصفِيِّينَ قد طَوَّروا إجابَةً عَن هذا السُّؤالِ. فإذا كانَتِ المِلْيانِيَّةُ لَم تُقَدِّمْ سِوَى نظرِيَّةٍ لِمَضمونِ أسماءِ الأعلامِ، فقد عَزَّزَ دونِلن (1972) وكريبكه (1980) نَقدَهُما لِلوَصفِيَّةِ بِنَظرِيَّةٍ سَبَبِيَّةٍ لِكَيفِيَّةِ ارتِباطِ الأسماءِ بِمَراجِعِها. وقَد لَقِيَتْ هذهِ النَّظرِيَّةُ قَبولًا واسِعًا في ما بَعدُ.

ولإيضاحِ هذهِ النَّظَرِيَّةِ، لِنَنظُرْ في المِثالِ الذي قَدَّمَهُ صول كريبكه وهوَ اسمُ 'يونُس Jonah'. فأوصافُ يونُسَ التي يُمِدُّنا بِها الكِتابُ المُقَدَّسُ تَتضَمَّنُ أنَّهُ كانَ نَبيًّا مِن أنبياءِ بَني إسرائيلَ، وأنَّ اللهَ أمَرَهُ بِالذَّهابِ إلى مَدينَةِ نِينَوَى، وأنَّ حُوتًا أو سَمَكَةً كَبيرَةً قَد ابتَلَعَتْهُ وبَقِيَ في جَوفِها ثَلاثَةَ أيّامٍ. ويَدعونا كريبكه إلى النَّظَرِ في ما يُمكِنُ أن نَجِدَهُ إذا اكتَشَفْنا حَقيقَةَ يُونُسَ التّأريخِيِّ. فقد يَتَبَيَّنُ لَنا أنَّهُ كانَ ثَمَّةَ شَخصٌ حَقيقِيٌّ ارتَكَزَتْ عليهِ قِصَصُ الكِتابِ المُقَدَّسِ، شَخصٌ عاشَ حَياةً أكثَرَ اعتِيادِيَّةً، ولَم يَكُنْ قَد ابتَلَعَهُ الحُوتُ حَقًّا، ولَم يَكُن نَبِيًّا مِن أنبِياءِ بَني

إسرائيلَ، ولَم يَأمُرْهُ اللهُ بِالذَّهابِ إلى مَدينَةِ نِينَوَى. فَعَلى الرَّغمِ مِن أَنَّ أوصافَ الكِتابِ المُقَدَّسِ (والأوصافَ التي نَربِطُها بِالاسم) ستكونُ عِندَئذٍ كاذِبَةً، يُحيلُ الاسمُ على هذا الفَردِ. ويُمِدُّنا هذا بِمِثالٍ آخَرَ لِحُجَّةِ الخَطَإِ التي سَبَقَ أن نَظَرْنا فيها: فمِنَ المُمكِنِ أن يَكونَ وَصفُنا أو الوَصفُ العُنقوديُّ مُخطِئًا تَمامًا، ومَعَ ذلكَ يُمكِنُ أن يَنجَحَ الاسمُ المَربوطُ بِهِ في تَمييزِ مَوضوعِهِ. بيدَ أنَّ هذا المِثالَ يُوحي أيضًا بِأنَّ مَرجِعَ الاسمِ لا يُحَدِّدُهُ الرُّجوعُ إلى الأوصافِ المَربوطَةِ بِالاسمِ. بَل يَنبَغي اقتِفاءُ أثَرِ الفَردِ الذي أثارَ هذهِ القِصَصَ.

وتَذهَبُ *النَّظريَّةُ السَّبَبيَّةُ لِلإحالَةِ* إلى أنَّ الاسمَ يُربَطُ ابتِداءً بِمَرجِعِهِ مِن خِلالِ كَونِهِ يُسَمّى تَسمِيَةً فِعلِيَّةً – 'تَعميد ابتِدائيّ'، بِحَسَبِ تعبيرِ كريبكه. ويُعَدُّ التَّعميدُ الابتِدائيُّ مُتَضَمِّنًا تَضَمُّنًا نَمَطِيًّا لاتِّصالٍ إدراكِيٍّ بِالمَرجِعِ. فالشَّيْءُ يُسَمِّيهِ شَخصٌ يُدرِكُهُ ويُسَمِّيهِ، رُبَّما عَلى نَحوٍ استِعراضِيٍّ؛ وبِذلكَ تُرَسَّخُ إحالَةُ الاسمِ. ثُمَّ يُمَرَّرُ الاسمُ إلى أُناسٍ آخَرينَ، رُبَّما لا يَكونُ لَدَى كَثيرٍ مِنهُم اتِّصالٌ إدراكِيٌّ مُباشِرٌ بِالمَرجِعِ. ويَبقَى الاستِعمالُ اللاحِقُ لِلاسمِ بِصورَتِهِ التي مُرِّرَ بِها عَبرَ تَجَمُّعاتِ المُتَكَلِّمينَ مَوصولًا بِالمَرجِعِ بِسِلسِلَةٍ سَبَبِيَّةٍ تَرجِعُ إلى التَّعميدِ الابتِدائيِّ. وبِمُرورِ الزَّمَنِ، رُبَّما لا يَعودُ لِلشَّيْءِ وُجودٌ، لكِنَّ استِعمالَ الاسمِ يَستَبقي صِلَتَهُ بِالمَرجِعِ مِن خِلالِ هذا الرَّبطِ السَّبَبِيِّ بِحَدَثِ التَّسمِيَةِ الأصلِيِّ. ويَبقَى الارتِباطُ بِالمَرجِعِ ولَو كانَتِ الأوصافُ التي يَربِطُها المُتَحَدِّثونَ بِهِ ناقِصَةً أو مُخطِئَةً.

وتُمِدُّنا النَّظريَّةُ السَّبَبيَّةُ لِلإحالَةِ بِأُطروحَةٍ جَذّابَةٍ لِكَيفِيَّةِ إمكانِ 'تَرسيخ' الاسمِ في المَرجِعِ مِن غَيرِ أن يَكونَ لَهُ مَضمونٌ وَصفِيٌّ. ثُمَّ إنَّ هذا يَبدو قابِلًا لِلتَّطبيقِ على 'الله' على نَحوٍ صَريحٍ. وفي مُواجَهَةِ موسى لِلّهِ حَدَثَ شَيْءٌ مّا يُشبِهُ احتِفالَ تَسمِيَةٍ. [97]

> فقالَ مُوسَى لِلّهِ: 'إذا ذَهَبْتُ إلى بَني إسرائيلَ وقُلْتُ لَهُم: ''إلهُ آبائكُم أرسَلَني إليكُم''، فإن سَألوني: ''ما اسمُهُ؟''، فماذا أُجيبُهُم؟'. فقالَ اللهُ لِمُوسَى: 'أنا هُوَ الذي هُوَ'. هكذا تُجيبُ بَني إسرائيلَ: 'هُوَ الذي هُوَ أرسَلَني إليكُم''. (سِفرُ الخُروج 3، 13–15)

على أنَّ تبَنّيَ النَّظريَّةِ السَّببيَّةِ يقتضي اتِّصالًا سَببيًّا بينَ اللهِ والبَشَرِ، يكونُ البَشَرُ بِهِ قادِرينَ على تَسمِيَةِ اللهِ. وقَد دافَعَ أولستن (1991) دِفاعًا مُفَصَّلًا عن هذا المَنهَجِ لِترسيخِ إحالَةِ اللهِ. إذ يَرَى أولستن أنَّ اللهَ لا يُسَمّى حَرفِيًّا عَلى نَحوٍ استِعراضِيٍّ بَل يُمَيَّزُ بِالانتِباهِ إلى كِيانٍ مُدرَكٍ كما يَحدُثُ في التَّجرِبَةِ الدِّينِيَّةِ؛ فحَدَثُ التَّسمِيَةِ هذا يَكونُ مَربوطًا رَبطًا سَبَبِيًّا بِمُتَحَدِّثِينَ آخَرينَ مِن خِلالِ عِبادَةٍ جَماعِيَّةٍ وفَعّالِيّاتٍ أُخرَى. ولا شَكَّ في أنَّهُ قَد تُوجَدُ عِدَّةُ أحداثِ تَسمِيَةٍ كُلَّما اكتَسَبَ أُناسٌ آخَرونَ تَعَرُّفًا تَجريبِيًّا مُباشِرًا لِلّهِ. والتَّقويمُ الإضافِيُّ لِذلكَ سيُطَوِّحُ بِنا بَعيدًا جَدًّا عن المَوضوعِ ويَجعَلُنا نَخوضُ في مَسائلَ ميتافيزيقيَّةٍ تتعلَّقُ بِالتَّفاعُلاتِ السَّبَبِيَّةِ بينَ اللهِ والبَشَرِ. على أنَّ علينا أن نَلحَظَ أنَّ تَبَنّيَ نظريَّةٍ سَبَبِيَّةٍ لِلإحالَةِ بِشَأنِ 'الله' يَفرِضُ التِزامًا ميتافيزيقيًّا إضافِيًّا هوَ إمكانُ التَّوَصُّلِ إلى اتِّصالٍ إدراكِيٍّ بِاللهِ. وقَد يَتَقَبَّلُ الأبوفاتيكِيُّونَ، في أَقَلِّ تَقديرٍ، هذا الالتِزامَ بِرَحابَةِ صَدرٍ. مِثالُ ذلكَ أنَّ دينِس يَرَى أنَّ بِالإمكانِ تَجرِبَةَ الاتِّحادِ بِاللهِ (1987, p. 109) وأنَّ مُوسَى قَد عَرَفَ هذهِ التَّجرِبَةَ[9].

ومِن المُغري إكمالُ أُطروحَةِ الإحالَةِ بِالنَّظريَّةِ السَّبَبِيَّةِ: إذ يُحيلُ 'الله' على المَوجودِ الذي يُمَيِّزُهُ التَّعميدُ الابتِدائيُّ. على أنَّهُ على الرَّغمِ مِن مَقبولِيَّةِ النَّظريَّةِ السَّبَبِيَّةِ يَبقَى لَدَينا حَدْسٌ يُلِحُّ بِعِنادٍ على أنَّهُ في حالَةِ 'الله'، رُبَّما بِتَفَرُّدٍ عن سائرِ الأسماءِ، تُؤَدِّي المَعلوماتُ الوَصفيَّةُ دَورًا أساسِيًّا في هذهِ العمليَّةِ. ويُظهِرُ ذلكَ ما لَدَينا مِن حُدوسٍ مُتَضارِبَةٍ بِشَأنِ النَّمَطِ الآتي لِلحالَةِ. فَلْنَفتَرِضْ أنَّ جَماعَةً مِن المُؤمِنينَ أصبَحَتْ مُقتَنِعَةً بِأنَّ المَوجودَ الذي كانَت تَدعوهُ 'الله' هوَ في الواقِعِ حاقِدٌ وغَيرُ كامِلٍ. فَماذا سيَكونُ رَدُّ فِعلِ أفرادِها؟ مِن رُدودِ الأفعالِ المُتَوَقَّعَةِ تَسليمُهُم بِأنَّهُم كانوا يَستَعمِلونَ 'الله' لِتَسمِيَةِ مَوجودٍ حاقِدٍ وغَيرِ كامِلٍ وأنَّهُم ارتَكَبوا خَطَأً جَسيمًا. فَرَدُّ الفِعلِ هذا يَنسَجِمُ معَ النَّظريَّةِ السَّبَبِيَّةِ لِلإحالَةِ. على أنَّ

(9) لا يَمنَحُ تَأويلُ تيرنَر لِوِجهَةِ دينِس التَّجارِبَ البَشَرِيَّةَ المتعلِّقَةَ بِاللهِ أيَّ دَورٍ (1995, pp. 4-8). فإن كانَ تيرنَر على حَقٍّ، فرُبَّما يَكونُ الاعتِراضُ الإحالِيُّ على الأبوفاتيكِيَّةِ الذي كُنّا نَبحَثُ فيهِ غَيرَ قابِلٍ لأن يُحَلَّ عندَ دينِس حَلًّا يُوافِقُ التِزاماتِهِ اللاهوتِيَّةَ المُوَسَّعَةَ.

علينا أن نتوقَّعَ رَدَّ فِعلٍ مُختَلِفًا أيضًا: فقد يَستَنتِجونَ أنَّ اللهَ غَيرُ مَوجودٍ حَقًّا أو أنَّهم قَد أساؤُوا تَعيينَ اللهِ؛ فقد يُحاوِلونَ، على سبيلِ المِثالِ، إعادَةَ عَزوِ الاسمِ إلى مَوجودٍ آخَرَ. وَرَدُّ الفِعلِ هذا أكثَرُ انسِجامًا معَ تَسمِيَةِ الاسمِ التي يُحَدِّدُها الوَصفُ. أفَعَلَينا إذَن، ولَو لَم نَكُن مُقِرِّينَ بِنَظرِيَّةٍ وَصفِيَّةٍ لِلأسماءِ، أن نَجِدَ [98] دَورًا لِلأوصافِ أكبَرَ مِن الدَّورِ الذي تُقَدِّمُهُ اللاوَصفِيَّةُ والنَّظرِيَّةُ السَّبَبِيَّةُ لِلإحالَةِ؟ فَلْنَنظُرْ في مُحاوَلَتَيْنِ حَديثَتَيْنِ لِتَعديلِ النَّظرِيَّةِ السَّبَبِيَّةِ مِن خِلالِ تَقديمِ مَعلوماتٍ بِشَأنِ تَحديدِ حامِلِ 'الله'.

نَظَرِيّاتٌ هَجينَة

مِن الاعتِراضاتِ الشّائعَةِ على النَّظرِيَّةِ السَّبَبِيَّةِ لِلإحالَةِ المُشكِلَةُ التي تَعتَرِضُ طَريقَها بِشَأنِ تَفسيرِ كَيفِيَّةِ تَغييرِ الأسماءِ إحالَتَها. ومِن الأمثِلَةِ الجَيِّدَةِ لِذلكَ المِثالُ الذي قَدَّمَهُ غاريث إيفانز* Gareth Evans (1973) وهوَ التَّغَيُّرُ في إحالَةِ اسمِ 'مَدَغشقَر Madagascar'. فهذا الاسمُ كانَ يُحيلُ في الأصلِ على جُزءٍ مِن يابِسَةِ قارَةِ إفريقيا لكِنَّهُ يُحيلُ الآنَ على جَزيرَةٍ بَعيدَةٍ مِن السّاحِلِ الشَّرقِيِّ لِهذهِ القارَةِ. ومِن الواضِحِ أنَّ ماركو بولو Marco Polo** كانَ أوَّلَ ناطِقٍ بِهذا الاسمِ مُستَعمِلًا إيّاهُ لِلإحالَةِ على هذهِ الجَزيرَةِ. ولَم يَكُنْ قَصدُهُ (دَعُونا نَفتَرِضْ ذلكَ) أن يُقَدِّمَ استِعمالًا جَديدًا لِـ 'مَدَغشقَر' بَل أساءَ تَأويلَ الاسمِ الذي وَرِثَهُ مِن مُتَكَلِّمِينَ

---

* غاريث إيفانز (1946–1980م). فَيلَسوفٌ بريطانيٌّ. لَهُ إسهاماتٌ أساسِيَّةٌ في المَنطِقِ، وفَلسَفَةِ اللُّغَةِ، وفَلسَفَةِ العَقلِ. أكثَرُ ما يُعرَفُ بِهِ كِتابُهُ الذي نُشِرَ بَعدَ وفاتِهِ (تَنَوُّعاتُ الإحالَة) والذي يُعالِجُ مُختَلِفَ أنواعِ الإحالَةِ عَلى الأشياءِ، ويَذهَبُ إلى وُجوبِ تَوافُرِ عَدَدٍ مِن الشُّروطِ لِتَحدُثَ الإحالَةُ. مِن آثارِهِ الأُخرى: (الصِّدقُ والمَعنى: مَقالاتٌ في عِلمِ الدَّلالَة)؛ و(بُحوثٌ مَجموعَة). [المُتَرجِم]

** ماركو بولو (1254–1324م). تاجِرٌ، ومُستَكشِفٌ، وكاتِبٌ إيطاليٌّ. وُلِدَ في البُندُقِيَّةِ، وكانَ هوَ وأبوهُ وعَمُّه من أوائلِ الغَربِيِّينَ الذينَ سَلَكوا طَريقَ الحَريرِ إلى الصِّينِ، وكانَتْ لَهُ عَلاقَةٌ بِقوبلاي خان أكبرِ مُلوكِ إمبراطورِيَّةِ المغولِ وحَفيدِ جنكيز خان. دَوَّنَ رِحلاتِهِ في كتابِهِ (رِحلات ماركو بولو). [المُتَرجِم]

آخَرِينَ. فالذي يَراهُ إيفانز أَنَّهُ إذا كانَتِ النَّظريَّةُ السَّبَبِيَّةُ لِلإحالَةِ صَحيحَةً فسَتَكونُ 'مَدَغشقَر' عِندَ ماركو بولو وعِندَ المُتَحَدِّثِينَ اللاحِقِينَ (ونَحنُ مِنهُم) مُحيلَةً فِعلِيًّا على يابِسَةِ قارَةِ إفريقيا. ومَرَدُّ ذلكَ إلى أَنَّ استِعمالَ الاسمِ يَرتَبِطُ سَبَبِيًّا بِالتَّسمِيَةِ الأَصلِيَّةِ لِبُقعَةٍ مِن اليابِسَةِ. على أَنَّ مِن الواضِحِ أَنّا نَستَعمِلُ 'مَدَغشقَر' لِلإحالَةِ على الجَزيرَةِ.

والحَلُّ الذي يُقَدِّمُهُ إيفانز لِهذهِ المُشكِلَةِ ومُشابِهاتِها مِن مُشكِلاتِ تَغَيُّرِ الإحالَةِ هوَ جَمعُ عَناصِرِ النَّظريَّتَيْنِ الإحالِيَّتَيْنِ السَّبَبِيَّةِ والوَصفِيَّةِ كِلتَيْهِما. إذ يَرى أَنَّ إحالَةَ اسمِ العَلَمِ، على النَّحوِ الذي يَستَعمِلُهُ بِهِ المُتَحَدِّثُ، هيَ المَصدَرُ السَّبَبِيُّ 'المُهَيمِنُ' مِن بينِ مَصادِرِ المَعلوماتِ الوَصفِيَّةِ التي يَربِطُها المُتَحَدِّثُ بِهذا الاسم. فالنَّظريَّةُ السَّبَبِيَّةُ، على ما يَرَى إيفانز، 'قَد أساءَتْ مَوضَعَةَ العَلاقَةِ السَّبَبِيَّةِ؛ إذ إنَّ العَلاقَةَ السَّبَبِيَّةَ المُهِمَّةَ تَكمُنُ بينَ حالاتِ تلكَ المُفرَدَةِ وأفعالِها ومَنظومَةِ المَعلوماتِ لَدَى المُتَحَدِّثِ - لا بينَ المُفرَدَةِ مُسَمّاةً بِاسمٍ واستِعمالِ المُتَحَدِّثِ الحالِيِّ لَها' (1973, p. 301). فَفي حالَةِ 'مَدَغشقَر' يَحدُثُ التَّحَوُّلُ الإحالِيُّ عندَ النُّقطَةِ التي يَكونُ فيها السَّبَبُ 'المُهَيمِنُ' مِن بينِ المَعلوماتِ التي يَربِطُها مُستَعمِلو الاسمِ بِهِ هوَ الجَزيرَةَ لا بُقعَةً مِن يابِسَةِ قارَةِ إفريقيا.

فنَظريَّةُ إيفانز تُفَسِّرُ كَيفِيَّةَ إمكانِ حُدوثِ التَّغَيُّرِ الإحالِيِّ معَ الاحتِفاظِ بِالمَزِيَّةِ الأَساسِيَّةِ لِلنَّظريَّةِ السَّبَبِيَّةِ، ذلكَ بِأَنَّ الارتِباطَ السَّبَبِيَّ بينَ الاسمِ ومَرجِعِهِ شَرطٌ ضَرورِيٌّ لِنَجاحِ الإحالَةِ. وهذهِ النَّظريَّةُ تتجَنَّبُ أَيضًا بَعضَ مَآزِقِ الوَصفِيَّةِ. مِثالُ ذلكَ أَنَّهُ على وَفقِ نَظريَّةِ إيفانز لَن تَكونَ ثَمَّةَ مُشكِلَةٌ بِشَأنِ عَدَمِ كِفايَةِ أَوصافِنا لِلمَرجِعِ إذ لَن يَتَطَلَّبَ الأَمرُ أن يَفِيَ المَرجِعُ بِمُقتَضَياتِ الأَوصافِ التي يَربِطُها المُتَحَدِّثُ بِالاسمِ، فكُلُّ ما هوَ مَطلوبٌ هوَ أن يَكونَ المَوضوعُ هوَ السَّبَبَ المُهَيمِنَ لِهذهِ الأَوصافِ. [99] ويُمكِنُ أَيضًا أن تَكونَ بَعضُ الأَوصافِ مُخطِئَةً، بِشَرطِ أن تَكونَ الأَوصافُ الكاذِبَةُ مُسَبَّبَةً كذلكَ عن الشَّيءِ الذي يُسَمِّيهِ الاسمُ. ولْنُسَمِّ هذهِ النَّظريَّةَ بِالنَّظريَّةِ *الهَجينَةِ*.

فهَل هذهِ النَّظريَّةُ الهَجينَةُ المُوَلَّدَةُ مِن النَّظريَّتَيْنِ السَّبَبِيَّةِ والوَصفِيَّةِ مُنصِفَةٌ لِحُدوسِنا بِشَأنِ 'الله'؟ أمّا ميغان سولِفان Meghan Sullivan* (2012) فتُدافِعُ عن المَذهَبِ الهَجينِ لكِنَّها تَرى أنَّ فَضيلَتَهُ الرَّئيسَةَ تكمُنُ في أنَّهُ يُفَسِّرُ كيفِيَّةَ إمكانِ أن يَتَعَرَّضَ 'الله' لإخفاقٍ إحاليٍّ لا لِتَحَوُّلٍ إحاليٍّ. وقَد طُوِّرَتِ النَّظريَّةُ على النَّحوِ الآتي. فإذا أَصبحَتِ المَعلوماتُ الوَصفِيَّةُ لِشَيءٍ مّا المُرتَبِطَةُ بِالاسمِ مُشَوَّهَةً تَمامًا بِالمَعلوماتِ الكاذِبَةِ التي لَم يُسَبِّبْها ذلكَ الشَّيءُ بَل نَجَمَتْ عن إساءاتِ فَهمٍ مُختَلِفَةٍ أو اختِلاقاتٍ مُتَعَمَّدَةٍ يَكُفُّ الشَّيءُ بِسببِها عن أن يَكونَ 'السَّبَبَ المُهَيمِنَ' لِتلكَ المَعلوماتِ، فستَكونُ النَّتيجَةُ على وَفقِ النَّظريَّةِ الهَجينَةِ إخفاقَ الاسمِ في الإحالَةِ. فَلْنَفترِضْ، على سبيلِ المِثالِ، أنَّ آدَمَ وحَوّاءَ في جَنَّةِ عَدنٍ قَد استَعمَلا اسمَ 'الله' لِلإحالَةِ على اللهِ. فالسَّبَبُ المُهَيمِنُ لِلمَعلوماتِ الوَصفِيَّةِ التي يَربِطانِها باسمِ 'الله' يُسَبِّبُهُ اللهُ، وهذا ما يَفي بِمُقتَضَياتِ مَعاييرِ إيفانز لِلإحالَةِ. على أنَّ اللهَ يَختَفي بَعدَ السُّقوطِ. فالذي تَذهَبُ إليهِ سولِفان استِنادًا إلى النَّظريَّةِ الهَجينَةِ أنَّ اسمَ 'الله' ظَلَّ حِينًا بَعدَ السُّقوطِ يَنجَحُ في الإحالَةِ على اللهِ لكِن بَعدَ مُضِيِّ مُدَّةٍ، إن أضافَ مُتَحَدِّثُونَ لامُبالُونَ أو خَبيثُونَ مَعلوماتٍ كاذِبَةً إلى مَنظومَةِ المَعلوماتِ المُرتَبِطَةِ بِاسمِ 'الله' فسَيَكُفُّ الاسمُ عن تَسمِيَةِ أيِّ شَيْءٍ. وبِذلكَ تَجعَلُ النَّظريَّةُ الهَجينَةُ لِلمَعلوماتِ الوَصفِيَّةِ دَورًا في تَسمِيَةِ 'الله' في الوَقتِ الذي تُفَسِّرُ فيهِ أيضًا حالاتِ التَّحَوُّلِ والإخفاقِ الإحالِيَّيْنِ التي تَبدو مُمكِنَةً في حالَةِ اسمِ 'الله' كما هيَ مُمكِنَةٌ في حالَةِ أيِّ اسمٍ آخَرَ.

على أنَّ مُشكِلَةَ التَّغَيُّرِ الإحاليِّ مِن المُشكِلاتِ التي يَنبَغي أن يَكونَ لَدى النَّظريَّةِ السَّبَبِيَّةِ لِلإحالَةِ المَصادِرُ اللازِمَةُ لِحَلِّها بِإقرارِ أنَّهُ غالِبًا مّا لا يَقتَصِرُ الأمرُ على وُجودِ 'تَعميدٍ ابتِدائيٍّ' واحِدٍ فَقَط لِلاسمِ. بَل إنَّ عددًا كَبيرًا مِن استِعمالاتِ

* ميغان سولِفان. أُستاذَةُ الفَلسَفَةِ في جامِعَةِ نوتردام. اهتِمامُها البَحثِيُّ يَنصَبُّ على المُشكِلاتِ الفَلسَفِيَّةِ المتعلِّقَةِ بِالزَّمَنِ، والتَّخطيطِ العَقلانيِّ، والاعتِقادِ الدِّينيِّ. لَها كِتاباتٌ في كَثيرٍ مِن الصُّحُفِ الفَلسَفِيَّةِ العامَّةِ، ولَها كِتابٌ مُهِمٌّ هوَ (تَحَيُّزاتُ الزَّمَنِ: نَظَرِيَّةٌ لِلتَّخطيطِ العَقلانيِّ والمُثابَرَةِ الشَّخصِيَّةِ). [المُتَرجِم]

الاسم لِتَمييزِ الشَّيءِ الذي يَكونُ المُتَحَدِّثونَ في حالَةِ اتِّصالٍ سَبَبِيٍّ-إدراكِيٍّ بِهِ تَتَضافَرُ لِتَجعَلَ هذا الشَّيءَ حامِلًا[10]. فاسمُ 'مَدَغَشقَر' الذي أساءَ ماركو بولو تَأويلَهُ كانَ يُسَمِّي عُرفِيًّا بُقعَةً مِن يابِسَةِ قارَةِ إفريقيا بِفَضلِ ارتِباطاتِهِ السَّبَبِيَّةِ بِاستِعمالاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ لِـ 'مَدَغَشقَر' لِتَسمِيَةِ هذهِ البُقعَةِ مارَسَها مُتَحَدِّثونَ لَهُم عَلاقاتٌ سَبَبِيَّةٌ-إدراكِيَّةٌ بِها. لكِن بَعدَ إساءَةِ الفَهمِ التي أبداها ماركو بولو، غالِبًا مّا باتَ هذا الاسمُ يُستَعمَلُ لِلحَديثِ عن الجَزيرَةِ. فَعِندَ هذهِ النُّقطَةِ حَدَثَ خَلطٌ في أعرافِ استِعمالِ هذا الاسمِ مِن خِلالِ رَبطِهِ سَبَبِيًّا بِمنطَقَتَيْنِ مُتَمايِزَتَيْنِ: فَبِإمكانِهِ أن يُسَمِّيَ الجَزيرَةَ أو بُقعَةً مِن اليابِسَةِ. وبَعدَ مُدَّةٍ أصبَحَ اسمُ 'مَدَغَشقَر' لا يُستَعمَلُ إلّا بِارتِباطٍ سَبَبِيٍّ-إدراكِيٍّ بِالجَزيرَةِ؛ وهذا هوَ نَمَطُ التَّسمِياتِ الذي وَرِثْناهُ مِن أسلافِنا. فقد تَبَيَّنَ أَنَّ إحداثَ تَوسيعٍ قَليلٍ لِلنَّظرِيَّةِ السَّبَبِيَّةِ كَفيلٌ بِجَعلِها قادِرَةً على تَفسيرِ ظاهِرَةِ التَّغَيُّرِ الإحالِيِّ المُحَفِّزَةِ لِلخِيارِ الذي جاءَ بِهِ إيفانز. [100]

وزِيادَةً على الشُّكوكِ المُتَعَلِّقَةِ بِالحُجَّةِ المُؤَيِّدَةِ لِلنَّظرِيَّةِ الهَجينَةِ، ثَمَّةَ أمرٌ آخَرُ هوَ أَنَّ هذهِ النَّظرِيَّةَ تَفرِضُ مَعاييرَ لِلإحالَةِ النّاجِحَةِ تَبدو مُشكِلَةً عندَ تَطبيقِها على الدِّينِ. فَلْنَنظُرْ، على سبيلِ المِثالِ، في قِصَّةِ آدَمَ وحَوّاءَ المَذكورَةِ آنِفًا. وَلْنَفتَرِضْ أَنَّ الذي حَدَثَ هوَ أَنَّ اللهَ كَفَّ عن الاتِّصالِ بِالبَشَرِ في مَرحَلَةٍ تَأريخِيَّةٍ مُبَكِّرَةٍ جِدًّا وأَنَّ المَعلوماتِ التي يَربِطُها المُؤمِنونَ بِـ 'الله' أُمِدَّتْ لاحِقًا بِقِصَصٍ عن اللهِ واتِّصالِ اللهِ بِالعالَمِ لَم يُسَبِّبْها اللهُ. فالذي يَنجُمُ عن الأخذِ بِالنَّظرِيَّةِ الهَجينَةِ، على ما يَبدو، أَنَّ الاسمَ الذي وَرِثْناهُ لا يُحيلُ على شَيْءٍ. أمّا النَّظرِيَّةُ السَّبَبِيَّةُ فَبِالضِّدِّ مِن ذلكَ، فهيَ مُتَسامِحَةٌ كُلِّيًّا معَ الأوصافِ الكاذِبَةِ بِشَرطِ الاحتِفاظِ بِالارتِباطِ السَّبَبِيِّ بِتَسمِيَةِ آدَمَ وحَوّاءَ لِلّهِ. فَلْنَفتَرِضِ الآنَ أَنَّ اللهَ قَرَّرَ مُعاوَدَةَ الاتِّصالِ بِالبَشَرِ وأَنّا اكتَشَفْنا جَميعَ حالاتِ عَدَمِ الدِّقَّةِ التي كانَتْ عَبرَ آلافِ السِّنينَ. فالذي يَبدو أَنّا سَنَقولُ عِندَئذٍ إنّا على الرَّغمِ مِن رُكامِ الأساطيرِ والأوصافِ المُضَلِّلَةِ كُنّا نُحيلُ

(10) شَدَّدَ مايكِل ديفِت Michael Devitt (Devitt and Sterelny, 1999, pp. 75-76) على أَهَمِّيَّةِ 'الأُسُسِ المُتَعَدِّدَةِ' في تَفسيرِ التَّحَوُّلِ الإحالِيِّ.

على اللهِ طَوالَ تلكَ الحِقَبِ لا إنّا أخفقْنا في الحَديثِ عن اللهِ. فَفي هذا المِثالِ تَبدو النَّظريَّةُ السَّبَبيَّةُ مَقبولَةً أكثَرَ مِن النَّظريَّةِ الهَجينَةِ. على أنَّهُ يَنبَغي أن نَذكُرَ صُعوبَةَ المعرفَةِ اليَقينيَّةِ لِمَوقِفِ النَّظريَّةِ الهَجينَةِ مِن هذهِ الحالَةِ لأنَّها تَعتَمِدُ على فِكرَةٍ غَيرِ مُعَرَّفَةٍ هيَ 'السَّبَبُ المُهَيمِنُ'. ومِن المُمكِنِ تقديمُ تَحليلٍ مُتساهِلٍ بِما فيهِ الكِفايَةُ لِـ 'السَّبَبِ المُهَيمِنِ' يَسمَحُ بِأن يَكونَ اللهُ هوَ 'السَّبَبَ المُهَيمِنَ' لأوصافِنا المُخطِئةِ لِلّهِ في هذا المِثالِ. فافتِقارُ 'السَّبَبِ المُهَيمِنِ' إلى الوُضوحِ هوَ نَفسُهُ يُمَثِّلُ مُشكِلَةً مُستَحكِمَةً لِلنَّظريَّةِ الهَجينَةِ.

وثَمَّةَ مُشكِلَةٌ أُخرَى تَعتَرِضُ سَبيلَ تَطبيقِ النَّظريَّةِ الهَجينَةِ على اللُّغَةِ الدِّينيَّةِ. فمِن الأُمورِ المُقلِقَةِ التي أُثيرَتْ مُبَكِّرًا بِشَأنِ الوَصفِيَّةِ أنَّها قَد تُبطِلُ الاتِّفاقَ والاختِلافَ على اللهِ بينَ المُتَحَدِّثينَ في الأديانِ المُختَلِفَةِ. فإذا كانَتِ الأوصافُ المُمَيِّزَةُ لِلدِّينِ التَّوحيدِيِّ المُعَيَّنِ تُشَكِّلُ جُزءًا مِن المَعلوماتِ الوَصفِيَّةِ المُرتَبِطَةِ بِـ 'الله'، فلَن يَكونَ المُتَحَدِّثونَ في الأديانِ المُختَلِفَةِ مُحيلينَ على شَيْءٍ واحِدٍ حينَ يَستَعمِلونَ هذا الاسمَ. والذي يَبدو أنَّ النَّظريَّةَ الهَجينَةَ تَصِلُ إلى نَتيجَةٍ ذاتِ صِلَةٍ وإشكالِيَّةٍ كذلكَ. إذ تَعمِدُ التَّقاليدُ الدِّينيَّةُ المُختَلِفَةُ والطَّوائفُ المُختَلِفَةُ في ضِمنِ الدِّينِ الواحِدِ إلى رَبطِ مَعلوماتٍ وَصفِيَّةٍ مُختَلِفَةٍ اختِلافًا كبيرًا، وغالِبًا ما تَكونُ مُتَضادَّةً، باسمِ 'الله'. ويَبدو مَنطِقِيًّا ألّا يَكونَ اللهُ هوَ السَّبَبَ 'المُهَيمِنَ' لِكَثيرٍ مِن هذهِ الاختِلافاتِ والتَّضارُباتِ بل إنَّها نَتيجَةُ إساءاتِ الفَهمِ أو الاختِراعاتِ البَشَرِيَّةِ. على أنَّ هذا يَجعَلُنا نَتَساءَلُ عن مَدَى كَونِ المُتَحَدِّثينَ في الأديانِ التَّوحيدِيَّةِ المُختَلِفَةِ وفي الطَّوائفِ المُختَلِفَةِ لِلدِّينِ الواحِدِ يَتَحَدَّثونَ عن شَيْءٍ واحِدٍ حينَ يَتَحَدَّثونَ عن 'الله'. فَلْنَفتَرِضْ وُجودَ صُورَةٍ واحِدَةٍ لِلدِّينِ التَّوحيدِيِّ يَكونُ فيها اللهُ هوَ السَّبَبَ المُهَيمِنَ الرَّئيسَ والمُستَمِرَّ لِلمَعلوماتِ الوَصفِيَّةِ التي يَستَخدِمُها مُتَحَدِّثوها. [101] فالمُتَحَدِّثونَ في هذا الدِّينِ سَينجَحونَ في الإحالَةِ على اللهِ. أمّا المُتَحَدِّثونَ في الصُّوَرِ الأُخرَى مِن الدِّينِ التَّوحيدِيِّ التي لَم يَكُنْ فيها مِثلُ هذهِ الحالَةِ فَلَن يَكونوا مُتَحَدِّثينَ عن الشَّيْءِ نَفسِهِ؛ بَل إنَّهُم، في الواقِعِ، لَن يَكونوا مُتَحَدِّثينَ عن أيِّ شَيْءٍ. ولا شَكَّ في أنَّ هذهِ لَيسَتْ حُجَّةً

مُلزِمَةً بِالضِّدِّ مِن نظريَّةِ إيفانز. على أنَّها تَبَيَّنُ أنَّ النَّظرِيَّةَ تَفرِضُ مُتَطَلَّباتٍ صارِمَةً مُعارِضَةً لِلبَداهَةِ لِلإحالَةِ النّاجِحَةِ على اللهِ.

النَّظرِيَّةُ السَّبَبِيَّةُ ذاتُ الشُّروطِ الوَصفِيَّة

يَقتَرِحُ جيروم غيلمان Jerome Gellman* طَريقَةً مُختَلِفَةً لِتَضمينِ المَعلوماتِ الوَصفِيَّةِ في تَحديدِ الإحالَةِ على 'اللهِ'. إذ يَرى أنَّ تَسمِيَةَ الشَّيْءِ تَقتَضي وُجودَ 'مُحَدِّداتٍ لِلتَّسمِيَةِ المُلائمَةِ مِن بينِ المُرَشَّحاتِ' تُحَدِّدُ نَوعَ الشَّيْءِ الذي يُحالُ عليهِ (1997, p. 29)[11]. مِثالُ ذلكَ أنَّهُ إن احتُمِلَ أن تكونَ مِن قَبيلِ الخَطَإِ جَميعُ القِصَصِ المُتَعَلِّقَةِ بِيُونُسَ وجَميعُ مَعلوماتِنا عن نَوعِ الشَّخصِ الذي كانَهُ يُونُسُ، فالذي يَبدو أنَّهُ لا بُدَّ مِن أنَّ يُونُسَ كانَ *شَخصًا*. فإن تَبَيَّنَ أنَّ يُونُسَ لَم يَكُنْ شَخصًا بَل كانَ قِطعَةَ خَشَبٍ ظُنَّ خَطأً أنَّها شَخصٌ وتَسَبَّبَتْ في نَسجِ تَخَيُّلاتٍ مُختَلِفَةٍ، كانَ لَنا أن نَستَنتِجَ أنَّ 'يُونُس' يُخفِقُ في الإحالَةِ، على ما يَذهَبُ إليهِ غيلمان. ويَبدو، عُمومًا، أنَّ التَّسمِيَةَ تَفترِضُ سَلَفًا رُؤيَةً مُعَيَّنَةً لِلمُتَحَدِّثِ بِشَأنِ نَوعِ الشَّيْءِ المُسَمّى 'تُؤَسِّسُ بِها مُرَشَّحًا مُلائمًا لاستِقبالِ الاسمِ' (1997, pp. 26-27). فَفي تَسمِيَةِ الحامِلِ لا بُدَّ أن تَكونَ بَعضُ الأوصافِ التي يَربِطُها المُتَحَدِّثُ بِالحامِلِ في أَقَلِّ تَقديرٍ صادِقَةً عليهِ مِن أجلِ أن يَنجَحَ الاسمُ في الإحالَةِ. ويَذكُرُ غيلمان نُقطَتَيْنِ أُخرَيَيْنِ. إحداهُما دَعواهُ أنّا 'حينَ نُسَمِّي نَكونُ على العُمومِ واعِينَ، بِدَرَجَةٍ أو بِأُخرَى وبِدَرَجاتٍ مُتَفاوِتَةٍ مِن الوُضوحِ أو الغُموضِ، لِما يَجِبُ

---

* جيروم غيلمان. أُستاذُ فَلسَفَةٍ في جامِعَةِ بن غوريون في النَّقَبِ. مِن مُؤَلَّفاتِهِ: (الخَوفُ، والارتِجافُ، والنّار)؛ و(خَبرُ اللهِ وعَقلانيَّةُ الاعتِقادِ الرُّبوبِيّ)؛ و(قَد غَمَرَنا اللهُ بِعِنايَتِهِ: عَقيدَةٌ مُعاصِرَةٌ لِليَهودِ بِوَصفِهِم الشَّعبَ المُختار). [المُترجِم]

(11) عَرضُ غيلمان لِهذِهِ المُشكِلَةِ يُشبِهُ في بَعضِ جَوانِبِهِ مُناقَشَةَ مايكل ديفِت *لَها*. وهذِهِ هِيَ مُشكِلَةُ النَّظرِيَّةِ السَّبَبِيَّةِ لِلإحالَةِ التي تُثيرُ سُؤالًا هوَ: كَيفَ يَنتَقي الاسمُ، في التَّسمِيَةِ الابتِدائيَّةِ، الحامِلَ الصَّحيحَ مِن بينِ الأشياءِ التي يَخبُرُها المُتَحَدِّثُ؟ ولَم يَكُنْ ديفِت لِيُوافِقَ على الحَلِّ الذي قَدَّمَهُ غيلمان. يُنظَر: Devitt and Sterelny (1999, pp. 79-81).

أن يَكونَهُ مُرَشَّحُ التَّسمِيَةِ المُلائمُ مِن أجلِ إنجازِ عمليَّةِ التَّسمِيَةِ' (1997, p. 27). والنُّقطةُ الأُخرَى بَيانُهُ المَعلوماتِ الوَصفِيَّةَ التي يَجِبُ أَن تكونَ لَدى المُتَحَدِّثِ مِن أجلِ أن يَنجَحَ في الإحالَةِ على اللهِ، إذ يَقولُ: 'إنَّهُ لَشَرطٌ ضَروريٌّ عُمومًا لِنَجاحِ تَسمِيَةِ مَوجودٍ هوَ 'الله' أن تُسَمِّيَ ما سنُطلِقُ عليهِ اسمَ '*المَوجود الأَسمى قيمَةً*'، أو '*المَوجود الأَسمى*'' فَحَسْبُ (1997, p. 32).

ويَرمي غيلمان إلى جَمعِ عَناصِرِ النَّظرِيَّتَيْنِ الإحالِيَّتَيْنِ السَّبَبِيَّةِ والوَصفِيَّةِ كِلتَيْهِما: فإحالَةُ 'الله' يُرَسِّخُها الارتِباطُ السَّبَبِيُّ بِالتَّعميداتِ الابتِدائيَّةِ بَيدَ *أنَّ* ثَمَّةَ وَصفًا مَربوطًا يُمِدُّنا بِالشُّروطِ الضَّرورِيَّةِ لِنَمَطِ الشَّيْءِ الذي بِإمكانِ الاسمِ أن يُحيلَ عليهِ. فالوَصفُ المَربوطُ هوَ أنَّ اللهَ هوَ *المَوجودُ الأَسمى*. فإن كانَ لِلاسمِ أن يَنجَحَ في تَمييزِ أيِّ شَيْءٍ مُطلَقًا، فَلا بُدَّ مِن أن يَكونَ هذا الشَّيْءُ هوَ المَوجودَ الأَسمى. بيدَ أنَّ غيلمان يُعارِضُ الوَصفِيَّةَ بِعَدِّهِ الوَصفَ غَيرَ كافٍ لِتَعيينِ حامِلٍ مُحَدَّدٍ؛ إذ إنَّ ذلكَ يَتَطَلَّبُ ارتِباطًا سَبَبِيًّا بِالمَرجِعِ. [102]

ويَبدو مَنطِقِيًّا أن يَكونَ لَدَى المُتَحَدِّثِ عندَ نُقطَةِ تَسمِيَةِ الشَّيْءِ فِكرَةٌ عن نَمَطِ الشَّيْءِ المُسَمَّى. ويَستَتبِعُ ذلكَ أن يُشَكِّلَ بَعضُ (الحَدّ الأَدنى مِن) المَعلوماتِ الوَصفِيَّةِ جُزءًا مِن التَّعميد(اتِ) الابتِدائيـ(ـةِ) لِحامِلِ الاسمِ. على أنَّ طَريقَتَيْ غيلمان لِتَطويرِ هذهِ الفِكرَةِ تَذهَبانِ إلى أبعَدَ مِن ذلكَ كَثيرًا، وكِلتاهُما تَبدو مُثيرَةً لِلإشكالِ. فأمّا النُّقطَةُ الأُولَى فتُثيرُ تَساؤُلًا هوَ: لِمَ تَقتَضي حَقيقَةُ كَونِ مُعَمِّدِي الاسمِ لَهُم فِكرَةٌ عامَّةٌ عن الشَّيْءِ الذي يُسَمُّونَهُ أن يَكونَ لَدَى مُستَعمِلِي الاسمِ اللاحِقِينَ الفِكرَةُ العامَّةُ نَفسُها؟ فَلْنَفتَرِضْ أنَّ لورا Laura، التي لا عِلمَ لَها بِالدِّينِ، التَقَطَت اسمَ 'الله' مِن نُتَفِ حِوارِيَّةٍ سَمِعَتْها عَرَضًا. وقَد تكونُ لَدَيها فِكرَةُ أنَّ اللهَ فاعِلٌ مِن نَوعٍ مّا لكِن لا يُمكِنُها أن تَقولَ بِثِقَةٍ أيَّ شَيْءٍ آخَرَ عن اللهِ. ومعَ ذلكَ، يَبدو أنَّ لورا ستَكونُ قادِرَةً على الإحالَةِ على اللهِ على الرَّغمِ مِن افتِقارِها إلى التَّعقيدِ اللاهوتِيِّ. ولا شَكَّ في أنَّ هذا نَوعٌ مُتَفَرِّعٌ مِن حُجَّةِ الجَهلِ التي سَبَقَ أن أُثيرَتْ بِالضِّدِّ مِن الوَصفِيَّةِ، ويَبدو أنَّها فَعّالَةٌ كَذلكَ بِالضِّدِّ مِن نَظرِيَّةِ غيلمان التي تَذهَبُ إلى أنَّ المُتَحَدِّثِينَ عن اللهِ لا بُدَّ مِن يَعُوا أنَّهُ مَوجودٌ أسمى.

وأمّا النُّقطَةُ الثّانِيَةُ فتُثيرُ تَساؤُلًا هوَ: لِمَ يَنبَغي أن يَكونَ الوَصفُ المَربوطُ بِـ 'الله' هوَ 'الوُجود الأَسمى'؟ فَلْنَفتَرِضْ أنَّ جَيْن Jane، التي لا عِلمَ مُفصَّلًا لَها بِأيِّ لاهوتٍ تَوحيدِيٍّ، كانَتْ لَها تَجرِبَةٌ دينِيَّةٌ. إذ شَعَرَتْ، مَثَلًا، بِشُعورٍ غَريبٍ حاصِلُهُ أنَّ مَحَبَّةً غامِرَةً قَد وُجِّهَتْ إليها، ووَجَدَتْ صُعوبَةً في التَّعبيرِ عنها بِالكَلماتِ لكِنَّها رَأَتْها مُهِمَّةً جِدًّا أَيضًا. فتُعَيِّنُ جَيْن اللهَ بِأَنَّهُ سَبَبُ هذهِ التَّجرِبَةِ وإن لَم تَكُنْ تُفَكِّرُ (ولَو ضِمنِيًّا) في 'مَوجودٍ أَسمى' بَل قَد تَكونُ مُفتَقِرَةً إلى مَفهومِ المَوجودِ الأَسمى. فالذي يَبدو، في هذهِ الحالَةِ، أنَّ بِإمكانِ جَيْن أن تَنجَحَ في تَسمِيَةِ 'الله' وإن لَم يُؤَدِّ مَفهومُ 'الوُجودِ الأَسمى' أيَّ دَورٍ في تَفكيرِها في اللهِ أو في تَسمِيَتِها لِلّهِ. وقَد تُقَدِّمُ جَيْن لاحِقًا إلى مُجتَمَعٍ تَوحيدِيٍّ وتَعتَقِدُ لاحِقًا أنَّ لِلّهِ صِفاتٍ جَوهَرِيَّةً مُختَلِفَةً وأَنَّهُ المَوجودُ الأَسمى. على أنَّ هذهِ الاعتِقاداتِ ستَكونُ اعتِقاداتٍ تُكَوِّنُها جَيْن بِشَأنِ اللهِ ولَيسَتْ لازِمَةً مِن استِعمالِها لَفظَ 'الله' لِلإحالَةِ على اللهِ. فهيَ تَبدو قادِرَةً على الإحالَةِ على الشَّيْءِ نَفسِهِ قَبلَ تَعليمِها الدِّينِيِّ وبَعدَهُ.

خاتِمَة

إذا كانَتْ كِلتا الطَّريقَتَيْنِ المُقتَرَحَتَيْنِ لِتَعديلِ النَّظرِيَّةِ السَّبَبِيَّةِ لِلإحالَةِ - بِاقتِضاءِ أن يَكونَ اللهُ هوَ 'السَّبَبَ المُهَيمِنَ' لأَوصافِنا أو بِوَضعِ شُروطٍ وَصفِيَّةٍ على تَسمِيَةِ اللهِ - غَيرَ مُقنِعَةٍ، فإنَّ ذلكَ سيَجعَلُنا في مُواجَهَةِ المُشكِلَةِ التي قادَتْنا إلى النَّظَرِ في هذَيْنِ الخِيارَيْنِ. فالذي نَتَوَقَّعُهُ أَنَّهُ عندَ اكتِشافِ أنَّ المَوجودَ الذي يُعَيِّنُهُ 'الله' بِوُضوحٍ كانَ طَوالَ آمادٍ شِرِّيرًا وغَيرَ كامِلٍ، سيَستَنتِجُ بَعضُ المُؤمِنِينَ [103] عَدَمَ وُجودِ اللهِ أَو سَيَفتَرِضُونَ أنَّ ما يَنبَغي أن يُدعَى 'الله' مَوجودٌ آخَرُ مُختَلِفٌ. على أنَّ بِإمكانِ المُنَظِّرينَ السَّبَبِيِّينَ أن يُفَسِّروا رَدَّ الفِعلِ هذا بِأَنَّهُ نَتيجَةُ العَلاقَةِ التي يَرَى المُؤمِنونَ أَنَّهُم يَرتَبِطُونَ مِن خِلالِها بِاللهِ بِوَصفِهِ مَوجودًا يَستَحِقُّ العِبادَةَ والحَمدَ والطّاعَةَ، مِن غَيرِ افتراضِ أنَّ لاسمِ 'الله' مَضمونًا وَصفِيًّا. ويُلحَظُ أنَّ بِإمكانِنا تَصَوُّرَ أنَّ بَعضَ المُؤمِنِينَ، والذينَ لا يَعتَقِدونَ وُجودَ اللهِ كذلكَ، سيَستَنتِجونَ مِن

الاكتِشافِ المُتَخيَّلِ أنَّ اللهَ شِرِّيرٌ. وقَد يَدفَعُ ذلكَ مُؤمِنِينَ آخَرِينَ إلى استِنتاجِ أنَّ اللهَ مَوجودٌ آخَرُ غَيرُ المَوجودِ الذي كانوا يُحيلونَ عليهِ، لكِنَّ ذلكَ سيتطلَّبُ جُهدَ تَسمِيَةٍ جَديدَةٍ لِـ 'الله' مِن أجلِ تَمييزِ مَوجودٍ مُختلِفٍ. فإن صَحَّ ذلكَ، فإنَّ الذي يُحَدِّدُ إحالَةَ 'الله' إذَن هوَ، كما هوَ الأمرُ في حالَةِ 'إسحاق نيوتِن Isaac Newton'* أو أيِّ اسمٍ آخَرَ، الارتِباطُ السَّبَبِيُّ بينَ استِعمالِ الاسمِ والشَّيْءِ المُسَمّى. ويَكمُنُ الاختِلافُ بينَ الإحالَةِ على اللهِ والإحالَةِ على إسحاق نيوتِن في أنَّ الحالَةَ الأُولَى تَنطَوي على مُمارَساتٍ مُكتَنِفَةٍ مُختَلِفَةٍ مِن العِبادَةِ والإخلاصِ تَجعَلُ (لَدَى بَعضِ المُؤمِنِينَ) إحالَةَ 'الله' - إن اكتُشِفَ أنَّهُ شِرِّيرٌ - غَيرَ مُناسِبَةٍ لأَن تكونَ مَوضوعَ اعتِقادٍ دِينِيٍّ. فهذهِ العَوامِلُ الأُخرَى، لا الشُّروطُ الوَصفِيَّةُ التي يتضَمَّنُها مَضمونُ اسمِ 'الله'، هيَ التي قَد تُحدِثُ تَغَيُّرًا في كَيفِيَّةِ استِعمالِ لَفظِ 'الله'.

وتُتيحُ لَنا هذهِ المُناقَشَةُ لِلإحالَةِ مَدًى مِن الخِياراتِ شامِلًا شُمولًا مُلائمًا، على ما أَعتَقِدُ، لِلطَّرائقِ التي يُمكِنُ أن يُحيلَ بِها المُتَحَدِّثُونَ على اللهِ. وبِرَفضِ الصُّوَرِ الكلاسيكِيَّةِ لِلوَصفِيَّةِ بِوَصفِها إمّا نظرِيَّةً لِمَضمونِ 'الله' وإمّا الطَّريقَةَ التي يُحَدَّدُ بِها حامِلُ 'الله'، يُمكِنُ أن يَكونَ المَرءُ جاهِلًا أو مُخطِئًا بِشَأنِ اللهِ في الوَقتِ الذي يَظَلُّ فيهِ قادِرًا على الإحالَةِ على اللهِ. ويَظَلُّ بالإمكانِ أن يُحيلَ على اللهِ أشخاصٌ ذَوُو نَظَرِيّاتٍ جَسيمَةِ الخَطَإ بِشَأنِ اللهِ. ويُمَثِّلُ هذا أمرًا جَيِّدًا لِلأبوفاتيكِيَّةِ: فبِإمكانِنا الإحالَةُ على اللهِ ولَو كُنّا عاجِزِينَ عن تَصَوُّرِ طَبيعَةِ اللهِ. [104]

---

* إسحاق نيوتِن (1642-1727م). عالِمٌ إنجليزيٌّ. يُعَدُّ مِن أبرزِ العُلَماءِ إسهامًا في الفيزياءِ والرِّياضيّاتِ على مَدى العُصورِ، ومِن رُموزِ الثَّورةِ العِلميَّةِ. شَغَلَ مَنصبَ رئيسِ الجمعيَّةِ الملكيَّةِ، وكانَ عُضوًا في البرلمانِ الإنجليزيِّ وزميلًا لكلِّيَّةِ الثّالوثِ في جامِعَةِ كيمبرِج. أَسَّسَ كتابُهُ (الأُصولُ الرِّياضيَّةُ لِلفَلسَفَةِ الطَّبيعيَّةِ)، الذي نُشِرَ أوَّلَ مَرَّةٍ عامَ 1687، مُعظَمَ مبادئِ الميكانيكا الكلاسيكيَّةِ. وكانَتْ لَهُ كذلكَ إسهاماتٌ مُهِمَّةٌ في مجالِ البَصَرِيّاتِ، وشاركَ لايبنِتز في وَضعِ أُسُسِ التَّفاضُلِ والتَّكامُلِ، وصاغَ قوانينَ الحركَةِ وقانونَ الجَذبِ العامِّ التي حَكَمَتْ رُؤيَةَ العُلَماءِ لِلكونِ الماديِّ طَوالَ القُرونِ الثَّلاثةِ التّاليةِ. [المُترجِم]

القِسمُ الثّاني

الصِّدقُ الدِّينِيّ

القِسمُ الثّاني

الصّدقُ الدِّينِيّ

8

مُقدِّمة

كانَت 'الرَّدِّيَّةُ' قَد استُعمِلَتْ لِلإحالَةِ على مَجموعَةٍ مُتَنَوِّعَةٍ مِن المَذاهِبِ الفَلسَفِيَّةِ، أمّا بِوَصفِها نَظريَّةً تتعلَّقُ بِمَعنَى الجُمَلِ وصِدقِها - وعلى النَّحوِ الذي أستَعمِلُها بِهِ هُنا - فهيَ تُحيلُ على النَّظَريّاتِ التي تُقَدِّمُ شُروطَ الصِّدقِ لِلجُمَلِ التي مِن الواضِحِ أنَّها تتعلَّقُ بِمَدًى مُعَيَّنٍ مِن الظَّواهِرِ مِن زاوِيَةِ جُمَلٍ تتعلَّقُ بِمَدًى آخَرَ مِن الظَّواهِرِ. ويُمكِنُنا أن نُسَمِّيَ هذهِ الجُمَلَ (مُتابِعِينَ في ذلكَ دَميت Dummett, 1991, p. 322) صِنفَ الجُمَلِ *الخِلافِيَّ* وصِنفَ الجُمَلِ *الرَّدِّيَّ*، على التَّوالي. ويَرى الرَّدِّيُّونَ أنَّ الجُمَلَ الخِلافِيَّةَ في اللُّغَةِ لا تَحُوزُ مَوضوعَها ذا القيمَةِ الظّاهِرِيَّةِ بَل تَتَعَلَّقُ بِالمَوضوعِ الذي تَصِفُهُ الجُمَلُ الرَّدِّيَّةُ. وفي الآتي ثَلاثَةُ نَماذِجَ مَشهورَةٌ لِلرَّدِّيَّةِ تتعلَّقُ بِاللُّغَةِ اللادِينِيَّةِ.

فالظّاهِراتِيَّةُ *phenomenalism* هيَ الوِجهَةُ التي مُفادُها أنَّ شُروطَ صِدقِ الجُمَلِ المُتعلِّقَةِ بِالعالَمِ الخارِجِيِّ يَنبَغي أن تُقَدِّمَها جُمَلٌ تتعلَّقُ بِخِبراتِنا الفِعلِيَّةِ أو المُمكِنَةِ. وتَرجِعُ أُصولُ هذهِ النَّظَرِيَّةِ إلى كِتاباتِ جورج باركلي (1949) وجون ستيوَرت مِل (1979). إذ مَيَّزَ مِل الأشياءَ المادِّيَّةَ بِأنَّها 'إمكاناتٌ دائمَةٌ لِلإحساسِ' (1974, p. 58) وكانَتْ لَهُ طَريقَةٌ مَلحوظَةٌ في تَأويلِ الجُمَلِ المُتعلِّقَةِ بِالأشياءِ المَحسوسَةِ التي لا يَتَناوَلُها الإدراكُ الحِسِّيُّ في اللَحظَةِ الرّاهِنَةِ: فصِدقُها يَنبَغي أن تُحَدِّدَهُ جُمَلٌ شَرطِيَّةٌ تتعلَّقُ بِما يَتَناوَلُهُ الإدراكُ الحِسِّيُّ لِلشَّخصِ في

ظُروفٍ مُعَيَّنَةٍ. مِثالُ ذلكَ أَنَّ صِدقَ الجُملَةِ (1) قَد يُحَدِّدُهُ صِدقُ الجُملَةِ الشَّرطِيَّةِ (2):

1. يُوجَدُ كُرسِيٌّ في الغُرفَةِ المُجاوِرَةِ.
2. إذا ذَهَبَ شَخصٌ إلى الغُرفَةِ المُجاوِرَةِ، فسَيَرَى كُرسِيًّا.

فهذا التَّحليلُ يَرُدُّ العِبارَةَ التَّقريرِيَّةَ المُتعلِّقَةَ بِالعالَمِ الخارِجِيِّ التي مِن الصِّنفِ الخِلافِيِّ إلى عِبارَةٍ تَقريرِيَّةٍ مِن الصِّنفِ الرَّدِّيِّ المُتَعَلِّقِ بِما يَتَناوَلُهُ الإدراكُ الحِسِّيُّ لِلشَّخصِ في ظُروفٍ مُعَيَّنَةٍ. وقَد طَوَّرَ هذهِ النَّظرِيَّةَ لاحِقًا ماخ Mach* (1959) وكارناب Carnap** (1937)، وقَدَّمَ أَيَر تَلخيصًا حَسَنًا لِصِياغَتِها بِوَصفِها أَحَدَ أَنواعِ رَدِّيَّةِ شُروطِ الصِّدقِ [107] بِقَولِهِ: 'كُلُّ عِبارَةٍ تَقريرِيَّةٍ تَجريبِيَّةٍ تتعلَّقُ بِشَيْءٍ مَحسوسٍ، سَواءٌ أَبَدا أَنَّها تُحيلُ على كِيانٍ عِلمِيٍّ أَم على شَيْءٍ لَنا مَزيدُ أُلفَةٍ لَهُ مِمّا نَدَّعي في العادَةِ أَنّا نُدرِكُهُ حِسِّيًا، يُمكِنُ رَدُّها إلى عِبارَةٍ تَقريرِيَّةٍ، أو إلى مَجموعَةٍ مِن العِباراتِ التَّقريرِيَّةِ، لا تُحيلُ إلّا على مُعطَياتٍ حِسِّيَّةٍ' (Ayer, 1956, p. 118).

والسُّلُوكِيَّةُ *behaviourism*، بِصُورتِها 'التَّحليلِيَّةِ' أو 'المَنطِقِيَّةِ'، هيَ نَظَرِيَّةٌ رَدِّيَّةٌ لِلجُمَلِ التي تَعزو حالاتٍ عَقلِيَّةً. ويَرمي السُّلوكِيُّونَ إلى تَجَنُّبِ ازدِواجِيَّةِ الجَوهَرِ الغامِضَةِ ومُشكِلاتِ التَّسبيبِ الذِّهنِيِّ الحاضِرَةِ، وكذلكَ إلى جَعلِ

---

* إيرنست ماخ (1838-1916م). فيزيائيٌّ وفَيلَسوفٌ نَمساوِيٌّ، مَشهورٌ بإسهاماتِهِ في الفيزياءِ كدِراسَةِ الموجاتِ الصّادِمَةِ. وقَد سُمِّيَتْ نِسبَةُ سُرعَةِ الشَّخصِ إلى سُرعَةِ الصَّوتِ 'العَدَد ماخ' تَكريمًا لَهُ. وكانَ لَهُ، بِوَصفِهِ أَحَدَ فَلاسِفَةِ العِلمِ، تأثيرٌ كبيرٌ في الوَضعِيَّةِ المنطقِيَّةِ والبراغماتِيَّةِ. وقَد استَشرَفَ، بِنَقدِهِ نظرِيّاتِ نيوتن في المَكانِ والزَّمانِ، النَّظَرِيَّةَ النِّسبِيَّةَ لآينشتاين. مِن مُؤَلَّفاتِهِ: (عِلمُ الميكانيكا)؛ و(تَحليلُ الأحاسيسِ، وعَلاقَةُ ما هوَ مَحسوسٌ بِما هوَ سايكولوجِيّ)؛ و(المعرِفَةُ والخَطَأ). [المُترجِم]

** رُودولف كارناب (1891-1970م). فَيلَسوفٌ يَهودِيٌّ أَلمانِيٌّ، مِن أَهَمِّ فَلاسِفَةِ الوَضعِيَّةِ المنطقِيَّةِ، وعُضوٌ نَشيطٌ في حَلقَةِ فيينّا. أنكَرَ دَورَ الفَلسَفَةِ بِوَصفِها عِلمًا كُلِّيًّا، ورَدَّها إلى تَحليلٍ مَنطِقِيٍّ لِلُّغَةِ. مِن مُؤَلَّفاتِهِ: (وَحدَةُ العِلم)؛ و(التَّركيبُ المنطِقِيُّ لِلُّغَة)؛ و(مُقَدِّمَةٌ في المنطِقِ الرَّمزِيّ). [المُترجِم]

الحَديثِ عن الحالاتِ العَقليَّةِ مِمّا يُمكِنُ أن يَتَناوَلَهُ التَّقويمُ العِلمِيُّ، مِن خِلالِ ذَهابِهِم إلى أنَّ جُمَلَ الصِّنفِ الخِلافِيِّ تُجعَلُ صادِقَةً بِصِنفٍ رَدِّيٍّ مِن الجُمَلِ المُتَعَلِّقَةِ بِسُلوكٍ فاعِلٍ قابِلٍ لِلمُلاحَظَةِ ومَواقِفَ سُلوكِيَّةٍ قابِلَةٍ لِلاختِبارِ في ظُروفٍ مُختَلِفَةٍ. مِثالُ ذلكَ أنَّ الجُملَةَ (3) يُمكِنُ تَحليلُها بِسِلسِلَةٍ مِن الجُمَلِ الشَّرطِيَّةِ (4):

3. بورِس عَطشانُ.
4. إذا قُدِّمَ الماءُ إلى بورِس، فسَيَقبَلُهُ؛ وإذا سُئِلَ بورِس هَل هُوَ عَطشانُ؟ فسَيَرُدُّ بِالإيجابِ؛...

ولا شَكَّ في أنَّ هذا مِثالٌ مُبَسَّطٌ لأنَّ الجُمَلَ الشَّرطِيَّةَ ستَكونُ أعقَدَ مِن ذلكَ كَثيرًا. مِثالُ ذلكَ أنَّهُ إذا كانَ بورِس عَطشانَ لكِن لَم يَشَأ أن يَعترِفَ بِهذِهِ الحَقيقَةِ، فَلَن يُتَوَقَّعَ مِنهُ أن يُقِرَّ بِكَونِهِ عَطشانَ إذا ما سُئِلَ. وقَد وَجَدَت السُّلوكِيَّةُ في شَخصِ غِلبرت رايل Gilbert Ryle* (1949)[1] أشهَرَ مُناصِرٍ لَها في الفَلسَفَةِ ويَقتَرِنُ ذِكرُها أيضًا بِكِتاباتِ فِتغِنشتاين المُتَأَخِّرَةِ في فَلسَفَةِ العَقلِ (وإن جادَلَ كَثيرونَ في كَونِ فِتغِنشتاين سُلوكِيًّا)[2]. وعلى الرَّغمِ مِن أنَّ السُّلوكِيَّةَ بِصورَتِها الكلاسيكِيَّةِ المَعروضَةِ هُنا تُواجِهُ اعتِراضاتٍ لا قِبَلَ لَها بِالإجابَةِ عنها[3]، لَقِيَت نظرِيَّةٌ وَثيقَةُ

---

* غِلبرت رايل (1900–1976م). فَيلَسوفٌ بريطانيٌّ. مُمَثِّلُ جيلِ فَلاسِفَةِ اللُّغَةِ الاعتِيادِيَّةِ البريطانِيِّينَ الذينَ شاطَروا فِتغِنشتاين مُقارَبَتَهُ لِلمُشكِلاتِ الفَلسَفِيَّةِ. أكثَرُ ما عُرِفَ بِهِ نَقدُهُ ثُنائِيَّةَ العَقلِ/الجَسَد الدّيكارتِيَّةَ، التي ابتَكَرَ لَها عِبارَةَ (الشَّبَح في الماكِنَة). يُحالُ عَلى بَعضِ أفكارِهِ المتعلِّقَةِ بِفَلسَفَةِ العَقلِ بِوَصفِها "سُلوكِيَّةً". أشهَرُ كُتُبِهِ هوَ (مَفهومُ العَقل) الذي ذَكَرَ فيهِ أنَّ اتِّجاهَ هذا الكِتابِ سيُصَنَّفُ بِلا شَكٍّ بِأَنَّهُ "سُلوكِيٌّ". مِن مُؤَلَّفاتِهِ الأُخرى: (المُعضِلاتُ: مُحاضَراتُ تارنر)؛ و(الجَوانِبُ المُعاصِرَةُ لِلفَلسَفَة)؛ و(في التَّفكير). [المُتَرجِم]

(1) يُنظَرُ أيضًا: U.T. Place (1956).

(2) لِلوُقوفِ على بَيانِ التَّطوُّرِ السُّلوكِيِّ لِفِتغِنشتاين، يُنظَر: Malcolm (1954).

(3) مِن الاعتِراضاتِ المُهِمَّةِ جِدًّا أنَّ التَّحليلَ الرَّدِّيَّ يَتَطَلَّبُ مِنّا أن نَفتَرِضَ حالاتٍ عَقليَّةً إضافِيَّةً. يُنظَر: Chisholm (1957).

الصِّلَةِ بِها حَديثًا دِفاعًا على يَدِ دانييل دينِت Daniel Dennett* (2005) تَحتَ سِتارِ 'عِلم ظّاهِراتِ المُغايِر heterophenomenology'**.

أمّا *الطَّبيعِيَّةُ الأخلاقِيَّةُ ethical naturalism* فتَقتَرِحُ أن يُرَدَّ صِنفُ الجُمَلِ الأخلاقِيَّةِ الخِلافِيُّ إلى صِنفٍ رَدِّيٍّ مِن الجُمَلِ التي تتعلَّقُ بِالظَّواهِرِ الطَّبيعِيَّةِ (Jackson, 1998). إذ يَعتَقِدُ الطَّبيعِيُّونَ أنَّ الكَونَ مُكَوَّنٌ مِن وَقائعَ وصِفاتٍ طَبيعِيَّةٍ فقط، وأنَّ مُهِمَّةَ افتِراضِ الوَقائعِ والصِّفاتِ الطَّبيعِيَّةِ ودِراسَتِها مَنُوطَةٌ بِالعُلومِ الطَّبيعِيَّةِ. وتَبدو الالتِزاماتُ الأخلاقِيَّةُ مُحَيِّرَةً لِلطَّبيعِيِّينَ: إذ يَبدو أنَّها تَفتَرِضُ صِفاتٍ أخلاقِيَّةً تَقويمِيَّةً ذاتِيًّا وغَيرَ مُهَيَّأَةٍ بِوُضوحٍ لِلتَّقويمِ أو حَتّى لِلإدراكِ العِلمِيِّ. على أنَّهُ إذا كانَ بِالإمكانِ أن يُطابَقَ بينَ الصِّفاتِ الأخلاقِيَّةِ نَحوِ *صالِح* أو *يَجِبُ أن يُفعَلَ* والصِّفاتِ الطَّبيعِيَّةِ، كتَحقيقِ أكبَرِ قَدْرٍ مِن السَّعادَةِ، فستَكونُ الصِّفاتُ الأخلاقِيَّةُ مُجَرَّدَ نَمَطٍ مِن أنماطِ الصِّفاتِ الطَّبيعِيَّةِ. ويُقالُ هُنا ما قَد قيلَ آنِفًا وهوَ أنَّ هذا مِثالٌ مُبَسَّطٌ، بيدَ أنَّ الطَّبيعِيِّينَ قَد يَرَونَ أنَّ شَرطَ صِدقِ الجُملَةِ الأخلاقِيَّةِ التي على شاكِلَةِ الجُملَةِ (5) إنَّما تُقَدِّمُهُ الجُملَةُ (6): [108]

5. س هوَ شَيْءٌ يَنبَغي أن نَفعَلَهُ.
6. س هوَ الفِعلُ الذي يُحَقِّقُ أكبَرَ قَدْرٍ مِن السَّعادَةِ.

وبِذلكَ يُصبِحُ الخِطابُ الأخلاقِيُّ طَريقَةً لِلحَديثِ عن صِفاتٍ سايكولوجِيَّةٍ طَبيعِيَّةٍ.

---

* دانييل دينِت (1942–...م). فَيلَسوفٌ، وكاتِبٌ، وعالِمٌ مَعرِفِيٌّ أمريكيٌّ يَدورُ بَحثُهُ حَولَ فَلسَفَةِ العَقلِ، وفَلسَفَةِ العِلمِ، وفَلسَفَةِ عِلمِ الأحياءِ، ولا سِيَّما الحُقولُ المتعلِّقَةُ بِعِلمِ الأحياءِ التَّطَوُّرِيِّ والعِلمِ المَعرِفِيِّ. مِن مُؤَلَّفاتِهِ: (أحلامٌ سَعيدَةٌ: عَقَباتٌ فَلسَفِيَّةٌ في طَريقِ عِلمِ الوَعي)؛ و(عِلمُ الأعصابِ والفَلسَفَةُ: الدِّماغُ، والعَقلُ، واللُّغَةُ)؛ و(العِلمُ والدِّين). [المُتَرجِم]

** عِلمُ ظاهِراتِ المُغايِرِ: مُصطَلَحٌ ابتَكَرَهُ دانييل دينِت لِيَصِفَ وَصفًا صَريحًا مُقارَبَةً عِلمِيَّةً مُتَعلِّقَةً بِالآخَرِ لِدِراسَةِ الوَعي وغَيرِهِ مِن الظَّواهِرِ العَقلِيَّةِ، وهيَ مَبنِيَّةٌ على تَطبيقِ المنهَجِ العِلمِيِّ ذي الوِجهَةِ الأنثروبولوجِيَّةِ، بِالجَمعِ بينَ الإفاداتِ الشَّخصِيَّةِ لِلذَّواتِ وجَميعِ الشَّهاداتِ الأُخرى المُتاحَةِ مِن أجلِ تَحديدِ حالاتِها العَقلِيَّةِ. والهَدَفُ هوَ اكتِشافُ الكيفِيَّةِ التي تَرى الذّاتُ نَفسُها بِها العالَمَ مِن غَيرِ النَّظَرِ إلى دِقَّةِ رُؤيَةِ الذّاتِ على أنَّها أمرٌ مُسَلَّمٌ بِهِ. [المُتَرجِم]

وثَمَّةَ فِكرَتانِ تدفعانِ باتِّجاهِ الرَّدِّيَّة. أمّا إحداهُما، ويُمكِنُ أن تُلحَظ بوُضوحٍ مِن خِلالِ الأمثِلَةِ المَذكورَةِ آنِفًا، فَهِيَ أنَّ الظَّواهِرَ التي تَصِفُها بوُضوحٍ الجُمَلُ الخِلافِيَّةُ يَعُدُّها الرَّدِّيُّونَ مُشكِلَةً فَلسَفِيًّا على نَحوٍ مّا. وقَد يُوجَدُ أساسٌ قَبْلِيٌّ أو تَجريبِيٌّ لِلشَّكِّ في أنَّ الظَّواهِرَ المَعنِيَّةَ مَوجودَةٌ أو في أنَّ بِالإمكانِ أن تَكونَ لَدَينا اعتِقاداتٌ يُمكِنُ الرُّكونُ إليها بِشَأنِها. ويَرَى الرَّدِّيُّونَ أنَّ هذهِ الهَواجِسَ الفَلسَفِيَّةَ جادَّةٌ بِما يَكفي لِتَوفيرِ أساسٍ لافتِراضِ أنَّ مِساحَةَ اللُّغَةِ المَعنِيَّةَ، إذا ما أُخِذَتْ بِقيمَتِها الظّاهِرِيَّةِ، مُخطِئَةٌ خَطَأً فادِحًا. مِثالُ ذلكَ أنَّ الدّافِعَ إلى الظّاهِراتِيَّةِ قَلَقٌ إبستمولوجِيٌّ بِشَأنِ كَيفِيَّةِ إمكانِ مَعرِفَةِ أيِّ شَيْءٍ مَهما يَكُنْ عن الأشياءِ المَحسوسَةِ عِندَما لا يَكونُ ثَمَّةَ حُضورٌ مُباشِرٌ في تَجرِبَتِنا الإدراكِيَّةِ لِغَيرِ الأحاسيسِ؛ وتَرَى الطَّبيعِيَّةُ الأخلاقِيَّةُ صُعوبَةَ أن يَكونَ ثَمَّةَ تَوافُقٌ بَينَ الصِّفاتِ الأخلاقِيَّةِ التي تَفتَرِضُها الجُمَلُ الأخلاقِيَّةُ والميتافيزيقا الطَّبيعِيَّةِ. وبِالضِّدِّ مِن ذلكَ، يَنظُرُ الرَّدِّيُّونَ إلى مَدَى الظَّواهِرِ الذي يَصِفُهُ صِنفُ الجُمَلِ الرَّدِّيُّ على أنَّهُ جَديرٌ فَلسَفِيًّا بِالاحتِرامِ لأنَّهُ ليسَ عُرضَةً لأنماطِ الاعتِراضِ أنفُسِها، أو ليسَ عُرضَةً لَها بِالدَّرَجَةِ نَفسِها في أقَلِّ تَقديرٍ. ويَرمي الرَّدِّيُّونَ إلى الإجابَةِ عن الاعتِراضاتِ الفَلسَفِيَّةِ على الخِطابِ الخِلافِيِّ مِن خِلالِ جَعلِ شُروطِ صِدقِهِ جُمَلًا مِن الصِّنفِ الرَّدِّيِّ.

وأمّا الفِكرَةُ الأُخرَى، وهي أقَلُّ وُضوحًا مِن سابِقَتِها مِن خِلالِ الأمثِلَةِ المَذكورَةِ لكِنَّها لَيسَتْ بِأقَلَّ أهمِّيَّةً مِنها، فحاصِلُها أنَّ ثَمَّةَ أسبابًا وَجيهَةً تَدعو إلى الاحتِفاظِ بِالخِطابِ الخِلافِيِّ. فإذا كانَ الرَّدِّيُّونَ يَقتَرِحونَ تَأويلَ صِنفِ الجُمَلِ الخِلافِيَّةِ مِن زاوِيَةِ صِنفٍ جُمَلِيٍّ رَدِّيٍّ، فَلِمَ لا يُلجَأُ بَدَلًا مِن ذلكَ بِبَساطَةٍ إلى إلغاءِ استِعمالِ صِنفِ الجُمَلِ الأُولَى وإحلالِ جُمَلٍ مِن الصِّنفِ الرَّدِّيِّ محلَّها؟ ثُمَّ إنَّ الرَّدِّيِّينَ يَرونَ، لِلأسبابِ المذكورَةِ، أنَّ الجُمَلَ التي مِن الصِّنفِ الخِلافِيِّ تكونُ كاذِبَةً *إذا أُخِذَتْ بِقيمَتِها الظّاهِرِيَّةِ*. وستَحظَى الاستراتيجيا الإقصائيَّةُ بِمَزِيَّةٍ إضافِيَّةٍ هيَ استِبدالُ الجُمَلِ ذَواتِ المَظهَرِ المُضَلِّلِ الذي يُقَدِّمُ وَصفًا لِكِياناتٍ مُلتَبِسَةٍ فَلسَفِيًّا. فالرَّدِّيُّونَ يَحتاجونَ إلى سَبَبٍ يَدعوهُم إلى الاستِمرارِ في استِعمالِ صِنفِ الجُمَلِ الخِلافِيِّ. وفي بَعضِ الحالاتِ، رُبَّما لا يَكونُ الاستِبعادُ خِيارًا صالِحًا.

مِثالُ ذلكَ أنَّ الرَّدّيَّ بِشَأنِ عِلمِ الأحياءِ قَد يَذهَبُ إلى أنَّ صِدقَ الجُمَلِ الأحيائيَّةِ المُتَعَلِّقَةِ بِالظَّواهِرِ العُضويَّةِ يُحَدِّدُهُ صِدقُ جُمَلٍ فيزيائيَّةٍ وكيميائيَّةٍ تَتَعَلَّقُ بِظَواهِرَ أكثَرَ مَحدودِيَّةً في القِياسِ. على أنَّ الجُمَلَ الفيزيائيَّةَ والكيميائيَّةَ التي يُمكِنُ أن تُرَدَّ إليها الجُمَلُ الأحيائيَّةُ قَد تَكونُ غايَةً في الطُّولِ والتَّعقيدِ؛ ثُمَّ إنَّ [109] العُلَماءَ في كَثيرٍ مِنَ الحالاتِ لا يَمتَلِكونَ ما يَكفي مِنَ المَعلوماتِ التي تُمَكِّنُهُم مِنَ الإخبارِ بِما يُمكِنُ أن تَكونَهُ حالاتُ الرَّدِّ هذهِ. فحَتّى إذا كانَ صِدقُ الجُمَلِ الأحيائيَّةِ مُعتَمِدًا على صِدقِ الجُمَلِ الفيزيائيَّةِ والكيميائيَّةِ، فلَن يَكونَ إحلالُ الخِطابِ الفيزيائيِّ والكيميائيِّ مَحلَّ الخِطابِ الأحيائيِّ خِيارًا عَمَليًّا. ومِنَ الأسبابِ الأُخرَى الدّاعيَةِ إلى تَفضيلِ الرَّدّيَّةِ على الإقصائيَّةِ مَدَى وُجودِ مَزايا اجتِماعِيَّةٍ في استِعمالِ الجُمَلِ الخِلافِيَّةِ. وقَد يَكونُ في هذا ما يُعَزِّزُ جانِبَ الجُمَلِ الأخلاقِيَّةِ؛ إذ يُلحَظُ أنَّ الأشخاصَ الذينَ لا يُمارِسُونَ الخِطابَ الأخلاقِيَّ لا يُقَدِّمونَ نَماذِجَ أدوارٍ واعِدَةً. وبِذلكَ قَد يَوَدُّ الطَّبيعِيُّونَ الأخلاقِيُّونَ استِبقاءَ الخِطابِ الأخلاقِيِّ وإن كانَ ما يُقَدِّمُ شُروطَ صِدقِ الجُمَلِ الأخلاقِيَّةِ هوَ (مَثَلًا) الجُمَلَ المُتَعَلِّقَةَ بِسَعادَةِ البَشَرِ.

فَهذهِ النِّقاطُ مُجتَمِعَةً تُقَدِّمُ سِياقًا تَبدو فيهِ الرَّدّيَّةُ نَظَرِيَّةً جَذّابَةً فِعلًا. فالخِطابُ الخِلافِيُّ هوَ الخِطابُ الذي إقصاؤُهُ إمّا غَيرُ مَرغوبٍ فيهِ وإمّا غَيرُ عَمَلِيٍّ، لكِن يَبدو أنَّهُ يُوقِعُ المُتَحَدِّثِينَ بِهِ في خَطَإٍ نِظامِيٍّ. وتُمِدُّنا الرَّدّيَّةُ بِمَخرَجٍ مِن هذهِ المُشكِلَةِ فيهِ تَلَطُّفٌ بالمُتَحَدِّثِينَ. فإن بَدا مَجالُ الخِطابِ، استِنادًا إلى قِراءَةٍ ظاهِرِيَّةِ القِيمَةِ، مُتَعَلِّقًا بِمَدًى مِنَ الظَّواهِرِ المُثيرَةِ لِلجَدَلِ الفَلسَفِيِّ، فالذي يَراهُ الرَّدّيُّونَ أنَّها تتعلَّقُ في الواقِعِ بِمَدًى مُتَمايِزٍ مِنَ الظَّواهِرِ غَيرِ الخِلافِيَّةِ التي تَصِفُها الجُمَلُ الرَّدّيَّةُ. فالرَّدّيَّةُ تُمِدُّنا بِطَريقَةٍ لِلتَّحَدُّثِ عنِ الظَّواهِرِ والتَّفكيرِ فيها مِن غَيرِ إثارَةِ اعتِراضاتٍ ميتافيزيقيَّةٍ أو إبِستمولوجيَّةٍ (أو بإثارَةِ عَدَدٍ أقَلَّ).

وتَسيرُ الرَّدّيَّةُ الدِّينِيَّةُ على وَفقِ نَمَطٍ مُشابِهٍ لأنواعِ الرَّدّيَّةِ الأُخرَى. ويَبرُزُ الدّافِعُ الأوَّلُ المَذكورُ آنِفًا بِخاصَّةٍ في الكِتاباتِ المُتعلِّقَةِ بِالرَّدّيَّةِ الدِّينِيَّةِ. مِثالُ ذلكَ

أنَّ أُطروحَةَ سبِنوزا Spinoza* الرَّدِّيَّةَ كانَ دافِعُها الواحِدِيَّةَ monism، في حينِ أنَّ رَدِّيِّي بَواكيرِ القَرنِ العِشرينَ كجُوليان هَكسلي Julian Huxley** وهنري ويمان Henry Wieman*** (وهوَ شَخصِيَّةٌ قِيادِيَّةٌ في حَرَكَةِ 'التَّجريبيَّةِ الدِّينِيَّةِ' في اللاهوتِ التي ما زالَتْ قائمَةً) تَطَلَّعوا إلى رَدِّيَّةٍ تَجعَلُ اللُغَةَ الدِّينِيَّةَ مُنسَجِمَةً معَ الوِجهَةِ الطَّبيعِيَّةِ. ويُقَدِّمُ غوردن كوفمان، في الوَقتِ الذي لا يَتَبَنّى فيهِ الوِجهَةَ الطَّبيعِيَّةَ، مُقارَبَةً رَدِّيَّةً لِلدِّينِ لا تَفتَرِضُ فيها الجُمَلُ الدِّينِيَّةُ كِياناتٍ خارِقَةً لِلطَّبيعَةِ. ويَتَعاطَفُ الرَّدِّيُّونَ الدِّينِيُّونَ أيضًا بِشِدَّةٍ معَ الاستِعمالِ المُستَمِرِّ لِلخِطابِ الدِّينِيِّ (المُجَهَّزِ بِتَحليلٍ رَدِّيٍّ ناجِحٍ لِمَعناهُ) وإن كانُوا في الغالِبِ غَيرَ واضِحِينَ بِشَأنِ الأَسبابِ الدّاعِيَةِ إلى استِبقاءِ الخِطابِ الدِّينِيِّ، على ما سَنَراهُ في الفَصلِ اللاحِقِ.

وعلى العُمومِ، يَنبَغي لِلرَّدِّ النّاجِحِ لِلُغَةِ الدِّينِيَّةِ أن يُحَقِّقَ أربَعَةَ أُمورٍ: أَوَّلُها (أ) أن يُقَدِّمَ أساسًا لِلشَّكِّ في صِدقِ الجُمَلِ الدِّينِيَّةِ حينَ تُمارَسُ عليها قِراءَةٌ ظاهِرِيَّةُ القيمَةِ؛ وثانيها (ب) أن يُقَدِّمَ صِنفًا رَدِّيًّا مِن الجُمَلِ غَيرِ الخِلافِيَّةِ فَلسَفِيًّا وأن يُفَسِّرَ كيفِيَّةَ رَدِّ الجُمَلِ الدِّينِيَّةِ إليها؛ وثالِثُها (ج) أن يُقَدِّمَ [110] الأسبابَ الدّاعِيَةَ إلى استِبقاءِ اللُغَةِ الدِّينِيَّةِ بَدَلًا مِن إحلالِ اللُغَةِ الرَّدِّيَّةِ محلَّها؛ ورابِعُها (د) أن يُقَدِّمَ الدَّليلَ المُؤيِّدَ لِلتَّأويلِ الرَّدِّيِّ المُقتَرَحِ. وعَلى الرَّدِّيِّينَ أن يُقَدِّموا ما يُؤَيِّدُ كَونَ صِنفِ

---

* باروخ سبِنوزا (1632-1677م). فَيلَسوفٌ هولنديٌّ مِن أهَمِّ فَلاسِفَةِ القَرنِ السّابِعَ عَشَرَ. يُعَدُّ كتابُهُ (الأخلاق) الذي أَلَّفَهُ في عام 1677 من أهَمِّ الكُتُبِ المؤَثِّرَةِ في الفَلسَفَةِ الغَربيَّةِ. ومِن مُؤَلَّفاتِهِ الأخرى: (مَبادِئُ فَلسَفَةِ ديكارت)؛ و(رِسالةٌ في اللاهوتِ والسِّياسَةِ). [المُترجِم]

** جُوليان سوريل هَكسلي (1887-1975م). عالِمُ أحياءٍ تَطَوُّرِيَّةٍ وتَحسينِ لِلنَّسلِ وثَورِيَّةٍ دَولِيَّةٍ بريطانيٌّ. كانَ مُناصِرًا لِلانتِخابِ الطَّبيعيِّ، وشَخصيَّةً قِيادِيَّةً في الحَرَكَةِ التَّوفيقِيَّةِ الحَديثَةِ، وأمينًا عامًّا لِجَمعيَّةِ لَندن لِلحَيَوانِ، وأَوَّلَ مُديرٍ لِليونسكو، وعُضوًا مُؤَسِّسًا لِلصُّندوقِ العالميِّ لِلطَّبيعَةِ، وأَوَّلَ رَئيسٍ لِلجمعيَّةِ الإنسانيَّةِ البريطانيَّةِ. مِن مُؤَلَّفاتِهِ: (الفَردُ في مَملَكَةِ الحَيَوان)؛ و(عِلمُ الحَياةِ: خُلاصَةُ المعرِفَةِ المُعاصِرَةِ لِلحَياةِ وإمكاناتِها)؛ و(مَدخَلٌ إلى العِلم). [المُتَرجِم]

*** هنري نِلسن ويمان (1884-1975م). فَيلَسوفٌ ولاهوتِيٌّ أمريكِيٌّ. أصبَحَ أشهَرَ مُناصِرٍ لِلطَّبيعِيَّةِ اللاهوتِيَّةِ المركَزِ ولِلمَنهَجِ التَّجريبيِّ في عِلمِ اللاهوتِ الأمريكيِّ، وأعانَ على ظُهورِ الطَّبيعِيَّةِ الدِّينِيَّةِ في نِهاياتِ القَرنِ العِشرينَ. مِن مُؤَلَّفاتِهِ: (الخِبرَةُ الدِّينيَّةُ والمَنهَجُ العِلمِيّ)؛ و(مَناهِجُ العَيشِ الدِّينِيِّ الخاصّ)؛ و(مَصدَرُ الخَيرِ البَشَرِيّ). [المُتَرجِم]

الجُمَلِ الرَّدِّيِّ يَمنَحُ فِعليًّا صِنفَ الجُمَلِ الخِلافِيِّ شُروطَ صِدقِهِ؛ وإلّا فَسيَكونُ كُلُّ ما يَتَضَمَّنُهُ الرَّدُّ تَغييرَ مَوضوعِ اللُّغَةِ الدِّينيَّةِ ولَن يتضَمَّنَ تَقديمَ تَأويلٍ مَقبولٍ لِمَعناها. وإنَّ تَحقيقَ هذهِ الأهدافِ الأَربَعَةِ جَميعًا لَمُهِمَّةٌ عَسيرَةٌ، ولا سيَّما في ما يتعلَّقُ بِاللُّغَةِ الدِّينيَّةِ (وفي الفَصلِ 9 مُناقَشَةٌ لِلتَّأريخِ الطَّويلِ لِلمُحاوَلاتِ غَيرِ النّاجِحَةِ).

وتُمَثِّلُ الأدنَويَّةُ الدِّينيَّةُ religious minimalism، وهيَ نظريَّةٌ تَرجِعُ أُصولُها إلى تَعليقاتِ فِتغِنشتاين على الدِّينِ ومُحاضَراتِهِ فيهِ، تَحَدِّيًا لِمُقارَبَةِ القيمَةِ الظّاهِريَّةِ لِلصِّدقِ الدِّينيِّ أكثَرَ جَوهَريَّةً وإثارَةً مِنَ التَّحَدِّي الذي تُمَثِّلُهُ الرَّدِّيَّةُ. فَفي حينِ أنَّ الرَّدِّيَّةَ تَقتَضي تَحليلًا لِلُّغَةِ الدِّينيَّةِ ناجِحًا ورَدِّيًّا يَشهَدُ لَهُ دَليلٌ مُعتَبَرٌ، وهذا ما يُثيرُ عَدَدًا مِنَ الاعتِراضاتِ، يَكونُ اعتِمادُ الأدنَويَّةِ في المَقامِ الأَوَّلِ على الأُطروحَةِ *الانكِماشيَّةِ* لِلصِّدقِ التي سَبَقَ عَرضُها في الفَصلِ 6. وبَدَلًا مِنَ الانطِلاقِ مِن قاعِدَةٍ نَظَريَّةٍ ميتافيزيقيَّةٍ، كالوِجهَةِ الطَّبيعيَّةِ، يَدَّعي الأدنَويُّونَ أنَّهُم إنَّما يَصِفونَ استِعمالَ اللُّغَةِ؛ فهُم يَرمونَ إلى 'تَركِ كُلِّ شَيْءٍ على ما هوَ عليهِ'، على حَدِّ تَعبيرِ فِتغِنشتاين، ومَنهَجُهُم 'لا يُمكِنُ أن يَتَضارَبَ معَ الاستِعمالِ الفِعليِّ لِلُّغَةِ؛ فكُلُّ ما يُمكِنُ أن يَفعَلَهُ ليسَ سِوَى وَصفِهِ' (1953, p. 124). وسيَكونُ عَرضي لِلأدنَويَّةِ في ما يَأتي عَرضًا عامًّا شَيئًا ما، أمّا تَسليطُ الضَّوءِ على الأدنَويَّةِ الدِّينيَّةِ فَمَحَلُّهُ الفَصلُ 10، حَيثُ سأُراجِعُ أيضًا بَعضَ مَسالِكِ الاعتِراضِ الرَّئيسَةِ على النَّظَريَّةِ في فَلسَفَةِ الدِّينِ. وأمّا في الفَصلِ 11 فسَأُطَوِّرُ ما أعتَقِدُ أنَّهُ أكثَرُ مَسالِكِ حُجَجِ الاعتِراضِ إقناعًا على التَّأويلِ الأدنَويِّ لِلصِّدقِ الدِّينيِّ.

ما الأدنَويَّة؟

تَرتَكِزُ الأدنَويَّةُ على النَّظَريّاتِ الانكِماشيَّةِ لِلصِّدقِ والمَضمونِ القابِلِ لِلصِّدقِ أو القَضَويِّ[4]. وتَذهَبُ النَّظَريَّةُ الانكِماشيَّةُ لِلصِّدقِ، التي بُيِّنَتْ خُطوطُها العامَّةُ في

(4) يُلحَظُ أنَّ مُصطلَحَي 'الأدنَويَّة' و'الانكِماشيَّة' كِلَيهِما مُصطلَحانِ فَلسَفِيّانِ مُتَخَصِّصانِ =

الفَصلِ 6، إلى أنَّ المَضمونَ الصِّدقِيَّ يَستَنفِدُهُ بِدَرَجَةٍ كَبيرةٍ المُخَطَّطُ غَيرُ الاقتِباسِيِّ disquotational schema (DS)، الذي يُمكِنُ أن تُحَلَّ فيهِ أيَّةُ جُملَةٍ مَحلَّ 'S':

(DS) 'S' لا تكونُ صادِقَةً إلّا إذا كانَ S.

ويُقَدِّمُ لَنا المُخَطَّطُ غَيرُ الاقتِباسِيِّ، معَ كُلِّ ما يَتَفَرَّعُ مِنهُ، كُلَّ ما هوَ إخبارِيٌّ مِمّا يُمكِنُ أن يُقالَ عُموماً بِشَأنِ الصِّدقِ. فالنَّظَرِيَّةُ الانكِماشِيَّةُ لِلمَضمونِ القابِلِ لِلصِّدقِ أو القَضَوِيِّ هيَ الوِجهَةُ التي تَرَى أنَّهُ مِن أجلِ أن يَكونَ لِلجُملَةِ [111] مَضمونٌ كهذا، لا تَحتاجُ إلّا إلى أن تَكونَ قادِرَةً على الوَفاءِ بِمُقتَضَياتِ المُخَطَّطِ غَيرِ الاقتِباسِيِّ. فَعَلَى وَفقِ هذهِ الوِجهَةِ، سيَكونُ لِكُلِّ جُملَةٍ إفصاحِيَّةٍ دالَّةٍ مَضمونٌ قابِلٌ لِلصِّدقِ (Boghossian, 1990).

فكَيفَ يَنبَغي أن نُؤَوِّلَ المُخَطَّطَ غَيرَ الاقتِباسِيِّ؟ الذي يَقتَرِحُهُ الأدنَوِيُّونَ هوَ أن نَعُدَّ المُخَطَّطَ غَيرَ الاقتِباسِيِّ DS رابِطاً بينَ صِدقِ الجُملَةِ (الجانِبِ الأيمَنِ) وإقرارِ S (الجانِبِ الأيسَرِ). أي إنَّ ما يَدعو إلى إقرارِ جُملَةٍ مّا هوَ ما يَدعو إلى عَدِّها صادِقَةً، والعَكسُ صَحيحٌ. فإذا استُحضِرَتْ هذهِ القِراءَةُ لِلمُخَطَّطِ غَيرِ الاقتِباسِيِّ، استُبقِيَ هذا المُخَطَّطُ عندَ تَحليلِ صِدقِ جُملَةٍ مّا مِن زاوِيَةِ التَّسويغِ لإقرارِ هذهِ الجُملَةِ. وثَمَّةَ طَريقَةٌ تُنجِزُ ذلكَ - وسَنَنظُرُ هُنا في طَرائقَ أُخرَى - بِتَحليلِ الصِّدقِ على أنَّهُ قابِلِيَّةُ تَقريرٍ مُسَوَّغَةٌ. وقابِلِيَّةُ التَّقريرِ المُسَوَّغَةُ هيَ خاصِّيَّةُ المُسَوَّغِيَّةِ، بِما يُلائمُ مَعاييرَ تَسويغِ الخِطابِ المَعنِيِّ معَ أفضَلِ دَليلٍ مُتوافِرٍ مِن حَيثُ المَبدَأُ، لِتَقريرِ جُملَةٍ مّا. فإذا كُنّا في وَضعٍ يَسمَحُ لَنا بِأن نَعُدَّ S قابِلَةً لِلتَّقريرِ على نَحوٍ مُسَوَّغٍ، فسَنَكونُ أيضاً في وَضعٍ يَسمَحُ لَنا بِإقرارِ S؛ وإذا كُنّا في وَضعٍ يَسمَحُ لَنا بِإقرارِ S، فسنَكونُ، استِناداً إلى القِراءَةِ الأدنَوِيَّةِ لِلمُخَطَّطِ غَيرِ الاقتِباسِيِّ، في وَضعٍ يَسمَحُ لَنا بِأن نَعُدَّ S صادِقَةً. ويَلزَمُ مِن ذلكَ أنَّ أساسَ

= يَستَعمِلُهُما فَلاسِفَةٌ مُختَلِفونَ استِعمالاً مُختَلِفاً، وإن كانُوا عادَةً مّا يَفعَلونَ ذلكَ لِيُحيلوا على نَظرِيّاتٍ وَثيقَةِ الصِّلَةِ بِالنَّظرِيّاتِ التي نَنظُرُ فيها هُنا.

مُسَوِّغِيَّةِ تَقريرِ S هوَ أساسُ كَونِ S صادِقَةً، والعَكسُ صَحيحٌ. فالذي تَذهَبُ إليهِ النَّظرِيَّةُ الأَدنَوِيَّةُ لِلمَضمونِ القَضَويِّ أَنَّ أَيَّةَ جُملَةٍ دالَّةٍ تَفي بِمُقتَضَياتِ المُخَطَّطِ غَيرِ الاقتِباسِيِّ، وبِذلكَ تَكونُ شَيئًا مّا يُمكِنُ مِن حَيثُ المَبدَأُ أن يُسَوَّغَ تَقريرُنا لَهُ أو رَفضُهُ، لَها مَضمونٌ قَضَوِيٌّ. وإنِّي، على العُمومِ، لأَنظُرُ إلى الاستراتيجيا الانكِماشِيَّةِ على أَنَّها تُحَلِّلُ الصِّدقَ والمَضمونَ القابِلَ لِلصِّدقِ مِن زاوِيَةِ الوَفاءِ بِمُقتَضَياتِ المُخَطَّطِ غَيرِ الاقتِباسِيِّ؛ وأَنظُرُ إلى الاستراتيجيا الأَدنَوِيَّةِ على أَنَّها تُحَلِّلُ الصِّدقَ والمَضمونَ القابِلَ لِلصِّدقِ (والوَفاء بِمُقتَضَياتِ المُخَطَّطِ غَيرِ الاقتِباسِيِّ) مِن زاوِيَةِ التَّسويغِ.

وحينَ تُطَبَّقُ الأَدنَوِيَّةُ على الخِطابِ الدِّينِيِّ، سَيَكونُ بِالإمكانِ أن يُرَى أَنَّها سرعانَ ما تَنجَحُ في أن تُصبِحَ أُطروحَةً لِلصِّدقِ الدِّينِيِّ. فَمِن الواضِحِ أَنَّ الجُمَلَ الدِّينِيَّةَ، على ما يُمكِنُ أن نَراهُ في الجُملَةِ (7)، تَفي بِمُقتَضَياتِ المُخَطَّطِ غَيرِ الاقتِباسِيِّ:

7. 'اللهُ كُلِّيُّ القُدرَةِ' لا تَكونُ صادِقَةً إلّا إذا كانَ اللهُ كُلِّيَّ القُدرَةِ.

وبِذلكَ يُمكِنُ أن تَكونَ الجُمَلُ الدِّينِيَّةُ صادِقَةً مِن خِلالِ كَونِها مُسَوَّغَةً على نَحوٍ مُناسِبٍ أو مُلَبِّيَةً على نَحوٍ مُلائِمٍ لِلمَعاييرِ الدّاخِلِيَّةِ لِتَسويغِ الخِطابِ الدِّينِيِّ. وتُلَبِّي الجُمَلُ الدِّينِيَّةُ أَيضًا الشُّروطَ التي تتطلَّبُها الأَدنَوِيَّةُ لِحِيازَةِ المَضمونِ القَضَوِيِّ.

وقَد يُعتَرَضُ هُنا بِأَنَّ هذا لا يُمكِنُ أن يَكونَ أُطروحَةً كافِيَةً لِلصِّدقِ في الدِّينِ لأَنَّ الجُمَلَ الدِّينِيَّةَ تُجعَلُ صادِقَةً *بِالوَقائِعِ* و*تُحيلُ* على اللهِ، وما إلى ذلكَ. على أَنَّ مِن العَبَثِ، على ما رَأَينا في الفَصلِ 6، أن تُوَسَّعَ الاستراتيجيا الانكِماشِيَّةُ إلى ما وَراءَ الصِّدقِ لِتَشمَلَ أَلفاظًا أُخرَى مُثيرَةً لِلخِلافِ. فَالمَسأَلَةُ المَعنِيَّةُ لا تَكونُ *واقِعَةً*، على سبيلِ المِثالِ، إلّا في حالَةِ كَونِ الجُملَةِ النّاقِلَةِ لَها صادِقَةً. وقَد تُحَلَّلُ الإحالَةُ على أَنَّها صِفَةٌ لِلأَلفاظِ المُفرَدَةِ [112] التي تَرِدُ في

الجُمَلِ الصّادِقَةِ. وقَد يُفيدُ الأدنوِيُّونَ أيضًا مِن فِكرَةِ أنَّ الجُمَلَ الصّادِقَةَ *تُناظِرُ* الواقِعَ. وفي الآتي إحدَى طَرائقِ فِعلِ ذلكَ (Wright, 1992, p. 25). إذ تُعادُ صِياغَةُ البَداهَةِ التَّناظُرِيَّةِ التي مُفادُها أنَّ العِباراتِ التَّقريرِيَّةَ تُناظِرُ الوَقائعَ على النَّحوِ الآتي:

(CP) '*P*' لا تَكونُ صادِقَةً إلّا إذا كانَتِ الأمورُ على النَّحوِ الذي تُخبِرُ *P* بِأنَّها عَلَيهِ.

فَلْنَفترِضِ الآنَ أنّا نُثبِتُ الآتي:

8. '*P*' تُخبِرُ بِأنَّ *P*.

فالنَّتيجَةُ هيَ الآتي:

9. لا تكونُ الأمورُ على النَّحوِ الذي تُخبِرُ '*P*' بِأنَّها عَلَيهِ إلّا إذا كانَتْ *P*.

ويَنتُجُ CP بِفِعلِ تَطبيقِ DS على الجُملَةِ (9). وقَد يتطَلَّبُ الأمرُ تَأويلًا تَناظُرِيًّا أقوَى مَظهَرًا، نَحو:

(*CP**) 'P' صادِقَةٌ لأنَّ *P*.

لكِنْ بِإمكانِ الأدنَوِيِّينَ أن يَحصُلُوا على CP* مِن CP أيضًا (Horwich, 1998, ch. 7). ذلكَ بِأنَّهُ إذا كانَتْ '*P*' تُخبِرُ بِأنَّ *P*، لَزِمَ مِن ذلكَ أنَّ الأُمورَ على النَّحوِ الذي تُخبِرُ '*P*' بِأنَّها عَلَيهِ لأنَّهُ صِدقٌ أنَّ *P*. أي إنَّ '*P*' صادِقَةٌ لأنَّ *P*.

فالفِكرَةُ المَركَزِيَّةُ في الأُطروحَةِ الأدنَوِيَّةِ لِلصِّدقِ هيَ فِكرَةُ أنَّ الصِّدقَ مُرتَبِطٌ بِمَعاييرِ التَّسويغِ. ولَيسَتْ هذهِ المُقارَبَةُ بِجَديدَةٍ. فَثَمَّةَ تَحليلٌ سابِقٌ، هوَ التَّحليلُ

الذي اقتَرَنَ بِالبراغماتِيِّينِ تشارلز بيرس Charles Peirce* (1934) وجون ديوي John Dewey** (1938)، مُفادُهُ أَنَّ الصِّدقَ مَقبولِيَّةٌ عَقلانِيَّةٌ مُؤَمثَلَةٌ. أي إنَّ العِبارَةَ التَّقريرِيَّةَ S لا تَكونُ صادِقَةً إلّا إذا أَقَرَّ بِها كُلُّ مَن يَبحَثُ فيها في ظِلِّ شُروطٍ مِثالِيَّةٍ مَعرِفِيًّا. وقَد افتُرِضَ أَنَّ هذهِ الجُملَةَ الشَّرطِيَّةَ المُزدَوِجَةَ تَصِحُّ في جَميعِ الجُمَلِ القابِلَةِ لِلصِّدقِ. وقَد دافَعَ هِلاري بَتْنام Hilary Putnam*** في مَرحَلَةٍ مِن المَراحِلِ عن مُقتَرَحٍ وَثيقِ الصِّلَةِ بِذلكَ، إذ قالَ:

> الصِّدقُ أَمثَلَةٌ لِمَقبولِيَّةٍ عَقلانِيَّةٍ. فنَحنُ نَتَحَدَّثُ كما لَو كانَ ثَمَّةَ شَيْءٌ يُدعَى شُروطًا مِثالِيَّةً مَعرِفِيًّا، ونَحنُ نَقولُ عن عِبارَةٍ تقريرِيَّةٍ مّا إنَّها 'صادِقَةٌ' إذا كانَتْ مُسَوَّغَةً في ظِلِّ شُروطٍ كهذهِ. ولا شَكَّ في أَنَّ 'الشُّروطَ المِثالِيَّةَ مَعرِفِيًّا' تُشبِهُ 'السُّطوحَ غَيرَ الاحتِكاكِيَّةِ': إذ لا يُمكِنُنا واقِعِيًّا أن نَحصُلَ على شُروطٍ مِثالِيَّةٍ مَعرِفِيًّا، بَل لا يُمكِنُنا حَتّى أن نكونَ مُوقِنِينَ تَمامًا بِأَنّا قد اقتَرَبْنا مِنها بِما يَكفي. بَيدَ أَنّا لا يُمكِنُنا أيضًا أن نَحصُلَ على السُّطوحِ غَيرِ الاحتِكاكِيَّةِ، ومعَ ذلكَ نَحنُ نَتَحَدَّثُ عنها حَديثَنا عَن 'حاضِرٍ مَوجودٍ' لأَنَّ بِإمكانِنا تَقريبَها إلى دَرَجَةٍ عالِيَةٍ جِدًّا مِن التَّقريبِ. (1981, p. 55) [113]

---

* تشارلز ساندرز بيرس (1839–1914م). سيميائيٌّ، وفَيلَسوفٌ أمريكيٌّ. يُعَدُّ مُؤَسِّسَ البراغماتيَّةِ معَ وِلِيَم جَيمس، ويُعَدُّ كذلكَ أَحَدَ مُؤَسِّسي السِّيميائيّاتِ المُعاصِرةِ معَ دو سوسير. مِن آثارِهِ: (المصادَفَةُ، والحُبُّ، والمنطِقُ: مَقالاتٌ فَلسَفِيَّةٌ)؛ و(البُحوثُ الكامِلَةُ لِتشارلز ساندرز بيرس)؛ و(العَناصِرُ الجَديدَةُ لِلرِّياضِيّات). [المُترجِم]

** جون ديوي (1859–1952م). فَيلَسوفٌ، وعالِمُ نَفسٍ، ومُصلِحٌ تَربَويٌّ أمريكيٌّ، وزَعيمٌ مِن زُعَماءِ الفَلسَفَةِ البراغماتيَّةِ، ومِن مُؤَسِّسي عِلمِ النَّفسِ الوَظيفيِّ، ويُقالُ إنَّهُ هو مَن أَطالَ عُمُرَ الفَلسَفَةِ البراغماتيَّةِ، واستَطاعَ أن يَستَعمِلَ بِلَباقَةٍ كلمَتَيْنِ قريبتَيْنِ مِن الشَّعبِ الأمريكيِّ، هُما العِلمُ والديمُقراطيَّةُ. مِن مُؤَلَّفاتِهِ: (عِلمُ النَّفسِ الجَديد)؛ و(المدرَسَةُ والمُجتَمَع)؛ و(المبادِئُ الأخلاقِيَّةُ في التَّربِيَة)؛ و(كَيفَ نُفَكِّرُ)؛ و(الفَلسَفَةُ والحَضارَة). [المُترجِم]

*** هِلاري وايتهول بَتْنام (1926–2016م). فَيلَسوفٌ، ورياضِيٌّ، وحاسوبِيٌّ أمريكِيٌّ، وشَخصيَّةٌ كَبيرَةٌ في الفَلسَفَةِ التَّحليليَّةِ في النِّصفِ الثّاني مِن القَرنِ العِشرينَ. كانَتْ لَهُ إسهاماتٌ مُهِمَّةٌ في فَلسَفَةِ العَقلِ، وفَلسَفَةِ اللُّغَةِ، وفَلسَفَةِ الرِّياضِيّاتِ، وفَلسَفَةِ العِلم. مِن آثارِهِ: (فَلسَفَةُ المَنطِق)؛ و(المَعنى والعُلومُ الأخلاقِيَّة)؛ و(العَقلُ، والصِّدقُ، والتّاريخ). [المُترجِم]

ومِن الواضِحِ أَنَّ بَنْتام لا يَرمي إلى تَقديمِ تَعريفٍ لِلصِّدقِ بَل يَقصِدُ إيضاحَ الفِكرَةِ. والنُّقطَةُ الأَساسِيَّةُ التي جاءَ بِها بَنْتام هيَ أَنَّ الصِّدقَ قَد يَستَغني عن التَّسويغِ *هُنا والآنَ* - أَي ما يَبدو لَنا مُسَوَّغًا استِنادًا إلى دَليلٍ مُتَوافِرٍ حالِيًّا - لكِنَّهُ لا غِنى لَهُ عن التَّسويغِ كُلِّهِ: 'فادِّعاءُ أَنَّ عِبارَةً تَقريرِيَّةً مّا صادِقَةٌ يَعني ادِّعاءَ أَنَّها يُمكِنُ أَن تَكونَ مُسَوَّغَةً' (1981, p. 56). وزِيادَةً على بَنْتام وبيرس، كُنّا قَد أَورَدْنا تَحليلَ الصِّدقِ بِوَصفِهِ قابِلِيَّةَ تَقريرٍ مُسَوَّغَةً تَجعَلُ الصِّدقَ مُرتَبِطًا بِتَلبِيَةِ مَعاييرِ التَّسويغِ[5]. وفي مُؤَلَّفٍ أَحدَثَ مِن ذلكَ تَناوَلَ الصِّدقَ، اقتَرَحَ كرِسبِن رايت *قابِلِيَّةَ التَّقريرِ المُفرِطَةَ superassertibility* بِوَصفِها خِيارًا لِقابِلِيَّةِ التَّقريرِ المُسَوَّغَةِ أَكثَرَ إقناعًا (Wright, 1992). فالعِبارَةُ التَّقريرِيَّةُ تَكونُ قابِلَةً لِلتَّقريرِ بِإفراطٍ إذا أَمكَنَ تَسويغُها ويَستَمِرُّ هذا التَّسويغُ في ظِلِّ أَيِّ تَحَسُّنٍ اعتِباطِيٍّ لِمَعلوماتِنا[6].

ورُبَّما يَكونُ قَد اتَّضَحَ سَبَبُ رَفضِ مُقارَبَةِ القيمَةِ الظّاهِرِيَّةِ لِلأَدنَوِيَّةِ. فالذي يُمَيِّزُ الأَدنَوِيَّةَ عُمومًا نَظَرُها إلى الصِّدقِ على أَنَّهُ تَنقُلُهُ العِباراتُ التَّقريرِيَّةُ التي هيَ قابِلَةٌ لِلتَّسويغِ مِن حَيثُ المَبدَأُ: فَإنَّها في ظِلِّ شُروطٍ مَعرِفِيَّةٍ مُعَيَّنَةٍ تَفي بِمُقتَضَياتِ مَعاييرَ لِلتَّسويغِ ذاتِ صِلَةٍ. ولأَنَّ الصِّدقَ مُرتَبِطٌ بِمُمارَساتٍ تَسويغِيَّةٍ، يُمكِنُ القَولُ إنَّهُ *مُقَيَّدٌ بِالدَّليلِ*؛ فَلا يُمكِنُ أَن تُوجَدَ حَقائقُ تُعجِزُ قُدرَتَنا (مِن حَيثُ المَبدَأُ) على تَسويغِها. والصِّدقُ مُقَيَّدٌ *بِالمَعرِفَةِ* أَيضًا لأَنَّ جَميعَ الحَقائقِ يَجِبُ، لِلسَّبَبِ السّابِقِ نَفسِهِ، أَن تَكونَ قابِلَةً لِلمَعرِفَةِ مِن حَيثُ المَبدَأُ. وحَتّى إذا لَم نَعرِف فِعلِيًّا: هَل الجُملَةُ صادِقَةٌ أَو ليسَ لَها (هُنا والآنَ) دَليلٌ على صِدقِها، يَرَى الأَدنَوِيُّونَ أَنَّ صِدقَها مُرتَبِطٌ مَفهومِيًّا بِأَنّا مِن المُمكِنِ أَن نَكونَ في وَضعٍ نَكونُ بِهِ في وَضعٍ نَعلَمُ بِهِ أَنَّها صادِقَةٌ أَو أَنَّ لَها دَليلًا كافِيًا على صِدقِها. وبِعَكسِ ذلكَ، تَذهَبُ مُقارَبَةُ القيمَةِ الظّاهِرِيَّةِ إلى أَنَّ الصِّدقَ مُناظَرَةٌ لِلوَقائعِ يَكونُ فيها لَيسَ (أَو لا يَجِبُ أَن

---

(5) دافَعَ عن هذا المَذهَبِ نيل تيننت Neil Tennant (1995) ومَعَهُ آخَرُونَ.

(6) يُنظَر: Wright (1992, ch. 2). ولِلوُقوفِ على مُناقَشَةٍ حَديثَةٍ لِذلكَ، يُنظَر: Wright (2003)؛ وعلى تَقويمٍ نَقدِيٍّ، يُنظَر: Tennant (1995)، و Kenyon (1999).

يَكونَ) مُقيَّدًا بِالمَعرفَةِ أو بِالدَّليلِ: فالصِّدقُ ليسَ مُرتَبِطًا بِمُمارَساتِنا التَّسويغِيَّةِ. فمِنَ المُمكِنِ، إستِنادًا إلى نَظريَّةِ القيمَةِ الظّاهريَّةِ، أن تُوجَدَ حَقائقُ غَيرُ قابِلَةٍ لِلعِلمِ بِها أو مُتَعالِيَةٌ على الدَّليلِ. وسَأُطلِقُ على تَصَوُّرِ القيمَةِ الظّاهريَّةِ لِلصِّدقِ اسمَ التَّصَوُّرِ *المَتينِ* بِإزاءِ التَّصَوُّرِ الأدنَويِّ لِلصِّدقِ الذي يُدافِعُ عنهُ الأدنَويُّونَ.

ومِنَ الحَقائقِ المُهِمَّةِ المُتعلِّقَةِ بِالتَّحليلاتِ الأدنَويَّةِ المُعاصِرَةِ، ولا سِيَّما تَحليلُ رايت، أنَّها لَم تَنطَوِ على مُحاوَلَةٍ لِتَقديمِ تَعريفٍ لِلصِّدقِ. فالأدنَويُّ في أحَدِ حُقولِ الخِطابِ لا يَلتَزِمُ ادِّعاءَ أنَّ الصِّدقَ يَجِبُ أن يَكونَ مُقَيَّدًا بِالدَّليلِ أو بِالمَعرِفَةِ في جَميعِها. مِثالُ ذلكَ أنَّ بِإمكانِ الأدنَويِّ بِشَأنِ الصِّدقِ في الدِّينِ أن يَعتَقِدَ على نَحوٍ مُتَّسِقٍ معَ ذلكَ أنَّ الصِّدقَ في العِلمِ أكثَرُ مَتانَةً. والواقِعُ أنَّ هذا بِالتَّحديدِ هوَ ما يَتَبَنّاهُ بَعضُ الأدنَويِّينَ بِشأنِ الخِطابِ الدِّينِيِّ: أنَّ الصِّدقَ في الدِّينِ يَنبَغي أن يُقَدَّمَ لَهُ تَحليلٌ أدنَويٌّ بِالقِياسِ إلى الصِّدقِ في الخِطاباتِ الوَصفِيَّةِ الأُخرَى. ويَكشِفُ هذا عن نُقطَةِ اختِلافٍ أساسِيَّةٍ أُخرَى بينَ نَظريَّةِ القيمَةِ الظّاهريَّةِ والأدنَويَّةِ. [114] فمُنَظِّرُو القيمَةِ الظّاهريَّةِ يُدافِعونَ عن أُطروحَةٍ مُوَحَّدَةٍ لِلصِّدقِ عبرَ حَقلِ الخِطابِ الدِّينِيِّ وحُقولِ الخِطابِ الأُخرَى: فلا يَختَلِفُ تَحليلُ الصِّدقِ في الدِّينِ عن تَحليلِ الصِّدقِ في العِلمِ أو التّأريخِ.

ومِنَ المُفيدِ أن يُنظَرَ إلى الأدنَويَّةِ على أنَّها بَرنامَجٌ ذو ثَلاثِ خطواتٍ. فالمَرحَلَةُ الأولَى تَبدَأُ بِوَضعِ الشُّروطِ الضَّروريَّةِ والكافِيَةِ - ويَكونُ المُخَطَّطُ غَيرُ الاقتِباسِيِّ هوَ الرَّئيسَ فيها - لاستِعمالِ المَحمولِ الصِّدقِيِّ في أيِّ حَقلٍ مِن حُقولِ الخِطابِ. وهذهِ هيَ الاستراتيجيا الانكِماشِيَّةُ. أمّا المَرحَلَةُ الثّانيَةُ فالذَّهابُ إلى أنَّ الصِّدقَ يَفي بِمُقتَضَياتِ الشُّروطِ الضَّروريَّةِ والكافِيَةِ التي تُقَدِّمُها الاستراتيجيا الانكِماشِيَّةُ إذا ما حُلِّلَ بِوَصفِهِ قابِلِيَّةَ تَقريرٍ مُسَوَّغَةً (أو فِكرَةً أُخرَى مُقَيَّدَةً بِالمَعرِفَةِ أو بِالدَّليلِ كَقابِلِيَّةِ التَّقريرِ المُفرِطَةِ، وما إليها). وهذهِ هيَ الاستراتيجيا الأدنَويَّةُ. وأمّا المَرحَلَةُ الثّالِثَةُ فالذَّهابُ إلى أنَّ الصِّدقَ في الدِّينِ هوَ قابِلِيَّةُ تَقريرٍ مُسَوَّغَةٌ (أو فِكرَةٌ أُخرَى مُقَيَّدَةٌ بِالمَعرِفَةِ أو بِالدَّليلِ). وهذهِ هيَ استراتيجيا الأدنَويَّةِ الدِّينِيَّةِ. ومِن

المُهِمِّ أن يُفرِّقَ بينَ هذهِ الخطواتِ. فبإمكانِ مَن يُؤَيِّدُ مُقارَبَةَ القيمَةِ الظّاهِريَّةِ أن يَرفُضَ الخطوَةَ الأُولَى أو الخطوَةَ الثّانِيَةَ بِالذَّهابِ إمّا إلى أَنَّ الانكِماشِيَّةَ تُقَدِّمُ تَحليلًا لِلصِّدقِ غَيرَ مُرضٍ وإمّا إلى أَنَّها إذا قَدَّمَتْهُ فإنَّ الصِّدقَ لا يُمكِنُ أن يَكونَ مُقَيَّدًا بِالمَعرِفَةِ أو بِالدَّليلِ. وكذلكَ، يَستَطيعُ مُنَظِّرُ القيمَةِ الظّاهِريَّةِ أن يَقبَلَ الخطوَتَيْنِ الأُولَيَيْنِ ويَرفُضَ الخطوَةَ الثّالِثَةَ. أي إنَّ بِوُسعِ المَرءِ أن يُوافِقَ الانكِماشِيِّينَ في أَنَّ الشُّروطَ المُقتَرَحَةَ ضَرورِيَّةٌ وكافِيَةٌ لِلصِّدقِ وأن يُوافِقَهُم أيضًا في أَنَّ الصِّدقَ في بَعضِ الخِطاباتِ يَكونُ مُقَيَّدًا بِالمَعرِفَةِ أو بِالدَّليلِ لكِنَّهُ يَذهَبُ إلى أَنَّ الأَمرَ ليسَ كذلكَ في حالَةِ الخِطابِ *الدِّينِيِّ* أو الخِطاباتِ الوَصفِيَّةِ الأُخرَى. وسنَبحَثُ في هذهِ الخِياراتِ المُختَلِفَةِ ومَزاياها في الفَصلَيْنِ 10 و11.

[115]

9

الرَّدِّيَّة

إنَّ تَحديدَ مَدَى إمكانِ كَونِ مِثالٍ مَزعوم لِلرَّدِّيَّةِ الدِّينِيَّةِ اشتِراطِيًّا لِلصِّدقِ يُمكِنُ أن يَتَطَلَّبَ بَعضَ الفَكِّ[1]. مِثالُ ذلكَ أَنَّ يوهيميروس Euhemerus*، وهوَ كاتِبٌ إغريقِيٌّ مِن القَرنِ الثّالِثِ قَبلَ الميلادِ لَهُ مُؤَلَّفاتٌ في الجُغرافيا والأَساطيرِ القَديمَةِ، يُشَخَّصُ أحيانًا بِأَنَّهُ أَوَّلُ رَدِّيٍّ دينِيٍّ. وعلى الرَّغمِ مِن أَنَّ مُؤَلَّفاتِهِ لَم يَبْقَ مِنها سِوَى نُتَفٍ، يَعزو إليهِ الكُتّابُ المَسيحِيُّونَ الكلاسيكِيُّونَ والمُتَقَدِّمونَ وِجهَةَ النَّظَرِ التي مُفادُها أَنَّ آلِهَةَ الهَيكَلِ الإغريقِيِّ أَساسُها شَخصِيّاتٌ تَأريخِيَّةٌ أرضِيَّةٌ واقِعِيَّةٌ عُظِّمَتْ بَعدَ مَوتِها لإسهاماتِها في المُجتَمَعِ الإنسانيِّ ثُمَّ رُفِعَتْ لاحِقًا إلى مَرتَبَةِ الآلِهَةِ. ويُعَلِّقُ لاكتانتيوس Lactantius** الكاتِبُ المَسيحِيُّ في القَرنِ الرّابِعِ في أثناءِ

---

(1) لأنَّ الجُمَلَ اللادينيَّةَ هيَ ما يُشَكِّلُ الصِّنفَ الرَّدِّيَّ، يُترَكُ إلى الرَّدِّيِّينَ أمرُ تَحديدِ نِطاقِ صِنفِ الجُمَلِ الخِلافِيِّ، لكِنِّي أنظُرُ إلى الرَّدِّيَّةِ الدِّينِيَّةِ على أنَّها تَعُدُّ هذا الصِّنفَ مُشتَمِلًا في أَقَلِّ تَقديرٍ على جُمَلٍ تتعلَّقُ باللهِ.

* يوهيميروس القورينائيُّ (300ق.م). فَيلَسوفٌ يونانيٌّ قالَ إنَّ آلِهَةَ الأساطيرِ أبطالٌ آدَمِيُّونَ عاشوا عيشَةً واقِعِيَّةً، ثُمَّ ضَخَّمَ النّاسُ سيرَتَهُم بَعدَ مَوتِهِم تَدريجِيًّا، حتّى جَعَلوها أُسطورَةً. [المُتَرجِم]

** لوسيوس كاليوس فيرميانوس لاكتانتيوس (250-325م). إفريقيٌّ لاتينِيٌّ مُدافِعٌ عن المسيحيَّةِ. كَتَبَ باللُّغَةِ اللاتينيَّةِ في وقتٍ لَم يَكُنْ بَعدُ قَد ظَهَرَ فيهِ أحدٌ مِن المدافعِينَ في روما. سُمِّيَ شيشرون المسيحيَّ Christian Cicero، وحاولَ تقديمَ الإيمانِ في إطارٍ مَنهجيٍّ باللُّغَةِ اللاتينيَّةِ، لكِنَّهُ لَم يَكُن لاهوتيًّا أصيلًا. تحمَّسَ لِلاستشهادِ ولِلفَضائلِ المسيحيَّةِ، ولا سِيَّما =

مُناقَشَتِهِ آراءَ يوهيميروس بِقَولِهِ: 'مِمّا لا شَكَّ فيهِ أَنَّ جَميعَ الذينَ يُعبَدونَ على أَنَّهُم آلِهَةٌ كانوا بَشَرًا، وكانوا أَيضًا أَقدَمَ المُلوكِ وأَعظَمَهُم؛ لكِن مَن ذا الذي يَجهَلُ أَنَّهُم قَد أُسبِغَتْ عليهِم مَظاهِرُ الإلهِيَّةُ بَعدَ مَوتِهِم، إمّا لِما حَبَوا بِهِ الجِنسَ البَشَرِيَّ مِن فَضيلَةٍ، وإمّا لِما اكتَسَبوهُ مِن ذِكرَى خالِدَةٍ مَرَدُّها إلى ما قَدَّمُوهُ إلى حَياةِ البَشَرِ مِن مَنافِعَ ومُختَرَعاتٍ؟' (1871, p. 22).

ومِن طَرائِقِ تَطويرِ نظريَّةِ يوهيميروس، التي تَبَنّاها بِحَماسَةٍ كَثيرٌ مِن مُتَقَدِّمِي اللاهوتِيِّينَ المَسيحِيِّينَ، مُعامَلَتُها بِوَصفِها تَفسيرًا لأُصولِ الآلِهَةِ الوَثَنِيَّةِ واستِعمالُها بِوَصفِها حُجَّةً لِلتَّخذيلِ عن الإيمانِ بِها. مِثالُ ذلكَ أَنَّ أوغُسطين يَقولُ في فَصلٍ لَهُ عُنوانُهُ 'سَبَبٌ أَكثَرُ مَعقولِيَّةً لِنُشوءِ خَطَإِ العِبادَةِ الوَثَنِيَّةِ': 'إنَّهُ لَيُقَدِّمُ بَيانٌ أَكثَرُ مَقبولِيَّةً بِكَثيرٍ لِهذهِ الآلِهَةِ حينَ يُقالُ إنَّهُم كانوا بَشَرًا، وإنَّ كُلًّا مِنهُم قَد خُصَّ بِشَعائِرَ وتَوقيراتٍ مُقَدَّسَةٍ، تَبَعًا لِما يُمَيِّزُهُ مِن عَبقَرِيَّةٍ، وطَبائِعَ، وأَفعالٍ، وظُروفٍ' (1913, VII, ch. 18, p. 281)[2]. ولَيسَتْ هذهِ رَدِّيَّةً اشتِراطِيَّةً لِلصِّدقِ. إذ يُمكِنُ أَن يُقالَ ابتِداءً إنَّ يوهيميروس إنَّما يُقَدِّمُ *تَفسيرًا* لِلاعتِقاداتِ الدِّينِيَّةِ المُتَعلِّقَةِ بِهَيكَلِ الآلِهَةِ لا *تَحليلًا* لِشُروطِ صِدقِ الجُمَلِ المُتَعَلِّقَةِ بِهِم. فَلْنَفتَرِضْ، على سَبيلِ المِثالِ، أَنَّ القِصَصَ المُتعلِّقَةَ [116] بِالإلهِ الإغريقِيِّ أورانوس Uranus تَعودُ أُصولُها إلى مَلِكٍ شَريفٍ ومُحسِنٍ لَهُ اهتِمامٌ بِالفَلَكِ وقَد اعتُقِدَ بَعدَ مَوتِهِ أَنَّهُ إلهٌ يُمَثِّلُ السَّماءَ. فإنِ احتُمِلَ أَن يُمِدَّنا هذا بِبُذورِ تَفسيرِ الاعتِقاداتِ والقِصَصِ المُتَعَلِّقَةِ بِأورانوس، فإنَّهُ لا يُمِدُّنا بِأَساسٍ لِتَقديمِ شُروطِ صِدقٍ رَدِّيَّةٍ لِلجُملَتَيْنِ (1) و(2) على سَبيلِ المِثالِ:

1. أورانوس أَخصاهُ ابنُهُ كرونوس Cronus.

= محبَّةُ اللهِ والقَريبِ، فقَدَّمَ المسيحيَّةَ بوَصفِها نوعًا مِن الأخلاقيّاتِ، دونَ التَّشديدِ على عَمَلِ المسيحِ الخَلاصيِّ، أو على النِّعمةِ الإلهيَّةِ، بَل شَدَّدَ على الفَلسَفَةِ. مِن آثارِهِ: (عَن خَليقَةِ الله)؛ و(غَضَبُ الله)؛ و(مَوتُ المُضطَهَدين). [المُترجِم]

(2) لِلوُقوفِ على تَطبيقٍ شامِلٍ لِنظريَّةِ يوهيميروس على الآلِهَةِ الوَثَنِيَّةِ، يُنظَر: Clement of Alexandria, *Protrepticus* (1919).

2. أُورانوس سَجَنَ أبناءَ غايا Gaia في تارتاروس Tartarus.

فالرَّدِّيَّةُ التَّفسيرِيَّةُ مُنسَجِمَةٌ معَ حِيازَةِ هاتَيْنِ الجُملَتَيْنِ شَرطَي الصِّدقِ اللارَدِّيَّيْنِ اللَّذَيْنِ هُما *أُورانوس أَخصاهُ ابنُهُ كرونوس* و*أُورانوس سَجَنَ أَبناءَ غايا في تارتاروس*. ثُمَّ إنَّ رَدِّيَّةَ شُروطِ الصِّدقِ تُعَيِّنُ صِنفَ جُمَلٍ رَدِّيًّا يُحَدَّدُ بِهِ صِدقُ الجُمَلِ التي في الصِّنفِ الخِلافِيِّ أو كَذِبُها. فهيَ بِذلكَ نَظرِيَّةٌ لِما يُقَدِّمُ أساسًا لِصِدقِ الجُمَلِ الدِّينِيَّةِ (ولا سِيَّما أَنَّ ما يُقَدِّمُ أساسًا لِصِدقِها هوَ شَيْءٌ مّا غَيرُ ما يَبدو أَنَّ هذهِ الجُمَلَ تُخبِرُ بِهِ) لا نَظرِيَّةٌ تُبَيِّنُ *أَيَّ* الجُمَلِ الدِّينِيَّةِ صادِقَةٌ وأَيُّها كاذِبَةٌ. وبِعَكسِ ذلكَ، تَرمي نظرِيَّةُ يوهيميروس وتَطبيقُ مُتَقَدِّمِي اللاهوتِيِّينَ المَسيحِيِّينَ لَها إلى إظهارِ أَنَّ الاعتِقاداتِ الوَثَنِيَّةَ كاذِبَةٌ نِظامِيًّا: فهيَ تَخَيُّلاتٌ دينِيَّةٌ مَصدَرُ إلهامِها الأَيادي البِيضُ لِلقادَةِ الأَرضِيِّينَ[3].

وسَيَبدو التَّطويرُ الرَّدِّيُّ لِشُروطِ صِدقِ نظرِيَّةِ يوهيميروس لِلجُمَلِ المُتَعلِّقَةِ بالآلِهَةِ الإغريقيَّةِ مُختَلِفًا جَدًّا. فَلْنَفتَرِضْ، على سبيلِ المِثالِ، أَنَّ شُروطَ صِدقِ الجُمَلِ المُتعلِّقَةِ بالآلِهَةِ (الصِّنفِ الخِلافِيِّ) تُقَدِّمُها جُمَلٌ تتعلَّقُ بِبَشَرٍ هُم مَصدَرُ إلهامِ القِصَصِ المُتَعلِّقَةِ بالآلِهَةِ (الصِّنفِ الرَّدِّيِّ). فالحَديثُ عن الآلِهَةِ يُؤَوَّلُ بِأَنَّهُ طَريقَةٌ لِلحَديثِ عن الأَشخاصِ الذينَ كانوا مَصدَرَ إلهامِ هذهِ الاعتِقاداتِ. ثُمَّ إنَّ الجُملَةَ المُتَعَلِّقَةَ بالآلِهَةِ تَكونُ صادِقَةً إذا كانَتِ الجُمَلُ ذَواتُ الصِّلَةِ بِها في الصِّنفِ الرَّدِّيِّ التي تُقَدِّمُ لَها شُروطَ صِدقِها صادِقَةً أيضًا. فالجُملَةُ (3) الآتِيَةُ إذَن لا يُمكِنُ تَأويلُها بِأَنَّها صادِقَةٌ إلّا في حالِ كانَ (4) فَقَط:

3. أُورانوس كانَ قَوِيًّا.

4. أُورانوس-البَشَرِيُّ كانَ قَوِيًّا.

---

(3) يُنظَر: Sextus Empiricus, *Adversus Mathematicos* IX.17 (1985, p. 188)، الذي يَتَحَدَّثُ عن يوهيميروس بِوَصفِهِ مُلحِدًا.

حَيثُ يَكونُ أُورانوس-البَشَرِيُّ هوَ الشَّخصَ الذي أُلِّهَ لاحِقًا على أنَّهُ أُورانوس. ويُمَثِّلُ هذا مِثالًا بَسيطًا شَيئًا مّا لِرَدِّيَّةِ الصِّدقِ. إذ إنَّ تَقديمَ شُروطِ الصِّدقِ في الخِطابِ الرَّدِّيِّ لِجُمَلٍ كَالجُملتَيْنِ (1) و(2) يَقتَضي تَطويرًا أَكثَرَ تَنظيرِيَّةً لِلقِصَّةِ الرَّدِّيَّةِ: فهَل يُوجَدُ إنسانانِ مُناظِرانِ لِغايا وكرونوس؟ وهَل تُوجَدُ أَمكِنَةٌ واقِعِيَّةٌ مُناظِرَةٌ لِتارتاروس؟ وهَل يُتَناوَلُ الفِعلانِ 'أَخصَى' و'سَجَنَ' مِن مَنظورِ القيمَةِ الظّاهريَّةِ أو يُؤَوَّلانِ بِطَريقَةٍ مُختَلِفَةٍ؟ [117]

ولا شَكَّ في أنَّ هذا المِثالَ ليسَ سِوَى مِثالٍ تَوضيحِيٍّ؛ فالنَّظرِيَّةُ الرَّدِّيَّةُ التي على هذهِ الصُّورَةِ غَيرُ مَقبولَةٍ البَتَّةَ. على أنّا لَيسَتْ بِنا حاجَةٌ إلى الخَوضِ في تَفصيلاتِ أُطروحَةٍ كهذهِ لِنَرَى السِّماتِ المُمَيِّزَةَ لِرَدِّيَّةِ شُروطِ الصِّدقِ. فبَدَلًا مِن إظهارِ أنَّ الجُمَلَ المُتعلِّقَةَ بِالآلِهَةِ تَخَيُّلاتٌ تَتعَلَّقُ بِشَخصِيّاتٍ تَاريخِيَّةٍ مُؤثِّرَةٍ، تُقدِّمُ رَدِّيَّةُ شُروطِ الصِّدقِ تَأويلًا لِمَعناها يَرمي إلى تَخليصِها مِن الاختِراعِ ومِن المُبالَغَةِ الميتافيزيقيَّةِ.

ويَرمي كَثيرٌ مِن الرَّدِّيِّينَ الدِّينيِّينَ (كالطَّبيعِيِّينَ الأَخلاقِيِّينَ، على نَحوٍ مّا) إلى تَقديمِ تَحليلٍ لِلُّغَةِ الدِّينيَّةِ يَجعَلُها مُنسَجِمَةً معَ الميتافيزيقا الواحِدِيَّةِ (المادِّيَّةِ) أو مَعَ الطَّبيعِيَّةِ. فالوَقائعُ والصِّفاتُ 'الخارِقَةُ لِلطَّبيعَةِ' التي تَصِفُها الأديانُ التَّأليهِيَّةُ، كَوُجودِ مَوجودٍ إلهِيٍّ، وأَرواحٍ، وحَياةٍ بَعدَ المَوتِ، تُعَدُّ خارِجَةً عن مَدَى الوَقائعِ والصِّفاتِ المَشروعَةِ المُفتَرَضَةِ في العُلومِ الطَّبيعِيَّةِ[4]. فرَدِّيَّةُ شُروطِ الصِّدقِ التي تَرُدُّ الجُمَلَ المُتعلِّقَةَ بِاللهِ إلى جُمَلٍ تتعلَّقُ بِالطَّبيعَةِ كُلِّها (وهيَ رَدِّيَّةُ وَحدَةِ الوُجودِ) أو إلى جُمَلٍ تتعلَّقُ بِأجزاءٍ مِن الطَّبيعَةِ، تُقَدِّمُ خِياراتٍ مُثيرَةً لاهتِمامِ الواحِدِيِّينَ أو الطَّبيعِيِّينَ الذينَ يَرغَبونَ في المُحافَظَةِ على الخِطابِ الدِّينِيِّ أو في تَجَنُّبِ الإلحادِ الصَّريحِ في أَقَلِّ تَقديرٍ.

---

(4) وهذا لا يَعني أنَّ الطَّبيعِيِّينَ على صَوابٍ في اعتِقادِهِم أنَّ الكَثيرَ مِن الوَقائعِ المُفتَرَضَةِ التي تُمَيِّزُ الاعتِقادَ الدِّينيَّ لا تَنسَجِمُ معَ البَحثِ العِلمِيِّ أو لَيسَتِ المَوضوعَ المُلائمَ لَهُ؛ على أنَّهُ يَشيعُ بينَ الطَّبيعِيِّينَ افتِراضُ أنَّ الأمرَ على هذا النَّحوِ.

ويُقَدِّمُ سبِنوزا مِثالًا لِلرَّدِّيَّةِ الواحِدِيَّةِ-الوَحْدوُجودِيَّةِ (Mason, 2007). إذ يَقترِحُ سبِنوزا، الذي هوَ مِن أكثَرِ المُدافِعِينَ عن وَحدَةِ الوُجودِ تَأثيرًا، طَرائقَ لِتَأويلِ الجُمَلِ المُتعلِّقَةِ بِاللهِ مِن زاوِيَةِ الوَقائعِ المُتَعلِّقَةِ بِالطَّبيعَةِ. مِثالُ ذلكَ قَولُهُ:

> الذي أَعنيهِ بِتَدبيرِ اللهِ هوَ نِظامُ الطَّبيعَةِ الرّاسِخُ والثّابِتُ، أو سِلسِلَةُ الأحداثِ الطَّبيعِيَّةِ... والقَوانينُ الكُلِّيَّةُ لِلطَّبيعَةِ التي تَحدُثُ جَميعُ الأشياءِ وتُحَدَّدُ على وَفقِها لَيسَتْ سِوَى أَقضِيَةِ اللهِ الأَبَدِيَّةِ، التي تتضَمَّنُ على الدَّوامِ صِدقًا وضَرورَةً أَبَدِيَّيْنِ. فليسَ ثَمَّةَ فَرقٌ إذَن بينَ قَولِنا إنَّ جَميعَ الأشياءِ تَحدُثُ على وَفقِ قَوانينِ الطَّبيعَةِ وقَولِنا إنَّها تُنَظَّمُ بِقَضاءِ اللهِ وتَدبيرِهِ. (2002, p. 417)

فالذي يَراهُ سبِنوزا أَنَّهُ لَمّا كانَتْ جَميعُ أفعالِ البَشَرِ نِتاجَ نِظامِ الطَّبيعَةِ المُحَدَّدِ سَلَفًا، أمكَنَنا - بِاتِّباعِنا الاستراتيجيا الرَّدِّيَّةَ - أن نَقولَ إنَّهُ ما مِن فِعلٍ لأَحَدٍ إلّا بِمَشيئَةِ اللهِ. وكذلكَ يُمكِنُنا أن نَقولَ إنَّهُ لَمّا كانَ جَميعُ ما يُمكِنُنا إنجازُهُ إنَّما تُوَلِّدُهُ أفعالُنا مِن خِلالِ شُروطٍ خارِجِيَّةٍ، أمكَنَ أن تُفهَمَ جَميعُ هذهِ الإنجازاتِ على أَنَّها نَتيجَةُ العِنايَةِ الإلهِيَّةِ. فصِدقُ الجُملَةِ (5) إذَن، على سبيلِ المِثالِ، تُقَدِّمُهُ الجُملَةُ (6):

5. لا أَحَدَ يَفعَلُ شَيئًا إلّا بِمَشيئَةِ اللهِ.
6. جَميعُ الأفعالِ نِتاجُ نِظامِ الطَّبيعَةِ المُحَدَّدِ سَلَفًا. [118]

ويَقتَرِحُ سبِنوزا، على نَحوٍ لَم يُعتَدْ لَدى الرَّدِّيِّينَ الدِّينِيِّينَ، طَرائقَ لِرَدِّ الجُمَلِ التي لا تتعلَّقُ بِاللهِ فقط بَل تتعلَّقُ أيضًا بِأُمورِ الاعتِقادِ الدِّينِيِّ الأُخرى. مِثالُ ذلكَ أَنَّهُ يَقولُ إنَّ 'اختيارَ اليَهودِ لا يُحيلُ إلّا على الواقِعَتَيْنِ الآتِيَتَيْنِ: رَخائهِم وحُرِّيَّتِهِم المادِّيَّيْنِ الزَّمَنِيَّيْنِ - أي استِقلالِهِم السِّياسِيِّ' (2002, p. 420) ويَذهَبُ إلى أَنَّ 'الرُّوحَ القُدُسَ نَفسَهُ ليسَ سِوَى سَلامِ العَقلِ الذي يَنجُمُ عن أفعالِ الخَيرِ' (2002, p. 525). ويُلحَظُ أيضًا أنَّ سبِنوزا اعتَقَدَ أَنَّ رَدِّيّاتِهِ المُقترَحَةَ تُقَدِّمُ قِراءاتٍ مَقبولَةً لِلمَضمونِ المَقصودِ لِلأقوالِ الدِّينِيَّةِ، ومنها نُصوصُ الكِتابِ المُقَدَّسِ. ويَقولُ: 'لا يَعني الكِتابُ

المُقَدَّسُ نَفسُهُ بِأقضِيَةِ اللهِ وإراداتِهِ ومِن ثَمَّ بِالعِنايَةِ الإلهِيَّةِ سِوَى نِظامِ الطَّبيعَةِ' (2002, p. 445)؛ و'إنَّ المُعجزَةَ في الكِتابِ المُقَدَّسِ لا يُمكِنُ أن تَعنِيَ شَيئًا... سِوَى حَدَثٍ طَبيعِيٍّ يُجاوِزُ، أو يُعتَقَدُ أنَّهُ يُجاوِزُ، الفَهمَ البَشَرِيَّ' (2002, p. 448).

وقَد أصبَحَتِ التَّأويلاتُ الطَّبيعِيَّةُ لِلُّغَةِ الدِّينِيَّةِ شائعَةً في عِشرينِيّاتِ القَرنِ العِشرِينَ في كُلٍّ مِن بريطانيا وأمريكا. مِثالُ ذلكَ أنَّ جوليان هَكسلي يَتَّخِذُ مَوقِفًا أكثَرَ تَعاطُفًا تُجاهَ الدِّينِ مِن العَقلانِيِّينَ البريطانِيِّينَ المُعاصِرينَ الذينَ يَعتَقِدونَ أنَّ الاعتِقادَ والخِطابَ الدِّينِيَّيْنِ يَنبَغي أن يُهجَرا كُلِّيًّا[5]. ويَرَى أنَّ الحَديثَ عن اللهِ يُمكِنُ أن يُفهَمَ على أنَّهُ طَريقَةٌ لِلحَديثِ عن القُوَى الفاعِلَةِ في الطَّبيعَةِ أو عن جَوانِبِ الطَّبيعَةِ التي لا نَفهَمُها. ويُقَدِّمُ أيضًا تَأويلًا طَبيعِيًّا لِمَفاهيمَ مَسيحِيَّةٍ أُخرَى كالرُّوحِ القُدُسِ وابنِ اللهِ، إذ يَقولُ: 'اللهُ الآبُ تَجسيدٌ لِقُوَى الطَّبيعَةِ اللابَشَرِيَّةِ؛ واللهُ الرُّوحُ القُدُسُ يُمَثِّلُ جَميعَ المُثُلِ؛ واللهُ الابنُ يُجَسِّدُ الطَّبيعَةَ البَشَرِيَّةَ في أرفَعِ مُستَوَياتِها... واتِّحادُ الأشخاصِ الثَّلاثَةِ في 'الله الواحِد' يُمَثِّلُ حَقيقَةَ أنَّ جَميعَ جَوانِبِ الواقِعِ هذهِ مُتَرابِطَةٌ تَرابُطًا ليسَ لَهُ انفِصامٌ' (1927, p. 37). وعلى الرَّغمِ مِن رَفضِ هَكسلي فِكرَةَ أنَّ اللهَ مَوجودٌ مُتَعالٍ، يَرَى أنَّ اللهَ يُمكِنُ عَدُّهُ مُحايِثًا لِلعالَمِ (1931, pp. 182-185). وهوَ يَرَى القيمَةَ في التَّجرِبَةِ الدِّينِيَّةِ طَريقَةً يَنسَجِمُ بِها البَشَرُ سايكولوجِيًّا معَ مَوضِعِهِم في الكَونِ؛ بَل إنَّهُ لَيَمنَحُ أفعالَ العِبادَةِ المُنسَجِمَةَ مَعَ تَأويلِهِ الرَّدِّيِّ لِلدِّينِ دَورًا بِوَصفِها يُمكِنُ أن تُشَكِّلَ جُزءًا مِن مَوقِفٍ مُوَقِّرٍ مُلائمٍ تُجاهَ الطَّبيعَةِ.

ومِن الشَّخصِيّاتِ المُتَقَدِّمَةِ المُؤَثِّرَةِ في التَّقليدِ الأمريكِيِّ لِـ 'الطَّبيعِيَّةِ الدِّينِيَّةِ' أو 'التَّجريبِيَّةِ الدِّينِيَّةِ' هِنري ويمان وبرنارد ميلَند Bernard Meland*. إذ يُقَدِّمُ

---

(5) لِلوُقوفِ على مَزيدٍ مِن المُناقَشَةِ لِذلكَ، يُنظَر: Bower (2001).

* برنارد يوجين ميلَند (1899–1993م). لاهوتِيٌّ مَسيحِيٌّ تَحَرُّرِيٌّ كلاسيكِيٌّ. أسَّسَ رُؤيَةً لِلعالَمِ تَأليهِيَّةً دينيَّةً مُضادَّةً بِشِدَّةٍ لِلإنسانيَّةِ العَلمانيَّةِ الإلحادِيَّةِ. وقَد وَصَلَتْ رُؤيَتُهُ لِلعالَمِ بينَ المعرفَةِ والإيمانِ، وكانَتْ على نَمَطِ ما اختَطَّهُ هِنري نِلسن ويمان لِنَفسِهِ. على أنَّ رُجوعَ جُذورِ =

ويمان مِن خِلالِ عَمَلِهِ عَدَدًا مِن طَرائقِ تَأويلِ الحَديثِ عن اللهِ مِن زاوِيَةٍ طَبيعِيَّةٍ، مُطابِقًا في العادَةِ بينَ اللهِ وعَمَلِيّاتٍ طَبيعِيَّةٍ في الكَونِ تُوَلِّدُ نَتائجَ مَرغوبًا فيها أخلاقِيًّا أو اجتِماعِيًّا أو تُيَسِّرُها. مِثالُ ذلكَ أنَّهُ يَذهَبُ إلى أنَّ اللهَ هوَ 'التَّفاعُلُ بينَ الأفرادِ، والجَماعاتِ، والأجيالِ، الذي يُوَلِّدُ أكبَرَ ما يُمكِنُ مِن تَبادُلِ النَّفعِ ويُعَزِّزُهُ' (1932, p. 15)، [119] أو أنَّ اللهَ هوَ 'التَّفاعُلُ الذي يَدعَمُ الشَّخصِيَّةَ ويُمَجِّدُها... عَمَلِيَّةُ التَّكامُلِ التَّصاعُدِيّ' (1932, p. 351). ويَزيدُ عَلى ذلكَ أنَّ اللهَ - حينَ يُتَصَوَّرُ بِوَصفِهِ 'تَفاعُلًا' - يُمكِنُ أن يَكونَ الموضوعَ المُلائمَ لِلمَحَبَّةِ والصَّلاةِ. 'فهَل يُمكِنُ أن يُصَلِّيَ البَشَرُ لِتَفاعُلٍ؟ نَعَم، هذا ما يُصَلُّونَ لَهُ دائمًا، بِمُقتَضى أيِّ مَفهومٍ لِلّهِ. وهَل يُمكِنُ أن يُحِبَّ البَشَرُ تَفاعُلًا؟ نَعَم، هذا ما يُحِبُّونَهُ دائمًا' (1932, p. 17). ويَرَى ميلَند أنَّ 'الله' يُحيلُ على قُوًى طَبيعِيَّةٍ تُوَلِّدُ بِنًى دالَّةً مُنَظَّمَةً وجَمالِيَّةً أو أخلاقِيَّةً في الكَونِ. 'فاللهُ بِوَصفِهِ مَفهومًا دينِيًّا تَمثيلٌ جَمعِيٌّ لِعَلاقاتٍ داعِمَةٍ مُعَيَّنَةٍ ذَواتِ لَوازِمَ كَونِيَّةٍ' (1976, p. 176).

ومِمّا يَلفِتُ الانتِباهَ أيضًا كِتاباتُ غوردن كوفمان، وهوَ شَخصِيَّةٌ قِيادِيَّةٌ في تَطَوُّرِ اللاهوتِ التَّحَرُّرِيِّ الحَديثِ. إذ يَلحَظُ في كَثيرٍ مِن الحالاتِ أنَّ الظَّواهِرَ الطَّبيعِيَّةَ التي هيَ أساسِيَّةٌ في إعطاءِ حَياتِنا مَعنًى شَديدَةُ الغُموضِ؛ مِثالُ ذلكَ أنَّ البَشَرَ لَهُم قابِلِيَّةُ الوَعيِ والتَّفكيرِ ويُمكِنُهُم تَقويمُ الجَمالِ. ويَرَى أنَّ 'الله' هوَ الاسمُ الذي يُمنَحُهُ 'السِّرُّ المُتَغَلغِلُ' الذي يَمنَحُ الحَياةَ مَعنًى (2007, p. 12). ويَرَى كوفمان أنَّ دَعوَى أنَّ اللهَ 'مُطلَقٌ' أو 'غَيرُ قابِلٍ لِلوَصفِ' تُعَبِّرُ عن حَقيقَةِ أنَّ اللهَ سِرٌّ عَميقٌ. ويَنبَغي أن تُفهَمَ دَعاوَى أنَّ اللهَ 'واقِعِيٌّ' أو 'مَوجودٌ' على أنَّها تُعَبِّرُ عن اعتِقادِ أنَّ دِعامَةَ هذا 'السِّرِّ المُتَغَلغِلِ' قُوًى طَبيعِيَّةٌ تُعَزِّزُ الازدِهارَ البَشَرِيَّ الأخلاقِيَّ، والجَمالِيَّ، والاجتِماعِيَّ، وتُيَسِّرُهُ. 'والحَديثُ عن الإلهِ المَسيحِيِّ بِوَصفِهِ 'واقِعِيًّا' أو 'مَوجودًا' يُعَبِّرُ تَعبيرًا رَمزِيًّا عن الاقتِناعِ الذي مُفادُهُ أنَّ أفرادَ

= طَريقَةِ ميلَند إلى فَلسَفَةِ ألفريد نورث وايتهيد أكبَرُ مِن رُجوعِ طَريقَةِ ويمان إليها. مِن آثارِهِ: (الإيمانُ والثَّقافَة)؛ و(صَحوَةُ الإيمانِ المَسيحِيّ)؛ و(أشكالٌ ورُموزٌ غَيرُ مَعصومَةٍ: خِطاباتٌ في مَنهَجِ لاهوتِ الثَّقافَة). [المُتَرجِم]

الجَماعَةِ الأَحرارَ والمُحِبِّينَ ذَوُو أَساسٍ ميتافيزيقيٍّ جوهَرِيٍّ، أَنَّ ثَمَّةَ قُوًى كَونِيَّةً تَعمَلُ بِاتِّجاهِ هذا النَّوعِ مِن الأَنسَنَةِ' (1981, p. 49). ويُعالِجُ كوفمان أَيضًا مَسأَلَةَ السَّبَبِ الدّاعي إلى استِمرارِنا في الحَديثِ عن اللهِ. ويُشيرُ إلى قيمَةِ مُشارَكَةِ المَرءِ في الجَماعاتِ الدِّينِيَّةِ وتَعميقِ شُعورِهِ بِأَهَمِّيَّةِ التَّفكيرِ في اللهِ في تَطَوُّرِ الأَدَبِ، والفَنِّ، والفَلسَفَةِ. ويَرَى الحَديثَ عن اللهِ مُعينًا على مُقاوَمَةِ إغراءِ خَلقِ 'أَوثانٍ' مِن 'الوَقائعِ والقِيَمِ التي في عالَمِنا' (1981, p. 15).

مُشكِلاتُ الرَّدِّيَّةِ الدِّينيَّة

هَل تُقَدِّمُ رَدِّيَّةُ شُروطِ الصِّدقِ نظرِيَّةً مَقبولَةً لِلُّغَةِ الدِّينِيَّةِ؟ عَلى الرَّغمِ مِن الاهتِمامِ المُتَواصِلِ بِهذهِ النَّظرِيَّةِ، أَثمَرَتْ مُحاوَلاتُ إيجادِ الرَّدِّ تَأويلاتٍ لِلجُمَلِ الدِّينِيَّةِ تَعديلِيَّةً بِشِدَّةٍ. وسنَرَى أَنَّ هذهِ الخَصائلَ التَّعديلِيَّةَ تُمثِّلُ عَقَبَةً كَأَداءَ تَعتَرِضُ سَبيلَ أَيَّةِ مُحاوَلَةٍ لإنتاجِ رَدٍّ مَقبولٍ لِلُّغَةِ الدِّينِيَّةِ. [120]

ولِكَي نَرَى الطَّبيعَةَ التَّعديلِيَّةَ لِلرَّدِّيَّةِ الدِّينِيَّةِ، دَعُونا نَنظُرْ في نَوعِ الرَّدِّ الطَّبيعِيِّ الذي اقتَرَحَهُ هَكسلي وآخَرُونَ والذي يَرمِزُ فيهِ 'الله' إلى صِنفٍ مِن العَمَلِيّاتِ الطَّبيعِيَّةِ. فتَأويلُ بَعضِ الجُمَلِ الدِّينِيَّةِ سيَكونُ مُباشِرًا تَمامًا. ويُمكِنُ أن تُقَدِّمَ الجُملَةُ (8)، على سبيلِ المِثالِ، شَرطَ صِدقِ الجُملَةِ (7):

7. اللهُ مَوجودٌ.

8. *كَذا وكَذا* مِن العَمَلِيّاتِ الطَّبيعِيَّةِ مَوجودَةٌ.

حَيثُ يَرمِزُ *كذا وكذا* إلى العَمَلِيّاتِ التَّطَوُّرِيَّةِ أَو الفيزيائيَّةِ أَو غَيرِها مِن العَمَلِيّاتِ الطَّبيعِيَّةِ التي يَصِفُها ما يَعُدُّهُ الرَّدِّيُّونَ جُمَلًا مُحتَرَمَةً عِلمِيًّا في الصِّنفِ الرَّدِّيِّ. وبِذلكَ يَكونُ الرَّدِّيُّونَ قادِرِينَ على الإقرارِ بِالجُملَتَيْنِ (7) و(8). وتُقَدِّمُ حالاتُ الرَّدِّ الطَّبيعِيَّةُ أَيضًا مَنهَجًا لِتَأويلِ الجُمَلِ المُتعلِّقَةِ بِالفِعلِ الإلهِيِّ. فالجُملَةُ (10) الآتِيَةُ، على سبيلِ المِثالِ، يُمكِنُ أن تُقَدِّمَ شَرطَ صِدقِ الجُملَةِ (9):

9. اللهُ يَحفَظُنا.

10. *كَذا وكَذا* مِن العَمَليّاتِ الطَّبيعِيَّةِ تَحفَظُنا.

إذ سيَكونُ بِإمكانِ الرَّدِّيِّينَ أن يُقِرُّوا بِالجُملَتَيْنِ (9) و(10). على أنَّ الكَثيرَ مِن الجُمَلِ التي تَعزو صِفاتٍ إلى اللهِ تَبدو أكثَرَ إشكالًا. فَما شُروطُ الصِّدقِ التي يَنبَغي أن يُقَدِّمَها الرَّدِّيُّونَ لِلجُملَةِ (11) الآتِيَةِ، على سَبيلِ المِثالِ؟

11. اللهُ كُلِّيُّ العِلمِ.

فَتَأويلُ هذهِ الجُملَةِ بِقَولِنا إنَّ *كَذا وكَذا* مِن العَمَليّاتِ الطَّبيعِيَّةِ كُلِّيَّةُ العِلمِ يُفتَرَضُ أن يَجعَلَ الجُملَةَ كاذِبَةً. والكَثيرُ مِن الجُمَلِ المُتعلِّقَةِ بِصِفاتِ اللهِ التي يَشيعُ إقرارُ المُؤمِنينَ بِها - أنَّ اللهَ عادِلٌ، ورَحيمٌ، ومُحِبٌّ، وما إلى ذلكَ - ستَكونُ كاذِبَةً أيضًا على وَفقِ التَّأويلِ الرَّدِّيِّ. وزِيادَةً على ذلكَ، لا يُقَدِّمُ الرَّدِّيُّونَ في العادَةِ أيَّ تَأويلٍ لِمَجموعَةٍ مُختَلِفَةٍ مِن الدَّعاوَى الدِّينِيَّةِ غَيرِ المُتعلِّقَةِ بِاللهِ، نَحو 'قَد قامَ يَسوعُ' و'سيوجَدُ يَومُ حِسابٍ أخيرٌ'، وهذا يَعني أنَّ النَّظرِيَّةَ لا تُقَدِّمُ سِوَى أُطروحَةٍ جُزئيَّةٍ لِلُّغَةِ التي يَستَخدِمُها مُعظَمُ المُؤمِنينَ. وإذا لَم يُوجِدِ الرَّدِّيُّونَ تَحليلًا رَدِّيًّا، وإذا عُلِمَ عَدَمُ انسِجامِهِم معَ الوِجهَةِ الطَّبيعِيَّةِ، فلا بُدَّ أن يَجِدوا هذهِ الجُمَلَ الدِّينِيَّةَ غَيرَ المُتَعَلِّقَةِ بِاللهِ كاذِبَةً. وعلى العُمومِ، يَبدو أنَّ عاقِبَةَ الرَّدِّيَّةِ ستَكونُ نَظرِيَّةً مَغلوطَةً في ما يتعلَّقُ بِمَدًى واسِعٍ مِن الجُمَلِ الدِّينِيَّةِ.

ومِن الواضِحِ أنَّ ما يُقَدِّمُهُ الرَّدِّيُّونَ الدِّينِيُّونَ، أحيانًا في أقَلِّ تَقديرٍ، هوَ أُطروحَةٌ لِما يَنبَغي أن تَكونَهُ شُروطُ صِدقِ الجُمَلِ الدِّينِيَّةِ لا تَحليلٌ لِما هيَ عليهِ. مِثالُ ذلكَ أنَّ بَعضَ [121] الرَّدِّيِّينَ الدِّينِيِّينَ يَرفُضونَ اعتِقادَ أنَّ اللهَ شَخصٌ أو أنَّهُ خالِقٌ لِلكَونِ. ويُلحَظُ أنَّهُ إذا كانَ كوفمان يُقَدِّمُ أحيانًا نَظرِيَّتَهُ بِوَصفِها أُطروحَةً لِما يَعنيهِ الحَديثُ عن اللهِ، فإنَّهُ في أحيانٍ أُخرَى يُقَدِّمُ مُقتَرَحًا أكثَرَ تَعديلِيَّةً بِوُضوحٍ. ويَقولُ: 'الذي أراهُ هوَ أنَّ هذا الخَلقَ التَّصادُفِيَّ الكَونِيَّ هوَ ما يَنبَغي أن نُفَكِّرَ فيهِ

اليَومَ على أنَّهُ اللهُ' (Kaufman, 2007, p. 26؛ والإمالَةُ لِي)، ويَرَى أنَّ 'الفِكرَةَ التَّقليدِيَّةَ' المُتعلِّقَةَ بِفَعّالِيَّةِ اللهِ الغائيَّةِ في العالَمِ يَنبَغي أن يُستَبدَلَ بِها 'ما أُسَمِّيهِ *مَساراتٍ* أو *حَرَكاتٍ اتِّجاهِيَّةً* تَنبَثِقُ تِلقائيًا في أثناءِ التَّطَوُّراتِ النُّشوئيَّةِ والتَّأريخِيَّةِ' (2007, p. 25). ويَبدو أنَّ هَكسلي نَفسَهُ كانَ مُتَرَدِّدًا: أَيَنبَغي أن يُستَبقَى الخِطابُ الدِّينِيُّ (إلى دَرَجَةٍ مَحدودَةٍ يَكونُ فيها طَريقَةً لِلحَديثِ عن عَمَلِيّاتٍ طَبيعِيَّةٍ) أم يَنبَغي بَدَلًا مِن ذلكَ أن يُستَبدَلَ بِهِ كُلِّيًا خِطابٌ يتعلَّقُ بِظَواهِرَ طَبيعِيَّةٍ؟ وغالِبًا مّا يَجتَنِبُ المُدافِعونَ الحالِيُّونَ عن الطَّبيعِيَّةِ الدِّينِيَّةِ أيَّةَ أُطروحَةٍ رَدِّيَّةٍ مُحَدَّدَةٍ لِلُّغَةِ الدِّينِيَّةِ مُفَضِّلِينَ الحُجَّةَ التَّعديلِيَّةَ الصَّريحَةَ التي مُفادُها أنَّ الدِّينَ لا بُدَّ أن يَتَغَيَّرَ. مِثالُ ذلكَ ذَهابُ ستيوَرت كوفمان Stuart Kauffman* إلى أنَّ 'اللهَ، اللهَ الطَّبيعِيَّ تمامًا، هوَ الخَلقُ عَينُهُ الذي في الكَونِ. وهذهِ هيَ الرُّؤيَةُ التي آمُلُ إمكانَ أن تَسودَ جَميعَ تَقاليدِنا الدِّينِيَّةِ، وأن يَشمَلَ نِطاقُها مَن هُم على شاكِلَتي مِمَّن لا يُؤمِنُونَ بِإلهٍ خالِقٍ، ومَن يُؤمِنونَ بِهِ. فهذهِ النَّظرَةُ إلى اللهِ يُمكِنُ أن تكونَ قاسِمًا دينِيًّا ورُوحِيًّا مُشتَرَكًا لَنا جَميعًا' (2010, p. 6).

فهَل يُقبَلُ الدِّفاعُ عن الرَّدِّيَّةِ لِجانِبٍ مِن جَوانبِ اللُّغَةِ الدِّينِيَّةِ؟ وقَد رَأَينا في الفَصلِ السّابِقِ أنَّ الرَّدِّيِّينَ يَحتاجُونَ إلى الدِّفاعِ عن التَّأويلِ الرَّدِّيِّ لِلجُمَلِ الدِّينِيَّةِ الخِلافِيَّةِ إلى جانِبِ تَأييدِ استِبقاءِ الخِطابِ الدِّينِيِّ بَدَلًا مِن إقصائِهِ وتَفضيلِ الخِطابِ الرَّدِّيِّ عليهِ. على أنَّ التَّأويلاتِ الرَّدِّيَّةَ المُقتَرَحَةَ تَجعَلُ مَدًى واسِعًا مِن الجُمَلِ الدِّينِيَّةِ كاذِبًا، وكَذِبُها هذا يُقَدِّمُ هوَ أيضًا سَبَبًا أَوَّلِيًّا لِعَدَمِ استِعمالِها. لِذلكَ يَنبَغي أن يُتَّجَهَ بِهذهِ الجُمَلِ الدِّينِيَّةِ إلى حَيثُ يَتَوافَرُ التَّحليلُ الرَّدِّيُّ وإلى حَيثُ لا يَجعَلُ التَّحليلُ الجُملَةَ كاذِبَةً. وَلْنُسَمِّ ذلكَ صِنفَ الجُمَلِ *القابِلَ لِلرَّدِّ*. فهَل بِإمكانِ الرَّدِّيِّينَ أن يُدافِعُوا عن رَدِّيَّةٍ مَحدودَةٍ لِصِنفِ الجُمَلِ الدِّينِيَّةِ القابِلِ لِلرَّدِّ فَحَسْبُ؟

---

* ستيوَرت كوفمان (1939-...م). طَبيبٌ عِلاجِيٌّ، وأحيائيٌّ تَنظيرِيٌّ، وباحِثٌ أمريكِيٌّ في الأنظِمَةِ المُعَقَّدَةِ. دَرَسَ أصلَ الحَياةِ في الأرضِ. مِن مُؤَلَّفاتِهِ: (بُحوث)؛ و(إعادَةُ اختِراعِ المُقَدَّسِ: رُؤيَةٌ جَديدَةٌ لِلعِلمِ، والعَقلِ، والدِّين)؛ و(الإنسانيَّةُ في كَونٍ خَلّاق). [المُترجِم]

فهذهِ الاستراتيجيا تَبدو مُشكِلَةً. فَلِمَ الاستِمرارُ في استِبقاءِ تَحليلٍ رَدِّيٍّ لِصِنفِ الجُمَلِ الدِّينيَّةِ القابِلِ لِلرَّدِّ إذا كانَ ثَمَّةَ كَثيرٌ جِدًّا مِن الجُمَلِ الدِّينِيَّةِ الأُخرَى غيرِ القابِلَةِ لِلرَّدِّ في الصِّنفِ الخِلافِيِّ الذي يتضَمَّنُ خَطَأً ميتافيزيقيًّا؟ ومِن جِهَةٍ أُخرَى، لِمَ لا يُستَبدَلُ الخِطابُ الدِّينِيُّ كُلِّيًّا إن كانَ لا يَسلَمُ مِن الخَطَإِ فيهِ إلّا مَجموعَةٌ فَرعِيَّةٌ مَحدودَةٌ مِنهُ؟ فالحاصِلُ أَنَّ المُكَوِّنَيْنِ الرَّئيسَيْنِ لِلرَّدِّيَّةِ الدِّينِيَّةِ مُتعارِضانِ: فالرَّدُّ الطَّبيعِيُّ الأَكثَرُ تَعاطُفًا يُظهِرُ أَنَّ الخِطابَ الدِّينِيَّ يَحتاجُ إلى تَعديلٍ كبيرٍ إن أُريدَ لَهُ أن يُقصِيَ الخَطَأَ الميتافيزيقيَّ (الذي كانَ، في البَدءِ، سَبَبَ مُحاوَلَةِ تَقديمِ تَأويلٍ طَبيعِيٍّ لَهُ)، [122] بَيدَ أَنَّ الخَطَأَ الشّائعَ والحاجَةَ إلى تَعديلٍ كبيرٍ يُقَوِّضانِ تَأييدَ استِبقاءِ الخِطابِ الدِّينِيِّ.

ومِن المُحاوَلاتِ التي عَمَدَ إليها الرَّدِّيُّونَ لِلدِّفاعِ عن استِبقاءٍ جُزئِيٍّ لِلخِطابِ الدِّينِيِّ، بَدَلًا مِن أن يُستَبدَلَ بِهِ كُلِّيًّا حَديثٌ عن عَمَلِيّاتٍ طَبيعِيَّةٍ، المُحاوَلَةُ التي تَقَدَّمَ بِها كوفمان Kaufman. إذ يَذهَبُ إلى ما يَأتي:

> 'الله' هوَ الرَّمزُ المُجَسِّدُ لِلفَعّالِيَّةِ الكَونِيَّةِ التي خَلَقَتْ بَشَرِيَّتَنا وما زالَت تُمارِسُ ضَغطَها لِتَصِلَ إلى كامِلِ تَحَقُّقِها. ولِهذا التَّجسيدِ أفضَلِيَّةٌ لا بَأسَ بِها لِبَعضِ الأغراضِ على المَفاهيمِ المُجَرَّدَةِ كَـ 'القُوَى الكَونِيَّة' أو 'أَساس بَشَرِيَّتِنا في الطَّبيعَةِ المُطلَقَةِ لِلأَشياءِ': فرَمزُ 'الله' مَلموسٌ ومُحَدَّدٌ، وهوَ صُورَةٌ مُعَرَّفَةٌ بِدِقَّةٍ، وبِذلكَ يُمكِنُ أن يُصبِحَ مُباشَرَةً البُؤرَةَ المَركَزِيَّةَ لِلإخلاصِ والعَمَلِ. (1981, p. 50)

على أَنَّ رَدَّ كوفمان Kaufman، بَدَلًا مِن أن يُقَدِّمَ حَلًّا لِلصُّعوبَةِ المَعنِيَّةِ، يُؤَكِّدُ المُشكِلَةَ التي يُعانيها التَّأويلُ الرَّدِّيُّ. إذ يَذهَبُ كوفمان Kaufman إلى أَنَّ تَمثيلَ جَوانِبِ الطَّبيعَةِ على أَنَّها 'الله' يُقَدِّمُ لاهتِماماتِنا ومَواقِفِنا بُؤرَةً أَكثَرَ جاذِبِيَّةً مِن 'القُوَى الكَونِيَّة'. بيدَ أَنَّ في هذا إقرارًا بِأَيِّ زَعمٍ لِتَقديمِ أُطروحَةٍ لِمَعنَى 'الله'. ويَأمُلُ كوفمان Kaufman الاستِمرارَ في استِعمالِ التَّعبيرِ لا على أَساسِ تَأويلٍ رَدِّيٍّ مَقبولٍ لِمَضمونِهِ بَل لأَنَّهُ يُقَدِّمُ عَونًا سايكولوجِيًّا يتمَثَّلُ في تَعزيزِ الاهتِمامِ بِنِظامٍ اعتِقادِيٍّ طَبيعِيٍّ والحِفاظِ عليهِ.

فالرَّدِّيَّةُ الدِّينيَّةُ لا تُمِدُّنا إذَن بِأُطروحَةٍ مُرضِيَةٍ لِلُّغَةِ الدِّينِيَّةِ. فهيَ تَعديلِيَّةٌ بِدَرَجَةٍ كبيرَةٍ بِحَيثُ لا يُنظَرُ إليها على أنَّها أُطروحَةٌ لِمَضمونِ الجُمَلِ الدِّينِيَّةِ. ومُواصَلَةُ استِعمالِ اللُغَةِ الدِّينِيَّةِ على أساسِ رَدٍّ طَبيعِيٍّ لِمَضمونِها لا يُمَثِّلُ في أَحسَنِ الأَحوالِ إلّا مُداهَنَةً لِلُّغَةِ على النَّحوِ الذي يَستَعمِلُها بِهِ المُؤمِنونَ؛ ويُثيرُ، في أَسوَإِ الأَحوالِ، أَسئلَةً بِشَأنِ سَلامَةِ اعتِمادِ التَّعبيراتِ الدِّينِيَّةِ على نَحوٍ يُمكِنُ أن يَكونَ مُضَلِّلًا. وثَمَّةَ خِيارٌ مُتاحٌ لِلرَّدِّيِّينَ الدِّينِيِّينَ أَجدَرُ بِالاحتِرامِ الفَلسَفِيِّ هوَ الدَّعوَةُ إلى إقصاءِ الخِطابِ الدِّينِيِّ والسَّعيُ إلى أن يُستَبدَلَ بِهِ الخِطابُ الرَّدِّيُّ. وقَد رَأَينا آنِفًا عندَ حَديثِنا عن كوفمان Kauffman أنَّ هذهِ استراتيجيا يَتَّبِعُها الآنَ بَعضُ الطَّبيعِيِّينَ الدِّينِيِّينَ المُعاصِرينَ.

الذّاتِيَّة

قَبلَ مُغادَرَةِ مَوضوعِ الرَّدِّيَّةِ، يَجدُرُ بِنا إلقاءُ نَظرَةٍ على التَّنَوُّعاتِ الذّاتِيَّةِ لِهذهِ النَّظرِيَّةِ. فالذّاتِيَّةُ تُتابِعُ رَدِّيّاتٍ أُخرَى بِتَقديمِ شُروطِ صِدقِ الجُمَلِ الدِّينِيَّةِ مِن زاوِيَةِ [123] صِنفٍ رَدِّيٍّ لِجُمَلٍ لادينِيَّةٍ؛ وتَتَمَيَّزُ بِجَعلِها جُمَلَ الصِّنفِ الرَّدِّيِّ مُتَعَلِّقَةً بِحالاتٍ سايكولوجِيَّةٍ إنسانِيَّةٍ. ويُمكِنُ أن يُوقَفَ على صُورَةٍ مُبَكِّرَةٍ مِن صُوَرِ الذّاتِيَّةِ، وإن تَكُنْ صُورَةً غَيرَ مُكتَمِلَةٍ تَمامًا بِوَصفِها أُطروحَةً لِلُّغَةِ الدِّينِيَّةِ، في كِتاباتِ فريدرِش شلايَرماخَر Friedrich Schleiermacher*. فقد أَوَّلَ مَفهومَنا لِلّهِ

* فريدرِش دانيال إيرنست شلايرماخَر (1768–1834م). لاهوتِيٌّ وفَيلَسوفٌ، وعالِمٌ بالكِتابِ المقَدَّسِ ألمانيٌّ. عُرِفَ بِمُحاولَتِهِ التَّوفيقَ بينَ انتِقاداتِ التَّنويرِ والمسيحيَّةِ البروتستانتيَّةِ التَّقليديَّةِ. يُشَكِّلُ إسهامُهُ جُزءًا أساسيًّا في مَجالِ الهرمِنيوطيقا الحديثِ. ولأَثَرِهِ العَميقِ في الفِكرِ المسيحيِّ اللاحِقِ، غالِبًا مّا يُسَمّى "أبا عِلمِ اللاهوتِ الحَديث"، ويُعَدُّ زَعيمًا مُبَكِّرًا لِلمسيحيَّةِ التَّحَرُّرِيَّةِ. وكانَتْ حَرَكَةُ الأرثوذكسيَّةِ الجديدةِ في القَرنِ العِشرينَ، التي عادَةً مّا يُعَدُّ كارل بارث قائدًا لَها، مُحاوَلَةً لِتَحَدّي تَأثيرِهِ. مِن آثارِهِ: (مَعالِمُ العَقيدَةِ المسيحِيَّةِ)؛ و(الهرمِنيوطيقا والنَّقدُ وكِتاباتٌ أُخرى)؛ و(في الدِّينِ: خِطاباتٌ لِمُحتَقِريهِ مِن المُثَقَّفينَ). [المُترجِم]

وحَديثَنا عنهُ مِن زاوِيَةِ كَونِهِما 'شُعورًا بِالاعتِمادِ المُطلَقِ' (1928, p. 17). واعتَقَدَ أنَّ اللهَ لا يُخبَرُ خِبرَةً مُباشَرَةً في هذا الشُّعورِ بَل إنَّ خِبرَةَ الاعتِمادِ الدِّينيَّةَ تَتضَمَّنُهُ. وحينَ نَخبُرُ هذا الاعتِمادَ نَحوزُ خِبرَةَ الاعتِمادِ على شَيْءٍ مّا، وإن لَم نَخبُرِ الشَّيْءَ الذي نَعتَمِدُ عليهِ خِبرَةً مُباشَرَةً. ويَرَى شلايَرماخَر أنَّ تعبيرَ 'الله' يُسَمّي 'مَنبَعِيَّةَ وُجودِنا المُنفَتِحِ والفَعّالِ، بِوَصفِهِ مُضَمَّنًا في هذا الوَعيِ الذّاتِيِّ' (1928, p. 16). فَما نَقولُهُ عن اللهِ يَرتَدُّ مُحيلًا على هذهِ الخِبراتِ المُتَعلِّقَةِ بِالاعتِمادِ، وبَعضُ ما نَقولُهُ عن اللهِ في أقَلِّ تَقديرٍ يَنبَغي أن يُفهَمَ على أنَّهُ إبلاغٌ لِخِبراتٍ دينِيَّةٍ.

ومِن اللافِتِ لِلنَّظَرِ أنَّ فِتغِنشتاين ظَلَّ مُدَّةً وَجيزَةً بَعدَ رُجوعِهِ إلى الفَلسَفَةِ في نِهاياتِ عِشرينِيّاتِ القَرنِ العِشرينَ يَتَبَنّى على ما يَبدو نَظَرِيَّةً ذاتِيَّةً لِلدَّعاوَى الدِّينِيَّةِ، وإن يَكُن الكَثيرُ مِمّا كَتَبَ لاحِقًا أقرَبَ على ما يَبدو إلى الأدنَوِيَّةِ (ولَنا عَودَةٌ إلى هذهِ النُّقطَةِ في الفَصلِ اللاحِقِ). فَفي رِسالَةِ 'مُحاضَرَة في الأخلاقِ A Lecture on Ethics'، التي يَرجِعُ تَأريخُها إلى عامِ 1929، يُفَرِّقُ فِتغِنشتاين بينَ حالَتَيْنِ: 'دَهشَةٍ لِوُجودِ العالَمِ' و'خِبرَةِ الشُّعورِ بِالأَمنِ المُطلَقِ'. ويَنطَلِقُ بَعدَ ذلكَ لِيَقولَ:

> إنَّ أُولَى [هذهِ الخِبراتِ] هيَ، على ما أعتَقِدُ، ما كانَ النّاسُ يُحيلُونَ علَيهِ بِالتَّحديدِ عندَ قَولِهِم إنَّ اللهَ خَلَقَ العالَمَ؛ وكانَتْ خِبرَةُ الأمنِ المُطلَقِ قَد وُصِفَتْ بِالقَولِ إنّا نَشعُرُ بِالأَمنِ بينَ يَدَي اللهِ. والخِبرَةُ الثّالِثَةُ التي تَرجِعُ إلى هذا النَّوعِ نَفسِهِ هيَ خِبرَةُ الشُّعورِ بِالذَّنبِ وهيَ كذلِكَ كانَتْ قَد وُصِفَتْ بِعِبارَةِ أنَّ اللهَ لا يَرضَى عن تَصَرُّفِنا. (1993, p. 42)

ويُمِدُّنا فِتغِنشتاين بِبَعضِ التَّأويلاتِ الذّاتِيَّةِ النَّزعَةِ الفَجَّةِ فَجاجَةً تُثيرُ الاستِغرابَ لِبَعضِ الجُمَلِ الدِّينِيَّةِ، مِنها ما يَأتي:

12. خَلَقَ اللهُ العالَمَ تَعني *أنّي أشعُرُ بِالدَّهشَةِ لِوُجودِ العالَمِ*.
13. نَحنُ آمِنونَ بينَ يَدَي اللهِ تَعني *أنَّ لَدَيَّ شُعورًا بِالأَمنِ المُطلَقِ*.
14. لا يَرضَى اللهُ عن تَصَرُّفِنا تَعني *أنَّ لَدَيَّ شُعورًا بِالذَّنبِ*.

فالذي يَنجُمُ عن هذا التَّحليلِ على ما يَبدو هو أَنَّ هذهِ الجُمَلَ الدِّينِيَّةَ تكونُ صادِقَةً حينَ يَخبرُ المُتَحدِّثُ المَشاعِرَ التي تُبلِغُها هذهِ الجُمَلُ. [124]

ولا يَقتَصِرُ أمرُ الذّاتِيَّةِ على كَونِها تُعاني المُشكِلاتِ أنفُسَها التي تُعانيها الرَّدِّيَّةُ؛ بَل إنَّها تُعاني صُعوباتٍ إضافِيَّةً تَجعَلُها مِمّا يَتَعذَّرُ الدِّفاعُ عنها بِوَصفِها نظرِيَّةً لِلُّغَةِ الدِّينِيَّةِ. وقَد رَأَينا في التَّحليلِ الذّاتِيِّ في الجُمَلِ التي بينَ (12) و(14) أَنَّ مَضمونَ الجُملَةِ الدِّينِيَّةِ تُقَدِّمُهُ جُملَةٌ ذاتُ إشارِيٍّ هوَ *أنا*، الذي يُحيلُ على المُتَكلِّمِ. وبِذلكَ سيَتَغَيَّرُ صِدقُ الجُملَةِ الدِّينِيَّةِ تَبَعًا لِلمُتَكَلِّمِ. فإذا قُلتُ: 'خَلَقَ اللهُ العالَمَ' وكُنتُ قَد حُزتُ خِبرَةَ الدَّهشَةِ ذاتَ الصِّلَةِ، فما قُلتُهُ سيَكونُ صادِقًا؛ وإذا قُلتَ ذلكَ مِن غَيرِ أن تَكونَ قَد حُزتَ تلكَ الخِبْرَةَ، فما قُلتَهُ لَن يَكونَ صادِقًا. أو لِنَفترِضْ، بِتَعديلِ أَحَدِ أَمثِلَةِ فِتغِنشتاين، أَنَّ الجُملَةَ (15) تَكونُ صادِقَةً إنْ كانَتِ الجُملَةُ (16) صادِقَةً:

15. لا يَرضَى اللهُ عن الكَسَلِ.
16. أَشعُرُ بِالذَّنْبِ حينَ أَتَصَرَّفُ تَصَرُّفَ الكَسلانِ.

فالذي يَبدو أَنَّهُ سيَنجُمُ عن ذلكَ هو أَنَّ راتشيل Rachel، التي تَشعُرُ بِالذَّنبِ تُجاهَ نَوباتِ كَسَلٍ تَعتَريها، ستَكونُ مُتَكَلِّمَةً بِالصِّدقِ حينَ تَقولُ الجُملَةَ (15)، في حينِ أَنَّ جِم Jim، الذي هوَ كَسلانُ كَسَلًا لا يَشعُرُ معَهُ بِنَدَمٍ، لَن يَكونَ صادِقًا حينَ يَقولُ الجُملَةَ نَفسَها. والمُشكِلَةُ التي تَعتَرِضُ سَبيلَ تَقديمِ هذا المُكَوِّنِ الإشارِيِّ في مَضمونِ الجُمَلِ الدِّينِيَّةِ هيَ أَنَّها تُصبِحُ مُتَعَلِّقَةً بِمَشاعِرِ *المُتَكَلِّم*. ونَتيجَةُ ذلكَ تَقويضُ الخِلافِ بينَ المُتَكَلِّمِينَ. فَلْنَفترِضْ، على سبيلِ المِثالِ، أَنَّ راتشيل تَقولُ الجُملَةَ (15) وأَنَّ جِم يَقولُ: 'لا يَرضَى اللهُ عن الكَسَلِ'. فلَن تَكونَ راتشيل مُخالِفَةً لِجِم لأَنَّ ما تَقولُهُ يَتَعلَّقُ بِشُعورِها بِالذَّنبِ في حينِ أَنَّ ما يَقولُهُ جِم يَتَعلَّقُ بِشُعورِهِ: فِكِلاهُما سَيَكونُ مُتَكَلِّمًا بِالصِّدقِ، على الرَّغمِ مِن قَولِهِما شَيئَيْنِ غَيرَ مُتَناغِمَيْنِ طِبقًا لِلقيمَةِ الظّاهِرِيَّةِ. بَل لَن تَكونَ راتشيل مُصيبَةً حينَ تَقولُ إنَّ جِم

مُخطِئ، ولَن يَكونَ جِم مُصيبًا حينَ يَقولُ إنَّ راتشيل مُخطِئة. ولا يَقتَصِرُ الأمرُ على عَدَمِ إمكانِ مُخالَفَةِ راتشيل لِجِم، بَل لا يُمكِنُها كذلِكَ أن تَعتَقِدَ اعتِقادًا صادِقًا أنَّ جِم مُخطِئٌ في ما يَقولُهُ والسَّبَبُ، إن كانَ التَّحليلُ الذّاتِيُّ صَحيحًا، أنَّ ما يَقولُهُ صادِقٌ. وهذا يَصدِمُ البَداهَةَ بِشِدَّةٍ. فالخِلافُ الدِّينِيُّ يَبدو شائعًا ومُتَأَصِّلًا. فَالذّاتِيَّةُ نَظرِيَّةٌ غَيرُ مَقبولَةٍ لِما تَنطَوي عليهِ مِن تَقويضٍ لِلخِلافِ بينَ المُؤمِنينَ.

[125]

10

الأَدنوِيَّة

المَصدَرُ الأَساسِيُ لِلأَدنَوِيَّةِ الدِّينِيَّةِ هوَ كِتاباتُ فِتغِنشتاين في الدِّينِ. فالكَثيرُ مِن تَعليقاتِهِ على هذا المَوضوعِ تَرمي على ما يَبدو إلى تَسليطِ الضَّوءِ على الاختِلافاتِ بينَ استِعمالِ الجُمَلِ الدِّينِيَّةِ واستِعمالِ الجُمَلِ التَّاريخِيَّةِ أو العِلمِيَّةِ (والتَّجريبِيَّةِ والوَصفِيَّةِ عُمومًا). ويَتَّجِهُ التَّأويلُ الأَدنَوِيُّ لِفِتغِنشتاين إلى أَنَّ ما يَرمي إليهِ عِندَما يَصِفُ هذهِ الاختِلافاتِ هوَ إيضاحُ مَعاييرِ التَّسويغِ الدّاخلِيَّةِ المُتَعارِضَةِ التي تُمَيِّزُ حُقولَ الخِطابِ هذهِ. إذ يُقَدِّمُ فِتغِنشتاين الدِّينَ، استِنادًا إلى هذهِ الأُطروحَةِ، على أَنَّهُ حَقلُ خِطابٍ أَو لُعبَةٌ (أَو أَلعابٌ) لُغَوِيَّةٌ، مُتَمَيِّزٌ مِن المساحاتِ الأُخرَى لِلُّغَةِ كالعِلمِ والتَّأريخِ بِما لَهُ مِن مَعاييرِ تَسويغٍ داخلِيَّةٍ مُمَيِّزَةٍ. فالذي يُستَنتَجُ مِن فِعلِ فِتغِنشتاين هذا ومِن أُطروحَةِ الصِّدقِ الأَدنَوِيَّةِ المَذكورَةِ آنِفًا، أَنَّهُ كانَ يُوضِحُ الخَصائصَ المُمَيِّزَةَ *لِلصِّدقِ* الدِّينِيِّ والأَفكارَ المُتَعَلِّقَةَ بِذلكَ أَيضًا كالواقِعِ، والوَصفِ، وما إلَيهِما. فالذي يَذهَبُ إليهِ التَّأويلُ الأَدنَوِيُّ هوَ أَنَّهُ لَم يَكُن يَسعَى إلى أن يُوجِدَ أَيَّةَ مُقارَنَةٍ مُجحِفَةٍ بينَ الدِّينِ والعِلمِ؛ إلى أن يُبَيِّنَ، على سبيلِ المِثالِ، أَنَّ الدِّينَ ما هوَ إلّا مُعَبِّرٌ عن مَواقِفَ في حينِ أَنَّ العِلمَ وَصفِيٌّ على نَحوٍ خاصٍّ. بَل كانَ يَصِفُ المَعاييرَ المُختَلِفَةَ التي تُهَيِّئُ الصِّدقَ والوَصفِيَّةَ في هذهِ الحُقولِ مِن الخِطابِ.

ويُعَزِّزُ هذهِ القِراءَةَ الأَدنَوِيَّةَ لِفِتغِنشتاين اهتِمامٌ بِالاختِلافاتِ بينَ مَعاييرِ التَّسويغِ

المُستَخدَمَةِ في الخِطابِ الدِّينِيِّ وغَيرِهِ مِن الخِطاباتِ - أنواعِ الظُّروفِ التي يَحكُمُ فيها المُؤمِنونَ على شَيْءٍ مّا بِأنَّهُ صادِقٌ، وأُسُسِ الخِلافاتِ بينَ المُؤمِنِينَ واللامُؤمِنِينَ، وما إلى ذلكَ - يَشيعُ في كِتاباتِهِ الشَّخصِيَّةِ في الدِّينِ. إذ يَلجَأُ فِتغِنشتاين، على سبيلِ المِثالِ، إلى المُقارَنَةِ بينَ الاعتِقادِ الدِّينِيِّ بِشَأنِ يَومِ الحِسابِ الأخيرِ والاعتِقاداتِ المُستَنِدَةِ إلى العِلمِ والاعتِقاداتِ الاعتِيادِيَّةِ المُتَعلِّقَةِ بِالحالاتِ القابِلَةِ لِلمُلاحَظَةِ (ويُقَدِّمُ المِثالَ الآتِيَ: 'تُوجَدُ طائرَةٌ ألمانِيَّةٌ في السَّماءِ'). وإذا كانَ المُؤمِنونَ قَد يَتَحَدَّثُونَ عن 'الدَّليل' [126] و'الأحداثِ التَّأريخِيَّةِ'، فإنَّ فِتغِنشتاين يَرَى أنَّ الدَّليلَ والأحداثَ المَذكورَةَ في سِياقٍ ذي صِلَةٍ بِالاعتِقادِ الدِّينِيِّ لا تُشَكِّلُ سَبَبًا لِلذَّهابِ إلى التَّمَسُّكِ بِهذا الاعتِقادِ على أساسِ أنَّ الدَّليلَ الذي يُقَدَّمُ لِتَأييدِ فَرضِيَّةٍ مّا يُشَكِّلُ سَبَبًا لاعتِقادِ أنَّ هذهِ الفَرضِيَّةَ صادِقَةٌ. فَفي الخِطابِ الدِّينِيِّ 'تَبدو الأسبابُ مُختَلِفَةً كُلِّيًا عن الأسبابِ الاعتِيادِيَّةِ' (1966, p. 56)، ولا تَعَلُّقَ لِلاعتِقادِ الدِّينِيِّ بِـ 'المَعقولِيَّةِ' (1966, p. 58)، ولَيسَتِ الاعتِقاداتُ الدِّينِيَّةُ بِفَرضِيّاتٍ ولا آراءٍ؛ ولا يَستَقيمُ الحَديثُ عنها على أنَّها مَوضوعاتٌ لِلمَعرِفَةِ أو على أنَّ لَها احتِمالِيَّةً عالِيَةً، وحينَ تُقَدَّمُ الوَقائعُ التَّأريخِيَّةُ لِتَأييدِ الاعتِقادِ الدِّينِيِّ، 'لا تُعامَلُ على أنَّها قَضايا تَأريخِيَّةٌ تَجريبِيَّةٌ' (1966, p. 57). على أنَّ فِتغِنشتاين لا يَدعو إلى نظرِيَّةٍ لِلخِطابِ الدِّينِيِّ أساسُها الخَطَأُ، إذ يَقولُ:

> قَد يَحدُثُ، وغالِبًا مّا يَحدُثُ اليَومَ، أن يَتَخَلّى الشَّخصُ عَن مُمارَسَةٍ مّا بَعدَ أن يَكتَشِفَ خَطَأً مّا تَقومُ عليهِ. لكِنَّ هذا لا يَحدُثُ إلّا حينَ يَكونُ تَنبيهُ الشَّخصِ على خَطَئهِ كافِيًا لِتَحويلِهِ عن وِجهَتِهِ السُّلوكِيَّةِ. لكِنَّ هذا لا يَنطَبِقُ على المُمارَساتِ الدِّينِيَّةِ لِلنّاسِ *ولِذلكَ* لا تُثارُ مَسأَلَةُ الخَطَإِ. (1993, p. 121)

فالذي يَبدو أنَّ فِتغِنشتاين يُحاوِلُ جاهِدًا في هذا المَوضِعِ أن يُشَدِّدَ على التَّعارُضِ بينَ الخِطابِ الدِّينِيِّ والخِطاباتِ المُقَرِّرَةِ لِلوَقائعِ؛ فالحَقُّ أنَّهُ يُلمِعُ إلى أنَّ الجُمَلَ الدِّينِيَّةَ تَكونُ خَطَأً إذا نُظِرَ إليها (أو إذا قُدِّمَتْ) على أنَّها مُبلِغَةٌ لِوَقائعَ عِلمِيَّةٍ أو نَظرِيّاتٍ عِلمِيَّةٍ.

ومِمّا يُؤَيِّدُ التَّأويلَ الأدنَوِيَّ لِفِتغِنشتاين أيضًا أنَّهُ كانَ مُتَعاطِفًا معَ الاستراتيجيا الانكِماشِيَّةِ، إذ يَقولُ:

> 'ف' صادِقَةٌ = ف.
>
> 'ف' كاذِبَةٌ = ليسَ ف.
>
> وإذا قيلَ إنَّ القَضِيَّةَ هيَ كُلُّ ما يُمكِنُ أن يَكونَ صادِقًا أو كاذِبًا، فإنَّ هذا القَولَ يَرتَقي إلى أن يَكونَ مَعناهُ أن يُقالَ إنّا نُسَمّي الشَّيْءَ قَضِيَّةً حينَ نُطَبِّقُ في *لُغَتِنا* حِسابَ دَوالِّ الصِّدقِ عليهِ. (1953, p. 136)

فَما دامَ مَحمولُ الصِّدقِ في الخِطابِ الدِّينِيِّ يُؤَيِّدُ مُخَطَّطَ الصِّدقِ المُقتَرَحَ ويُمكِنُ تَطبيقُهُ على الجُمَلِ الدِّينِيَّةِ، فمِنَ المُمكِنِ أن تُضمَنَ بِسُهولَةٍ قابِلِيَّةُ تَطبيقِ مَحمولِ الصِّدقِ عليها. وتَكونُ المُهِمَّةُ الفَلسَفِيَّةُ الرَّئيسَةُ عِندَئذٍ وَصفَ الاختِلافاتِ في مَعاييرِ التَّسويغِ بينَ الخِطابِ الدِّينِيِّ ومساحاتِ الخِطابِ الأُخرَى. فالخِطابُ العِلمِيُّ لا يُستَعمَلُ أُنموذَجًا لِلصِّدقِ والوَصفِ يَكونُ الخِطابُ الدِّينِيُّ بإزائهِ عاجِزًا بَل يُستَعمَلُ مَوضوعًا لِلمُقارَنَةِ يُمكِنُ الإفصاحُ بإزائهِ عن السِّماتِ التَّمييزِيَّةِ لِلصِّدقِ والوَصفِ في الخِطابِ الدِّينِيِّ. [127]

وتَرى القِراءَةُ الأدنَوِيَّةُ أن فِتغِنشتاين يَرفُضُ النَّظرِيَّتَيْنِ الرَّدِّيَّةَ والتَّعبيرِيَّةَ اللَّتَيْنِ تَذهَبانِ إلى أنَّ الجُمَلَ الدِّينِيَّةَ لَيسَتْ وَصفِيَّةً أو أنَّها لا تُمَثِّلُ وَقائعَ دينِيَّةً: فهِيَ وَصفِيَّةٌ وهيَ تُمَثِّلُ وَقائعَ دينِيَّةً، بيدَ أنَّها لَيسَتْ أوصافًا عِلمِيَّةً ولا تُمَثِّلُ وَقائعَ عِلمِيَّةً. بَل يُمكِنُ أن تَكونَ الجُمَلُ الدِّينِيَّةُ صادِقَةً، غَيرَ أنَّ المَعاييرَ التي تُسَوِّغُ على وَفقِها تَختَلِفُ عن تلكَ التي تُستَخدَمُ في العِلمِ. فالذي يَبدو إذَن هوَ أنَّ فِتغِنشتاين يُقِرُّ بالكَثيرِ مِمّا تَقتَضيهِ مُقارَبَةُ القيمَةِ الظّاهِرِيَّةِ لكِنَّهُ يَفعَلُ ذلكَ 'بِثَمَنٍ زَهيدٍ'. فالأفكارُ التي مِن قَبيلِ الصِّدقِ، والإحالَةِ، والوَصفِ، والواقِعِ، لَيسَتْ لَها مُتَطَلَّباتٌ فَلسَفِيَّةٌ ثَقيلَةٌ في الخِطاباتِ التي تَكونُ فيها فاعِلَةً بِنَجاحٍ. فبِإمكانِنا الحَديثُ عن صِدقٍ دينِيٍّ، وإحالَةٍ دينِيَّةٍ، ووَقائعَ دينِيَّةٍ، كما أنَّ بإمكانِنا الحَديثَ

عن صِدقٍ عِلميٍّ، وإحالَةٍ عِلميَّةٍ، ووَقائعَ عِلميَّةٍ، لكِن يَجِبُ أن نَنظُرَ في الطَّريقَةِ التي تُستَعمَلُ بِها هذهِ الألفاظُ في الخِطابِ الدِّينيِّ لِنكتَشِفَ ما تَعنيهِ.

وما مِن شَكٍّ في أنَّ مَسألَةَ مَدَى كَونِ فِتغِنشتاين أدنَويًّا تَختَلِفُ تَمامًا عن مَسألَةِ مَدَى كَونِ الأدنَويَّةِ الدِّينِيَّةِ مَذهَبًا يُمكِنُ الدِّفاعُ عنهُ. على أنَّهُ مِن أجلِ الحُصولِ على فِكرَةٍ أوضَحَ لِما يَذهَبُ إليهِ الأدنَويُّونَ، سأبدَأُ بِإجراءِ مُراجَعَةٍ لِبَعضِ التَّأويلاتِ الأدنَويَّةِ لِفِتغِنشتاين. وسَأُعَرِّجُ بَعدَ ذلكَ على بَعضِ الاعتِراضاتِ على النَّظريَّةِ الأدنَويَّةِ التي كانَتْ قَد أُثيرَتْ. وسأُبَيِّنُ في الفَصلِ اللاحِقِ بِالتَّفصيلِ سَبَبَ اعتِقادي إخفاقَ الأدنَويَّةِ الدِّينِيَّةِ ومَتانَةَ الصِّدقِ الدِّينيِّ.

فِتغِنشتاين والأدنَويَّة

يَتَعاطَفُ هِلاري بَتْنام مَعَ التَّأويلِ الأدنَويِّ لِفِتغِنشتاين. ويُوَجِّهُ بَتْنام الانتِباهَ إلى تَعليقاتِ فِتغِنشتاين المَشهورَةِ على مَفاهيمِ 'التَّشابُه الأُسَرِيّ'. وما يَرمي إليهِ فِتغِنشتاين في هذهِ التَّعليقاتِ هوَ الفِكرَةُ التي مُفادُها أنَّ المَفهومَ يَقتَضي شُروطًا ضَروريَّةً وكافِيَةً لِكَي يُطَبَّقَ تَطبيقًا صَحيحًا في مُختَلِفِ السِّياقاتِ. ويَبدو، بِحُكمِ البَداهَةِ، أن لا بُدَّ مِن وُجودِ شُروطٍ كهذهِ إن ظَلَّ مَعنَى المَفهومِ هوَ المَعنَى نَفسَهُ عندَ استِعمالِهِ في مُختَلِفِ السِّياقاتِ. فَلْنَنظُرْ في مَفهومِ *اللُعبَة*، بِاستِعمالاتِهِ المُتَنَوِّعَةِ - ألعاب الرُّقعَةِ، وألعاب الوَرَقِ، والألعاب الأولِمبِيَّة، وما إليها؛ فبِإمكانِنا أن نَرَى، على ما يَذهَبُ إليهِ بَتْنام، أنَّهُ بِإزاءِ كُلِّ شَرطٍ مَخصوصٍ يَظهَرُ لِيُمَيِّزَ بَعضَ أنماطِ اللُعبَةِ، ستَكونُ ثَمَّةَ شُروطٌ أُخرَى تُخفِقُ في الوَفاءِ بِمُقتَضَياتِهِ. ويُعَبِّرُ فِتغِنشتاين عن ذلكَ بِقَولِهِ: 'لَيسَ بينَ هذهِ الظَّواهِرِ شَيْءٌ مُشتَرَكٌ يَجعَلُنا نَستَعمِلُ الكلِمَةَ نَفسَها لَها جَميعًا - سِوَى أنَّ بَعضَها مُرتَبِطٌ بِبَعضٍ بِطَرائقَ مُختَلِفَةٍ' (1953, p. 65). وبَدَلًا مِن الشَّرطِ المُشتَرَكِ الضَّروريِّ والكافي لِجَميعِ استِعمالاتِ 'اللُعبَة'، تُوجَدُ شَبَكَةٌ مِن التَّشابُهاتِ والعَلاقاتِ بينَها. ويَتَّضِحُ هذا في الطَّريقَةِ التي يُفَسَّرُ بِها اللَفظُ تَفسيرًا اعتِيادِيًّا: لا بِتَقديمِ تَعريفٍ بَل بِتَقديمِ عَدَدٍ مِن الأمثِلَةِ. [128]

ويُشيرُ بَتْنام إلى أنَّ فِتغِنشتاين لَم يَكُن مَعنيًّا في المَقامِ الأوَّلِ بِمُجَرَّدِ مُلاحَظَةِ أنَّ ثَمَّةَ مَفاهيمَ مُعَيَّنَةً تُنشِئُها شَبَكَةٌ مِن التَّشابُهاتِ ولا تَفي بِمُقتَضَياتِ الشُّروطِ الضَّرورِيَّةِ والكافِيَةِ لاستِعمالاتِها، بَل كانَ يَقصِدُ كذلِكَ تَطبيقَ هذهِ النُّقطَةِ على أفكارٍ مِن قَبيلِ *اللُّغَة والإحالَة والصِّدق*، إذ يَقولُ:

> إنَّ الأفكارَ الفَلسَفِيَّةَ الكَبيرَةَ هيَ بِالتَّحديدِ ما يَرغَبُ فِتغِنشتاين في أن يُطَبِّقَ عليهِ فِكرَةَ التَّشابُهِ الأُسَرِيّ. والذي يَسعَى فِتغِنشتاين إلى إخبارِنا بِهِ هوَ، بِحَسَبِ قِراءَةِ رَش ريز Rush Rhees* (وأنا مُقتَنِعٌ بِصِحَّتِها)، أنَّ استِعمالاتِ الإحالَةِ لَيسَتْ لِها 'ماهِيَّةٌ'؛ فليسَ ثَمَّةَ شَيْءٌ مُعَيَّنٌ يُمكِنُ أن يُسَمّى إحالَةً. بَل تُوجَدُ تَشابُهاتٌ مُتَداخِلَةٌ بينَ نَوعٍ مِن الإحالَةِ ونَوعٍ آخَرَ بَعدَهُ، وهذا هوَ كُلُّ ما هوَ مَوجودٌ. وهذا يَكشِفُ، على سبيلِ المِثالِ، عَن سببِ عَدَمِ حَيرَةِ فِتغِنشتاين، في الوَقتِ الذي يَحارُ فيهِ كَثيرٌ مِن الفَلاسِفَةِ، بِشَأنِ كَيفِيَّةِ إمكانِ أن 'نُحيلَ' على كِياناتٍ تَجريدِيَّةٍ. ونَحنُ، في نِهايَةِ المطافِ، غَيرُ مُرتَبِطينَ بِالعَدَدِ 3 ارتِباطًا سَبَبِيًّا، فكيفَ يُمكِنُنا إذَن أن نُحيلَ عليهِ؟ وهَل نَعلَمُ حَقًّا أنَّ ثَمَّةَ شَيئًا كهذا البَتَّةَ؟ ويَرى فِتغِنشتاين أنَّ الحَقيقَةَ هيَ أنَّ استِعمالَ الكَلِماتِ العَدَدِيَّةِ ما هوَ إلّا استِعمالٌ مُختَلِفٌ عن استِعمالِ الكَلِماتِ التي على شاكِلَةِ بَقَرَة. فحاصِلُ طَريقَتِهِ هوَ الكَفُّ عن تَسمِيَةِ 3 'شَيئًا' أو 'كِيانًا تَجريدِيًّا' والنَّظَرُ في الطَّريقَةِ التي تُستَعمَلُ بِها الكَلِماتُ العَدَدِيَّةُ.
> (1992, pp. 167-168)

فبَتْنام يُثيرُ في هذا المَوضِعِ مُشكِلَةَ كَيفِيَّةِ فَهمِنا لِجُملَةٍ نَحوِ قَولِنا: 'يُوجَدُ عَدَدانِ أَوَّلِيّانِ بينَ 6 و12'. فالذي يَظهَرُ مِن هذهِ الجُملَةِ أنَّها تُحيلُ على كِياناتٍ تَجريدِيَّةٍ وأنَّها تُوَلِّدُ مُشكِلَةً بِشَأنِ حالَةِ الكِياناتِ التَّجريدِيَّةِ وكيفِيَّةِ إمكانِ مَعرِفَةِ أيِّ

* رَش رِيز (1905-1989م). فَيلَسوفٌ أمريكِيٌّ. أكثَرُ ما يُعرَفُ بِهِ أنَّهُ تِلميذُ الفَيلَسوفِ لودفيغ فِتغِنشتاين وصَديقُهُ والمسؤولُ عن حَقوقِ كِتاباتِهِ. وقَد حَرَّرَ هوَ وغيرترود إلزابيث مارغريت أنسكومب كِتابَ فِتغِنشتاين ذا التَّأثيرِ الكبيرِ (بُحوثٌ فَلسَفِيَّة) ونَشَراهُ بَعدَ وَفاتِهِ، فَضلًا عَن أعمالٍ أُخرى أصدَرَها لِفِتغِنشتاين. مِن مُؤَلَّفاتِهِ: (بِلا إجابات)؛ و(فِتغِنشتاين وإمكانُ الخِطاب)؛ و(في الدِّينِ والفَلسَفَة). [المُتَرجِم]

شَيْءٍ عنها. وقَد كانَ رَدُّهُ أدنَويًّا على نَحوٍ مُناسِبٍ: فالتَّخليطُ إنَّما يَنشَأُ هُنا حينَ نَستَعمِلُ الإحالَةَ، مَثَلًا، في أوصافِ العالَمِ المُدرَكِ بِوَصفِها مِعيارًا تُقَوَّمُ بِإزائِهِ الإحالَةُ في الرِّياضِيّاتِ. فعلَينا، بَدَلًا مِن ذلكَ، أن نَنظُرَ في مَعاييرِ خِطابِ الرِّياضِيّاتِ لِنَفهَمَ ما تَعنيهِ الإحالَةُ في هذا السِّياقِ. ويُوَسِّعُ بَتْنام هذا الاستِنتاجَ الأدنَويَّ لِيَشمَلَ الدِّينَ، فيقولُ:

> إنَّ استِعمالَ اللُّغَةِ الدِّينِيَّةِ يُشبِهُ حالاتِ الإحالَةِ الاعتِيادِيَّةِ ولا يُشبِهُها في الوَقتِ نَفسِهِ: لكِنَّ السُّؤالَ عن كَونِها إحالَةً 'فِعليَّةً' أو إحالَةً 'غَيرَ فِعلِيَّةٍ' سيَقودُنا إلى التَّخليطِ. إذ لا وُجودَ لِماهِيَّةٍ لِلإحالَةِ... ويُمكِنُ القَولُ بِاختِصارٍ إنَّ فِتغِنشتاين يَكشِفُ عمّا *ليسَ* بِطَريقَةٍ مُناسِبَةٍ لِفَهمِ اللُّغَةِ الدِّينِيَّةِ. فطَريقَةُ فَهمِ اللُّغَةِ الدِّينِيَّةِ لَيسَتْ مُحاوَلَةَ تَطبيقِ تَصنيفٍ ميتافيزيقِيٍّ مُعَيَّنٍ لأشكالِ الخِطابِ المُمكِنَةِ. (1992, p. 168)

ويُمكِنُ القَولُ على نَحوٍ أعَمَّ إنَّ فِتغِنشتاين عندَ بَتْنام يَنظُرُ إلى الإحالَةِ على أنَّها يُمكِنُ إنجازُها أدنَويًّا بِأيِّ خِطابٍ تَقريرِيٍّ، وكذلكَ الحالُ معَ الصِّدقِ، والوَصفِ، و[129] الوَقائعِ؛ ويَجِبُ تَوجيهُ الاهتِمامِ بَدَلًا مِن ذلكَ إلى الإحالَةِ التي تَكمُنُ في الخِطابِ الدِّينِيِّ. ويُرَى أنَّ هذهِ المَسألَةَ الأخيرَةَ قَد أوضَحَها الإفصاحُ عن مَعاييرِ التَّسويغِ الدّاخليَّةِ لِلخِطابِ الدِّينِيِّ.

والمِثالُ الآخَرُ لِلقِراءَةِ الأدنَوِيَّةِ لِفِتغِنشتاين هوَ الذي قَدَّمَهُ د.ز. فِلِبس، إذ يَقولُ:

> لا تَتَرَدَّدْ في القَولِ إنَّ 'الله' يُؤَدّي وَظيفَةَ التَّعبيرِ المُحيلِ، وإنَّ 'الله' يُحيلُ على نَوعٍ مّا مِنَ الأشياءِ، وإنَّ واقِعِيَّةَ اللهِ أمرٌ واقِعٌ، وما إلى ذلكَ. *لكِن أرجو أنْ تَتَذَكَّرَ أنَّكَ لَم تُحدِثْ، حتّى الآن، إيضاحًا مَفهومِيًّا أو نَحوِيًّا.* فما زالَ أمامَنا كُلُّ شَيْءٍ لِنَفعَلَهُ لأنَّ عَلَينا أن نُبَيِّنَ، في هذا السِّياقِ الدِّينِيِّ، مَعنَى الحَديثِ عن 'الإحالَة'، و'الشَّيْء'، و'الوُجود'، وما إليها، وكَيفِيَّةَ اختِلافِهِ، بِطَرائقَ واضِحَةٍ، عن الاستِعمالاتِ الأُخرَى لِهذهِ الألفاظِ. (1995, p. 138)

ويُلحظُ أنَّ هذا يُمثِّلُ تغيُّرًا في مَسارِ فِلِبس الذي (على ما قد رَأينا في القِسمِ الأوَّلِ) كانَ قد نازَعَ في بَواكيرِ حَياتِهِ العِلمِيَّةِ في مَدَى كَونِ الجُمَلِ الدِّينِيَّةِ أصيلَةً في قَضَويَّتِها، أو إحالَتِها، أو وَصفِيَّتِها. أمّا هُنا فهوَ يَسمَحُ بأن تكونَ الجُمَلُ الدِّينِيَّةُ وَصفِيَّةً لكِنَّهُ يُؤْثِرُ التَّأويلَ الأدنويَّ لِما يُؤَسِّسُ الوَصفِيَّةَ بِوَصفِهِ ما تُحَدِّدُهُ السِّماتُ التَّمييزيَّةُ لِلخِطابِ الدِّينِيِّ.

ويَتَّفِقُ الأدنويُّونَ الدِّينِيُّونَ عُمومًا في عددٍ مِن النِّقاطِ. أُولاها أنَّهُم يُسَلِّمونَ بِأنَّ لِلعِباراتِ التَّقريريَّةِ الدِّينِيَّةِ مَضمونًا قَضَويًّا وأنَّها يُمكِنُ أن تَكونَ صادِقَةً، ووَصفِيَّةً، وواقِعِيَّةً، وما إلى ذلكَ. وثانِيَتُها أنَّ الصِّدقَ الدِّينِيَّ والألفاظَ المُرتَبِطَةَ بِهِ تُفهَمُ على أنَّها مَفاهيمُ *داخِلِيَّةٌ لألعابٍ لُغَويَّةٍ*. فمِن أجلِ أن نَقِفَ على ما يُنشِئُ الصِّدقَ في الدِّينِ، على سبيلِ المِثالِ، نَحتاجُ إلى النَّظَرِ في المَعاييرِ الدّاخليَّةِ لِلتَّسويغِ التي تَمنَحُ الخِطابَ الدِّينِيَّ شَكلَهُ. وثالِثَتُها أنَّ الهَدَفَ الأوَّلَ لِلأدنويَّةِ، في شَكلِها الفِتغِنشتايِنِيِّ الذي تَتَّخِذُهُ في فَلسَفَةِ الدِّينِ في أقَلِّ تَقديرٍ، هوَ إيضاحُ المَعاييرِ المُختَلِفَةِ التي تُمَيِّزُ مِساحاتِ الخِطابِ المُختلِفَةَ ولا سِيَّما الإيضاحُ التّامُّ لِلاختِلافاتِ بينَ الصِّدقِ في الدِّينِ والصِّدقِ في العِلمِ أو التّأريخِ. على أنَّهُ تُوجَدُ أيضًا مِساحَةُ اختِلافٍ مُهِمَّةٌ بينَ الأدنويِّينَ الدِّينِيِّينَ.

وقد كُنتُ ذَكَرتُ في نِهايَةِ الفَصلِ 8 أنَّ الأدنَويِّينَ قَد يَذهَبونَ إلى أنَّ الصِّدقَ يَنبَغي أن يُحَلَّلَ بِوَصفِهِ مُقَيَّدًا بِالمَعرِفَةِ في بَعضِ مِساحاتِ الخِطابِ، كالدِّينِ والأخلاقِ، ومُنسَجِمًا معَ تَحليلِ الصِّدقِ بِطَريقَةٍ أكثَرَ مَتانَةً في مِساحاتٍ أُخرَى لِلخِطابِ، كالتَّأريخِ والعِلمِ. بَل إنَّ نظريَّةَ القيمَةِ الظّاهريَّةِ لِلُّغَةِ الدِّينِيَّةِ يُمكِنُ الدِّفاعُ عنها على نَحوٍ يَنسَجِمُ معَ السَّماحِ بِاستِخدامِ بَعضِ مِساحاتِ الخِطابِ مَفاهيمَ صِدقٍ مُقَيَّدَةً بِالمَعرِفَةِ، بِشَرطِ أن يَكونَ الصِّدقُ في الخِطابِ الدِّينِيِّ مَتينًا. لكِن ما الذي سيَؤُولُ إليهِ تَصَوُّرُنا المُوَسَّعُ لِلصِّدقِ، إذا كانَ بِالإمكانِ أن يَتَنَوَّعَ الصِّدقُ على هذا النَّحوِ بِتَنَوُّعِ الخِطاباتِ؟ والإجابَةُ أنَّ ثَمَّةَ مُقتَرَحَينِ. [130] فالخِيارُ الأوَّلُ، الذي يَتَبَنّاهُ فِلِبس، هوَ أنَّ 'الصِّدق' يَعني شَيئًا يَختَلِفُ بِاختِلافِ السِّياقاتِ، إذ يَقولُ:

> الواقِعِيَّةُ الدَّلالِيَّةُ هيَ الوِجهَةُ التي تَرَى أنَّ ما نَعنيهِ بِـ 'الصِّدق' واحِدٌ على الدَّوامِ، سَواءٌ أكُنّا نتحدَّثُ عن أُطروحَةٍ صادِقَةٍ لِعَدَدِ الكَراسِيِّ في غُرفَةٍ مّا، أم كُنّا نَتَحدَّثُ عن حُبٍّ صادِقٍ. فَهذِهِ الوِجهَةُ مُضطَرِبَةٌ. وما لَم نُدرِكْ وُجودَ أنحاءٍ مُختَلِفَةٍ لِـ 'الصِّدق'، فَلَن نَكونَ قادِرِينَ على فَهمِ الاعتِقاداتِ المَسيحِيَّةِ المَركَزِيَّةِ. (1995, p. 149)

فَفِلِبس يَقتَرِحُ استِعمالًا مُتَشَظِّيًا لِلصِّدقِ يَقودُ إلى نَتيجَةٍ لا يُمكِنُ تَجنُّبُها هيَ أنَّ هذا اللَفظَ مُلبِسٌ. إذ سيَكونُ لَدَينا مَفاهيمُ صِدقٍ مُتَعَدِّدَةٌ، لَها ماصَدَقاتٌ مُختَلِفَةٌ (1976, p. 142).

ويَذهَبُ كرِسبِن رايت إلى الضِّدِّ مِن ذلكَ إذ يَرَى أنَّ لِمَحمولِ الصِّدقِ شُروطَ استِعمالٍ مُعَيَّنَةً ضَروريَّةً وكافِيَةً، ولا سِيَّما المُخَطَّطُ غَيرُ الاقتِباسِيِّ DS ونَظائرُهُ مِن البَديهيّاتِ (1992, ch. 2)؛ ويَبدو، على ما يُوحي بِهِ الاقتِباسُ المُتَقَدِّمُ، أنَّ فِتغِنشتاين يُوافِقُ على ذلكَ. ويَذهَبُ رايت إلى أنَّ بِإمكانِنا قَبولَ الشُّروطِ الأساسِيَّةِ لِمَحمولِ الصِّدقِ في الوَقتِ الذي نَسمَحُ فيهِ بِإمكانِ أن يُدرَكَ الصِّدقُ *إدراكًا مُختَلِفًا* في مَجالاتِ الخِطابِ المُختَلِفَةِ. أي إنَّهُ يُمكِنُ أن يُبدِيَ الصِّدقُ سِماتٍ زائدَةً على الشُّروطِ الضَّروريَّةِ والكافِيَةِ التي يَقتَرِحُها الانكِماشِيُّونَ والتي تُمَيِّزُ استِعمالَهُ في الخِطاباتِ المَخصوصَةِ. ولِلوُقوفِ على ما يَرمي إليهِ رايت، لِنَنظُرْ في خِطابَيْنِ يَبدو أنَّ مَحمولَ الصِّدقِ فيهِما يَتَصَرَّفُ على نَحوٍ مُختَلِفٍ. ففي الحَديثِ عَمّا هوَ هَزلِيٌّ، عَلى سبيلِ المِثالِ، تَبدو الفِكرَةُ الأدنَويَّةُ التي مُفادُها أنَّ الصِّدقَ مُقَيَّدٌ بِالمَعرِفَةِ مَقبولَةً. فنَحنُ نَعُدُّ الجُمَلَ المُتعلِّقَةَ بِما هوَ هَزلِيٌّ قابِلَةً لِلصِّدقِ، لكِن لا يُوجَدُ إلّا القَليلُ مِمّا يُغرينا بِافتِراضِ إمكانِ وُجودِ حَقائقَ يَتَعَذَّرُ العِلمُ بِها بِشَأنِ ما هوَ هَزلِيٌّ، لأنّا نَعُدُّ الحَقائقَ المُتَعَلِّقَةَ بِما هُوَ هَزلِيٌّ مُرتَبِطَةً ارتِباطًا أَساسِيًّا بِالتَّقويماتِ والتَّوافُقاتِ المُراعاةِ في ما هُوَ هَزلِيٌّ. وتُعارِضُ هذهِ الحالَةَ الفيزياءُ، حَيثُ الجُمَلُ قابِلَةٌ لِلصِّدقِ أيضًا ولكِن حَيثُ لا يَكونُ لَدَينا جُنوحٌ مُشابِهٌ إلى النَّظَرِ إلى الحَقائقِ المُتَعَلِّقَةِ، مَثَلًا، بِتَكوينِ الكَواكِبِ التي كانَت تَدورُ بِشِدَّةٍ حَولَ نُجومٍ بَعيدَةٍ مَلايينَ مِن السِّنينَ في الماضي على أنَّها مِمّا يُمكِنُ العِلمُ

بِهِ حَتّى مِن حَيثُ المَبدَأ. فقد يَكونُ صِدقُ جُمَلٍ كهذهِ خارجَ مُتَناوَلِ أيِّ مَنهَجٍ مُتاحٍ لَنا لِتَحديدِ صِدقِها. لِذلكَ يَرى رايت أنَّهُ في الوَقتِ الذي يُقَدِّمُ فيهِ المُخَطَّطُ غَيرُ الاقتِباسِيِّ ونَظائرُهُ مِن البَديهِيّاتِ شُروطَ الصِّدقِ الضَّرورِيَّةَ والكافِيَةَ، يُمكِنُ أن يَلقى الصِّدقُ مَزيدًا مِن التَّكميلِ على نَحوٍ يَختَلِفُ بِاختِلافِ الخِطاباتِ. وتَكونُ الحَقائقُ المُتعلِّقَةُ بِما هوَ هَزْلِيٌّ مُقَيَّدَةً بِالمَعرِفَةِ، لكِن تُوجَدُ حَقائقُ في الفيزياءِ تَتَعالى على الدَّليلِ. لِذلكَ يَنبَغي فَهمُ الصِّدقِ في الفيزياءِ على أنَّهُ أكثَرُ مَتانَةً مِن الصِّدقِ في الخِطابِ المُتعلِّقِ بِما هوَ هَزْلِيٌّ وإن كانَ لِمَفهومَي الصِّدقِ كِلَيْهِما الشُّروطُ الضَّرورِيَّةُ والكافِيَةُ أنفُسُها. ولا شَكَّ في أنَّ هذَيْنِ المِثالَيْنِ قابِلانِ لِلجِدالِ؛ فقد يَذهَبُ بَعضُهُم إلى أنَّ الصِّدقَ في الخِطابِ الهَزْلِيِّ [131] مَتينٌ. ومَعَ ذلكَ، يَظَلُّ مُقتَرَحُ رايت العامُّ بِشَأنِ قَبولِ الصِّدقِ تَحليلاتٍ قابِلَةً لِلتَّنَوُّعِ هوَ المُقتَرَحَ نَفسَهُ.

ومِن طَريقِ المُقارَنَةِ، يَقتَرِحُ رايت مَفهومَ التَّطابُقِ. ويُمكِنُنا التَّفكيرُ في مَفهومِ التَّطابُقِ على أنَّهُ يَرتَكِزُ على مَبدَأَيْنِ: أنَّ كُلَّ شَيْءٍ مُطابِقٌ لِنَفسِهِ وأنَّ الأشياءَ المُتَطابِقَةَ تَتَشاطَرُ صِفاتِها. وبِوُسعِ هذَيْنِ المَبدَأَيْنِ أن يُكَوِّنا مَعًا الشُّروطَ الضَّرورِيَّةَ والكافِيَةَ لِلمُطابَقَةِ. بيدَ أنَّ الطَّريقَةَ التي تُحَقَّقُ بِها هذهِ الشُّروطُ ستَعتَمِدُ على مَدَى كَونِنا نَتَعامَلُ مَعَ أشياءَ مادِّيَّةٍ، وأعدادٍ، وأشخاصٍ، وما إليها (Wright, 2003, pp. 78-9). مِثالُ ذلكَ أنَّ بِإمكانِنا افتِراضَ أنَّ تَطابُقَ الأشياءِ المَحسوسَةِ يَكمُنُ دائمًا في الاستِمرارِيَّةِ الزَّمانِيَّةِ والمَكانِيَّةِ وأنَّ التَّطابُقَ العَدَدِيَّ إنَّما يَكونُ بِتَلبِيَةِ شُروطِ عَلاقَةِ التَّناظُرِ التّامِّ وأنَّ التَّطابُقَ الشَّخصِيَّ يَكمُنُ في شَيْءٍ آخَرَ، قَد يَكونُ الاستِمرارِيَّةَ السّايكولوجِيَّةَ. على أنَّ تَحديدَ مَدَى كَونِ شَخصَيْنِ مُعَيَّنَيْنِ يَعبُدانِ الإلهَ نَفسَهُ سيَكونُ أمرًا مُختَلِفًا. فسِماتُ التَّطابُقِ المَوضِعِيَّةُ المُختَلِفَةُ تَعتَمِدُ على عَدَدِ الأشياءِ التي نَنظُرُ فيها، بيدَ أنَّ هذا لَيسَ سَبَبًا لافتِراضِ أنّا نَتَعامَلُ مَعَ مَفاهيمِ تَطابُقٍ مُختَلِفَةٍ في كُلِّ حالَةٍ. إذ إنَّ لَدَينا مَفهومَ تَطابُقٍ تُقَدِّمُهُ شُروطٌ ضَرورِيَّةٌ وكافِيَةٌ مُعَيَّنَةٌ تُطَبَّقُ على جَميعِ الحالاتِ لكِنَّها مُكَوَّنَةٌ مِن شُروطٍ إضافِيَّةٍ تَعتَمِدُ على المَوضوعِ المَبحوثِ فيهِ. فكَذلكَ، على ما يَرى رايت، لَدَينا مَفهومٌ لِلصِّدقِ يَرتَكِزُ

على شُروطٍ ضَروريَّةٍ وكافِيَةٍ (وDS على نَحوٍ خاصٍّ)، لكِنَّهُ قَد يَكونُ مُكَوَّنًا على نَحوٍ مُغايِرٍ مِن شُروطٍ إضافِيَّةٍ تَبَعًا لِمَدَى كَونِنا نتحدَّثُ عن حَقائقَ دينِيَّةٍ، أو حَقائقَ عِلمِيَّةٍ، أو حَقائقَ أخلاقِيَّةٍ. ويُطلِقُ رايت على هذا اسمَ تَعَدُّدِيَّة الصِّدقِ، وهيَ مُضادَّةٌ لِمُقارَبَةِ التَّشَظّي عِندَ فِلِبس (1992, p. 38).

ويَصعُبُ العُثورُ على أيِّ شَيْءٍ يُرَجِّحُ كِفَّةَ أُطروحَةِ تَشَظّي الصِّدقِ على كِفَّةِ أُطروحَةِ تَعَدُّدِيَّةِ الصِّدقِ. فَمُقارَبَةُ التَّشَظّي تُخفِقُ، ابتِداءً، في تَمييزِ الفَرقِ بينَ مَفهومِ الصِّدقِ وتَنَوُّعِ السِّياقاتِ التي يُستَعمَلُ فيها. صَحيحٌ أنَّ مَعاييرَ التَّسويغِ التي تَمنَحُ الخِطابَ الدِّينِيَّ شَكلَهُ تَختَلِفُ عن تلكَ التي تَمنَحُ الخِطابَ العِلمِيَّ أو التَّأريخِيَّ شَكلَهُ، بيدَ أنَّ هذا لا يَنجُمُ عنهُ أنَّ مَفهومَ الصِّدقِ لَيسَتْ لَهُ شُروطٌ ضَروريَّةٌ وكافِيَةٌ تُطَبَّقُ عبرَ هذهِ الخِطاباتِ. بَل الذي يَنجُمُ هوَ أنَّ *الحَقائقَ* التَّأريخِيَّةَ (بَعضَها في أَقَلِّ تَقديرٍ) ستَكونُ مُختلِفَةً عن *الحَقائقِ* الدِّينِيَّةِ في هذَيْنِ الخِطابَيْنِ لاختِلافِ المَوضوعِ المَبحوثِ فيهِ والإجراءاتِ المُستعمَلَةِ لِتَحديدِ مَدَى كَونِ الجُملَةِ صادِقَةً.

وتُوجَدُ أيضًا اعتِراضاتٌ مُهِمَّةٌ على تَصَوُّرِ تَشَظّي الصِّدقِ. فثَمَّةَ مُشكِلَةٌ ذَكَرَها تِمثي وِليَمسن Timothy Williamson* مُفادُها أنَّهُ يَنبَغي أن يُوجَدَ مَحمولُ صِدقٍ واحِدٌ لِلُغَةٍ كاللُغَةِ الإنجليزيَّةِ. فَلْنَنظُرْ في خِطابَيْنِ، خ1 وخ2، في الإنجليزيَّةِ وعِبارَتَيْنِ تَقريريَّتَيْنِ، ع1 وع2، تَنتَمِيانِ إلى خ1 وخ2، على التَّوالي. فَـ 'ع1 أو ع2' ستَكونُ حالَةَ انفِصالٍ [132] في الإنجليزيَّةِ. ومِن بَديهِيّاتِ الصِّدقِ أن يُقالَ إنَّ الانفِصالَ صادِقٌ إذا كانَ أَحَدُ مُنفَصِلَيْهِ صادِقًا. لكِن إذا استُعمِلَ مَحمولا صِدقٍ مُختَلِفانِ في خ1 وخ2 فسيَكونُ هذا الاستِدلالُ البَديهِيُّ غيرَ سَليمٍ، لأنَّ دَعوَى أنَّ الانفِصالَ لا يَكونُ صادِقًا إلّا إذا كانَ أَحَدُ مُنفَصِلَيْهِ صادِقًا سَيَكونُ مَتَضَمِّنًا

• تِمثي وِليَمسن (1955–...م). فَيلَسوفٌ بريطانِيٌّ تَتَّجِهُ اهتِماماتُهُ البَحثِيَّةُ الرَّئيسَةُ إلى المَنطِقِ الفَلسَفِيِّ، وفَلسَفَةِ اللُغَةِ، ونَظَرِيَّةِ المَعرِفَةِ، والميتافيزيقا. مِن مُؤَلَّفاتِهِ: (الغُموض)؛ و(المَعرِفَةُ وحُدودُها)؛ و(فَلسَفَةُ الفَلسَفَة). [المُتَرجِم]

لاشتِراكٍ لَفظِيّ. وتُثارُ مُشكِلَةٌ مُشابِهَةٌ بِشَأنِ بَديهِيّاتِ صِدقٍ أُخرَى. فقاعِدَةُ الاتِّصالِ هيَ أنَّ 'ع1 وع2' لا تَكونُ صادِقَةً إلّا إذا كانَتْ ع1 صادِقَةً وع2 صادِقَةً. لكِنَّ هذا لَن يتحقَّقَ إلّا إذا طُبِّقَ مَفهومٌ واحِدٌ لِلصِّدقِ على خ1 وخ2 كِلَيْهِما. فالحالَةُ المطلوبَةُ هيَ أن يُوجَدَ مَحمولُ صِدقٍ واحِدٌ لِكِلا الخِطابَيْنِ ولِجَميعِ الخِطاباتِ في الإنجليزيَّةِ ما لَم نُرِدْ أن نتخلّى عن الإجراءاتِ المَنطقيَّةِ الأساسيَّةِ.

> فاللُّغَةُ الطَّبيعِيَّةُ مُوَحَّدَةٌ بِقُوَّةٍ في التَّركيبِ والدَّلالَةِ. إذ يُمكِنُ جَمعُ أيَّةِ مَجموعَةٍ مَحدودَةٍ مِن كَلِماتِها بَعضِها إلى بَعضٍ في ضِمنِ وَحدَةٍ واحِدَةٍ هيَ الجُملَةُ. وعلى فِكرَةِ الصِّدقِ أن تَحترِمَ هذا التَّكامُلَ وأن تَكشِفَ عَنهُ. فالحَقائقُ كَثيرَةٌ؛ أمّا الصِّدقُ فواحِدٌ. (1994, p. 141)

وأثارَت كرِستين تابوليه Christine Tappolet* (1997) اعتِراضًا مُشابِهًا. فَلْنَنظُرْ في الاستِدلالِ المُتَضَمِّنِ لِجُملَتَيْنِ تَنتَمِيانِ إلى خِطابَيْنِ مُختَلِفَيْنِ، كالاستِدلالِ بِتَناغُمِ أحوالِ الكَونِ على وُجودِ اللهِ (بِالفيزياءِ عَلى الدِّينِ) أو الاستِدلالِ بِوُجودِ اللهِ على وُجودِ الإرادَةِ الحُرَّةِ لَدَى البَشَرِ (بِالدِّينِ عَلى عِلمِ النَّفسِ). فإذا كانَتِ الخِطاباتُ مُتَضَمِّنَةً لِمَحمولاتِ صِدقٍ مُختلِفَةٍ، فلا بُدَّ عِندَئذٍ مِن أن تَكونَ جميعُ الاستِدلالاتِ التي على هذهِ الشّاكِلَةِ غَيرَ سَليمَةٍ لأنَّ السَّلامَةَ تَقتَضي المُحافَظَةَ على الصِّدقِ مِن المُقَدِّمَةِ إلى النَّتيجَةِ. فما لَم نَتَخَلَّ عن الارتِباطِ الاستِدلاليِّ السَّليمِ بينَ الخِطاباتِ، فلا بُدَّ مِن وُجودِ مَحمولِ صِدقٍ تَتَشاطَرُهُ جَميعُ العِباراتِ التَّقريرِيَّةِ التي تَظهَرُ في استِدلالاتٍ كهذهِ[1].

• كرِستين تابوليه. أُستاذَةُ كُرسِيِّ البَحثِ في كَنَدا لِعِلمِ الأخلاقِ وما بَعدَ عِلمِ الأخلاقِ، وأُستاذَةُ الفَلسَفَةِ في جامِعَةِ مونتريال في كَنَدا. أهَمُّ مَجالاتِ تَخَصُّصِها فَلسَفَةُ العَقلِ، وما بَعدَ عِلمِ الأخلاقِ، وعِلمُ الأخلاقِ المِعيارِيُّ. ومِن مَجالاتِ اهتِمامِها الأخرى نَظَرِيَّةُ المَعرِفَةِ، ونَظَرِيَّةُ القِيمَةِ، والعُلومُ المعرِفيَّةُ. مِن مُؤَلَّفاتِها: (العَواطِفُ، والقِيمَةُ، والفاعِلِيَّةُ)؛ و(رُؤًى فَلسَفِيَّةٌ في العَواطِفِ السَّلبيَّةِ: ظِلالُ الرُّوحِ، وضَعفُ الإرادَةِ، واللاعَقلانيَّةُ العَمَلِيَّةُ). [المُترجِم]

(1) لِلوُقوفِ على مُناقَشَةٍ إضافِيَّةٍ مُوَسَّعَةٍ لِهذا المَوضوعِ، يُنظَر: Pedersen and Wright (2013).

وتَنتَظِمُ تَعَدُّدِيَّةُ الصِّدقِ معَ الأَدنَويَّةِ في السَّماحِ بِالاختِلافاتِ المَوضِعِيَّةِ في استِعمالِ مَحمولِ الصِّدقِ في مُختَلِفِ الخِطاباتِ معَ المُحافَظَةِ على ما هوَ أساسِيٌّ مِن شُروطِ الصِّدقِ الضَّروريَّةِ والكافِيَةِ. لِذلكَ يَعُدُّ الأَدنَويُّونَ الدِّينِيُّونَ الصِّدقَ في الدِّينِ مُقَيَّدًا بِالدَّليلِ وبِالمَعرِفَةِ لكِنَّهُم قَد يَذهَبونَ إلى أَنَّ الصِّدقَ يَكونُ مَتينًا في مِساحاتِ الخِطابِ الأُخرَى. لِذلكَ سأَصرِفُ اهتِمامي في ما سَيَأتي إلى الأَدنَويَّةِ الدِّينِيَّةِ التَّعَدُّدِيَّةِ في الصِّدقِ.

الاعتِراضاتُ على الأَدنَويَّة

أ. فِتغِنشتاين لَم يَكُنْ أَدنَوِيًّا

سَأَبدَأُ بِالنَّظَرِ في اعتِراضٍ على التَّأويلاتِ الأَدنَوِيَّةِ لِفِتغِنشتاين أثارَهُ سايمن بلاكبيرن. إذ يَرَى بلاكبيرن أَنَّهُ إن كانَ فِتغِنشتاين أَدنَوِيًّا، فَإنَّه لا يُرِينا الاختِلافاتِ بينَ الخِطابِ الدِّينِيِّ والخِطاباتِ الأُخرَى، بَل يُثَبِّتُ في الواقِعِ [133] اتِّساقَها بِالسَّماحِ لَها جَميعًا بِتَلبِيَةِ شُروطِ ما يَقبَلُ الصِّدقَ مِن المَضمونِ، والصِّدقِ، والإحالَةِ، وما إليها. ويَعتَقِدُ بلاكبيرن أَنَّ هذا مُخالِفٌ لِما كَتَبَهُ فِتغِنشتاين عن وُجودِ مِساحاتِ خِطابٍ مُختَلِفَةٍ ولِسِياسَةِ فِتغِنشتاين الشَّخصِيَّةِ المَنصوصِ عليها، 'سَأُعَلِّمُكَ الاختِلافاتِ I'll teach you differences'* - وهوَ السَّطرُ الذي قالَهُ كِنت Kent في مَسرَحِيَّةِ *المَلِك لير King Lear*، والذي خُطِّطَ لَهُ أن يَكونَ في الوَقتِ نَفسِهِ شِعارًا لِكتابِ فِتغِنشتاين *بُحوثٌ فلسفيَّةٌ Philosophical Investigations*:

---

* هذا السَّطرُ مُقتَبَسٌ مِن المشهَدِ الرّابعِ في الفَصلِ الأوَّلِ مِن مَسرَحِيَّةِ (الملِك لير) لِشَيْكسبير، حينَ يَأتي المُتَخَفّي كِنت لِنَجدَةِ مَلِكِهِ السّابِقِ فَيَطرُدُ أوزولد خادِمَ غونريل الوَقِحَ قائلًا لَهُ، بِحَسَبِ تَرجَمَةِ الدُّكتور محمَّد مصطفى بدوي لِلمَسرَحِيَّةِ المذكورَةِ: 67: 'انهَضْ يا هذا واخرُجْ. سأُعَلِّمُكَ كيفَ تَحتَرِمُ أسيادَكَ'. ويُلحَظُ أنَّ الدُّكتور قَد تَرجَمَ السَّطرَ المَعنِيَّ بِـ 'سأُعَلِّمُكَ كيفَ تَحتَرِمُ أسيادَكَ'، وهيَ تَرجَمَةٌ بِالمعنى مُوَفَّقَةٌ جِدًّا؛ فلا شَكَّ في أن الاختِلافاتِ التي يُحيلُ عليها كِنت اختِلافاتٌ في المنزِلَةِ. [المُترجِم]

> يَنتَظِرُ المَرءُ مِنّا الدَّليلَ على قَولِ فتغِنشتاين إنَّهُ كانَ، في واقِعِ الأمرِ، يَخدَعُنا على طولِ الخَطِّ. فقد *اعتَقَدنا* أنَّهُ كانَ يُعَلِّمُنا الاختِلافاتِ، لكِنَّهُ كانَ يُزيلُ الاختِلافاتِ أنفُسَها التي بَدا أنَّهُ كانَ يُنشِئُها. إذ كانَ عَلَى طُولِ الخَطِّ يُحَذِّرُنا مِن اعتِقادِ أنَّهُ قد يَكونُ مِن المُهِمِّ أن نُحاوِلَ فَهمَ الرِّياضِيّاتِ مِن زاوِيَةِ القَواعِدِ، أو... التَّساؤُلَ عن مَدَى تَعبيرِ الالتِزامِ الدِّينِيِّ أو الأخلاقِ عن حالاتٍ عاطِفِيَّةٍ أو عن حالاتٍ أُخرَى مَعرِفِيَّةٍ، وما إليها. إذ لا وُجودَ لاختِلافاتٍ كهذهِ! وشِعارُهُ هوَ: سأُعَلِّمُكُم *التَّماثُلَ*! (1998b, p. 165)

ويَعتَقِدُ بلاكبيرن أنَّ ما كانَ يَفعَلُهُ فتغِنشتاين بإشارتِهِ إلى الاختِلافاتِ هوَ المُقابَلَةُ بينَ الوَظيفَتَيْنِ الوَصفِيَّةِ واللاوَصفِيَّةِ لالتِزاماتِنا في مِساحاتِ خِطابٍ مُختلِفَةٍ والكَشفُ عن التَّشابُهاتِ السَّطحِيَّةِ في الجُمَلِ الأخلاقِيَّةِ والعِلمِيَّةِ، مَثَلًا، التي تُضَلِّلُنا وتَقودُنا إلى اعتِقادِ أنَّ لَها مَضمونًا مَعرِفِيًّا مُتَشابِهًا. فَـ 'السَّطحُ القَضَوِيُّ' لِلُّغَةِ يُخفي تَنَوُّعًا مِن الوَظائفِ المُختلِفَةِ: فالجُمَلُ الأخلاقِيَّةُ تُعَبِّرُ عن القَبولِ أو الرَّفضِ، وجُمَلُ الرِّياضِيّاتِ اشتِراطاتٌ، وهلُمَّ جَرًّا.

وهذا النَّقدُ قَد أُسيءَ وَضعُهُ. فَصَحيحٌ أنَّ الأدنَوِيَّةَ تُقَدِّمُ نَظرِيَّةً انكِماشِيَّةً لِعَدَدٍ مِن المَفاهيمِ الأساسِيَّةِ كالصِّدقِ، والإحالَةِ، والمَضمونِ القَضَوِيِّ، وما إليها. على أنَّ هذهِ لَيسَتْ سِوَى الاستراتيجيا الانكِماشِيَّةِ الأوَّلِيَّةِ. وما زالَ ثَمَّةَ عَمَلٌ يَنتَظِرُ الإنجازَ بِشأنِ الإفصاحِ عن الاختِلافاتِ بينَ الخِطاباتِ، ولا سِيَّما مَعاييرُها الدّاخليَّةُ المُمَيِّزَةُ؛ فقد يُبدي الصِّدقُ في بَعضِ مِساحاتِ الخِطابِ صِفاتٍ أكثَرَ مَتانَةً مِن تِلكَ التي يُقَدِّمُها التَّحليلُ الانكِماشِيُّ. وبَدَلًا مِن أن يُقَدِّمَ فتغِنشتاين مِقياسًا عالِيًا لِحِيازَةِ الصِّدقِ أو الوَصفِ أو الإحالَةِ، نَجِدُهُ يُعنَى (بِحَسَبِ القِراءَةِ الأدنَوِيَّةِ) بِالمَعاييرِ الدّاخليَّةِ المُختلِفَةِ التي يُحكَمُ بِمُقتَضاها على العِباراتِ التَّقريرِيَّةِ في الأخلاقِ والدِّينِ والتَّأريخِ والعِلمِ بِأنَّها صادِقَةٌ.

على أنَّ ثَمَّةَ مُشكِلَةً أكثَرَ أهمِّيَّةً تتعلَّقُ بِالقِراءَةِ الأدنَوِيَّةِ هيَ أنَّ المَرءَ مِنّا يتوقَّعُ أن يُقِرَّ فِتغِنشتاين بِرَحابَةِ صَدرٍ بِأنَّ الصِّدقَ والوَقائعَ والإحالَةَ طَرائقُ لا إشكالَ فيها تَمامًا لِلحَديثِ عن العِباراتِ التَّقريرِيَّةِ الدِّينِيَّةِ. ومِمّا يُؤَيِّدُ الأدنَوِيَّةَ

الدِّينيَّةَ أنَّ تَحليلَ الصِّدقِ الدِّينيِّ مِن زاويَةِ الوَفاءِ بِمُقتَضَياتِ المَعاييرِ الدّاخليَّةِ لِلخِطابِ الدِّينيِّ يَجعَلُ مِن غيرِ المُؤذي التَّسليمَ بِأنَّ الجُمَلَ الدِّينيَّةَ يُمكِنُ أن [134] تَكونَ صادِقَةً. ومعَ ذلكَ، نادِرًا مّا كانَ فِتغِنشتاين يتحدَّثُ مِن تلكَ الزّاوِيَةِ، وكُلَّما عالَجَ وَضعَ الاعتِقادِ الدِّينيِّ كانَ يَبدو مُتَسائلًا عن مَدَى كَونِهِ اعتِقادًا أصيلًا البَتَّةَ. وهذهِ مُقارَبَةٌ يَتَوَقَّعُها المَرءُ مِن التَّعبيريِّينَ. فحَتّى إذا لَم يَكُن اعتِراضُ بلاكبيرن على القِراءَةِ الأدنَويَّةِ لِفِتغِنشتاين حاسِمًا، فما مِن شَكٍّ في أنَّ كِتاباتِ فِتغِنشتاين الشَّخصيَّةَ في الدِّينِ وفي مَوضوعاتٍ أُخرَى لا تُؤَيِّدُ التَّأويلَ الأدنَويَّ.

ب. الأدنَويَّةُ هيَ التَّحقيقيَّة

يَرَى الأدنَويُّونَ الدِّينيُّونَ أنَّ الصِّدقَ الدِّينيَّ مُقَيَّدٌ بِالمَعرِفَةِ وأنَّ صِدقَ الجُمَلِ الدِّينيَّةِ تُحَدِّدُهُ مَعاييرُ التَّسويغِ في الخِطابِ الدِّينيِّ. لِذلكَ قَد يَبدو أنَّ الأدنَويَّةَ نَوعٌ مِن أنواعِ التَّحقيقيَّةِ لأنَّ الأدنَويِّينَ يَربِطونَ رَبطًا فاعِلًا بينَ مَعنَى الجُمَلِ الدِّينيَّةِ وشُروطِ تَسويغِها (أو تَحقيقِها). فهَل الأدنَويَّةُ وَضعيَّةٌ مَنطِقيَّةٌ عَصريَّةٌ؟ (Alston, 1997, ch. 4)

هذهِ المُقارَنَةُ غايَةٌ في التَّضليلِ. فقد رأَينا في الفَصلِ 4 أنَّ النَّقدَ التَّحقيقيَّ لِلدِّينِ يَضَعُ مِعيارًا قاسِيًا بِوُضوحٍ لِحِيازَةِ الجُمَلِ مَضمونًا واقِعيًّا؛ هوَ أنَّها قابِلَةٌ لِلتَّحقيقِ تَجريبيًّا أو مُرتَبِطَةٌ مَنطِقيًّا على أنحاءٍ مُختلِفَةٍ بِجُمَلٍ قابِلَةٍ لِلتَّحقيقِ تَجريبيًّا. وقَد نُظِرَ إلى الجُمَلِ التي تُعَدُّ غَيرَ مُلَبِّيَةٍ لِشُروطِ هذا المِعيارِ، ومنها الجُمَلُ الدِّينيَّةُ والأخلاقِيَّةُ، على أنَّها غيرُ ذَواتِ مَعنًى حَرفِيٍّ. ولا يَذهَبُ الأدنَويُّونَ إلى شَيْءٍ مِن ذلكَ. فلِلأدنَويَّةِ مُتَطَلَّباتٌ مُتَواضِعَةٌ جِدًّا لِحِيازَةِ جُمَلِ الخِطابِ مَضمونًا قابِلًا لِلصِّدقِ أو قَضَويًّا: فهيَ لا تَحتاجُ إلّا إلى أن تَفِيَ بِمُقتَضَياتِ المُخَطَّطِ غيرِ الاقتِباسيِّ DS. ثُمَّ إنَّ الأدنَويِّينَ مُستَعِدُّونَ لِقَبولِ مَعاييرِ التَّسويغِ الفاعِلَةِ في الخِطابِ المَعنيِّ بِوَصفِها مَعاييرَ مُناسِبَةً لِتَحليلِ الصِّدقِ في هذا الخِطابِ ولَو لَم تَكُن مَقبولَةً في العِلمِ. فلا يُمنَحُ التَّحقيقُ التَّجريبِيُّ عِندَهُم مَنزِلَةً خاصَّةً. ويُمكِنُ القَولُ إنَّهُ بِقَدرِ تَعلُّقِ الأمرِ بِالأدنَويِّينَ، يُمكِنُ أن يُؤَدِّيَ الحُكمُ الذي تَتَّفِقُ عليهِ مَجموعَةٌ مُنتَقاةٌ مِن المُؤمِنينَ والإحالَةُ على نَصٍّ مُقَدَّسٍ أو على قَرارٍ بابَويٍّ وظيفَةَ

مَعاييرِ (مُختَلِفِ مَجالاتِ) الخِطابِ الدِّينِيِّ مِثلَما يَنهَضُ بِهذهِ المُهِمَّةِ في عِلمِ الفَلَكِ البَحثُ في الكَواكِبِ، والمَلحوظاتُ المُستَقاةُ مِن النَّظَرِ في المِقرابِ، واستِخلاصُ المُعطَياتِ بِالتَّحليلِ الحاسُوبِيِّ.

وثَمَّةَ جانِبٌ واحِدٌ تُشبِهُ فيهِ الأدنَوِيَّةُ المَذهَبَ التَّحقيقِيَّ هوَ تَقديمُ أُطروحَةِ صِدقٍ مُقَيَّدَةٍ بِالمَعرِفَةِ وبِالدَّليلِ. فنتيجَةُ التَّحليلِ الأدنَوِيِّ لِلصِّدقِ أَنَّ العِباراتِ التَّقريرِيَّةَ الصّادِقَةَ يُمكِنُ العِلمُ بِها مِن حَيثُ المَبدَأُ ولا يُمكِنُ أن تُجاوِزَ قُدرَتَنا على إنشاءِ صِدقِها. ويَعُدُّ مَناطِقَةُ الوَضعِيَّةِ قابِلِيَّةَ التَّحقيقِ التَّجريبِيَّةَ لِلعِباراتِ التَّقريرِيَّةِ شَرطًا لِحِيازَتِها مَضمونًا واقِعِيًّا. فهذا المَذهَبُ يَلتَزِمُ إذَن تَصَوُّرًا لِلصِّدقِ مُقَيَّدًا بِالمَعرِفَةِ على نَحوٍ مُشابِهٍ. [135] على أَنَّ نُقطَةَ المُشابَهَةِ هذهِ لا تُقَدِّمُ أَيَّ عَونٍ لِمُنتَقِدِي الأَدنَوِيَّةِ، ذلكَ بِأَنَّ الحُجَّةَ المُضادَّةَ لِلوَضعِيَّةِ المَنطقِيَّةِ إنَّما تتعلَّقُ بِصِياغَتِها المُشكِلَةِ لا بِتَصَوُّرِ الصِّدقِ الذي تتضَمَّنُهُ.

ج. الأَدنَوِيَّةُ والإيمانِيَّة

ثَمَّةَ حُجَّةٌ مَشهورَةٌ مُضادَّةٌ لِلأَدنَوِيَّةِ الدِّينِيَّةِ، وتُمَثِّلُ كذلكَ أكثَرَ الاعتِراضاتِ إيرادًا على فِتغِنشتاين، وهيَ أَنَّ ما يَنجُمُ عن أُطروحَتِهِ لِلدِّينِ هوَ عَزلُ الخِطابِ الدِّينِيِّ عن مِساحاتِ الخِطابِ الأُخرَى، ولا سِيَّما العِلمُ والتَّأريخُ. ويُنظَرُ إلى هذهِ المُقارَبَةِ على أَنَّها تَقودُ إلى النَّزعَةِ الإيمانِيَّةِ، التي تَكونُ فيها الاعتِقاداتُ الدِّينِيَّةُ مُقَسَّمَةً على فِئاتٍ وغَيرَ مُعَرَّضَةٍ لِلتَّقويمِ العَقلِيِّ، ولا سِيَّما التَّقويمُ التَّجريبِيُّ أو التَّقويمُ التَّأريخِيُّ. وقَد قَدَّمَ هذا الاعتِراضَ بِقُوَّةٍ كاي نيلسن Kai Nielsen*، إذ يَقولُ:

* كاي نيلسن (1926–...م). أُستاذُ فَلسَفَةٍ في جامِعَةِ كالغاري. قَبلَ أن يَنتَقِلَ إلى كَندا، دَرَّسَ في جامِعَةِ نيويورك. وهوَ مُتَخَصِّصٌ في ما بَعدَ الفَلسَفَةِ، وعِلمِ الأخلاقِ، والفَلسَفَةِ الاجتِماعيَّةِ والسِّياسِيَّةِ. كَتَبَ كذلكَ في فَلسَفَةِ الدِّينِ، ودافَعَ عَنِ الإلحادِ المُعاصِرِ. يُعرَفُ أيضًا بِدِفاعِهِ عَنِ النَّفعِيَّةِ، وقَد كَتَبَ رَدًّا عَلى مُنتَقِدِيها. مِن مُؤَلَّفاتِهِ: (الإلحادُ والفَلسَفَةُ)؛ و(العَولَمَةُ والعَدالَة)؛ و(مَدخَلٌ إلى فَلسَفَةِ الدِّين). [المُتَرجِم]

> حينَ نُفَعِّلُ الكَثيرَ مِن ألعابِنا اللُّغَوِيَّةِ، ونُفَكِّرُ فيها، ونَتَأَمَّلُ ما فيها مِن مَعاييرَ، غالِبًا مّا يَكونُ بِإمكانِنا أن نُقَدِّمَ مِن داخِلِها أسبابًا ومُسَوِّغاتٍ وتَفسيراتٍ، وغالِبًا مّا تَكونُ هذهِ في مَوضِعِها المُلائم. على أنَّ ما يَذهَبُ إليهِ فِتغِنشتاين بقُوَّةٍ، ويُتابِعُهُ عليهِ مالكولم Malcolm* ووِنتش Winch**، هوَ أنَّ تَقديمَ الأسبابِ والمُسَوِّغاتِ والتَّفسيراتِ يَنتَهي... عِندَ وُجودِ الألعابِ اللُّغَوِيَّةِ وما يَرتَبِطُ بِها مِن أشكالِ الحَياةِ. (2000, p. 146)

ويَنجُمُ عن ذلكَ، 'أنَّهُ لا يُمكِنُ توجيهُ نَقدٍ فَلسَفِيٍّ أو أيِّ نَوعٍ آخَرَ مِن النَّقدِ المُتَعَقِّلِ أو، في ما يتعلَّقُ بِهذا الأمرِ، لا يُمكِنُ الدِّفاعُ عن أشكالِ الحَياةِ أو بِالفِعلِ عن أيِّ شَكلٍ مِن أشكالِ الحَياةِ، ومنها الهِندوسِيَّةُ، والمَسيحِيَّةُ، وما إلَيهِما' (2000, p. 147).

على أنَّهُ إذا أَمكَنَ أن يَكونَ توجيهُ تُهمَةِ الانتِسابِ إلى الإيمانِيَّةِ مُلائمًا في حَقِّ بَعضِ الفِتغِنشتاينِيِّينَ، فإنَّ هذهِ التُّهمَةَ لَيسَتْ بِالاعتِراضِ المُنصِفِ في حَقِّ أَدنَوِيَّةٍ أُجيدَ التَّفكيرُ فيها (أو في حَقِّ فِتغِنشتاين نَفسِهِ، على وَفقِ هذهِ القِراءَةِ). ذلكَ بِأَنَّهُ لا يُوجَدُ في ما يتعلَّقُ بِالنَّظَرِ في المَعاييرِ الدّاخليَّةِ لِلخِطابِ الدِّينِيِّ أو بِوَصفِها أو في ما يتعلَّقُ بِمُعارَضَةِ المَعاييرِ المُختلِفَةِ التي تُبديها الخِطاباتُ المُختلِفَةُ ما يَمنَعُ إمكانَ أن يُشَكِّلَ الدَّليلُ المُؤَسَّسُ جَيِّدًا عِلمِيًّا أو تَأريخِيًّا حُكمًا

---

* نورمَن مالكولم (1911–1990م). فَيلَسوفٌ أمريكِيٌّ. التَقى، بينَ عامَيْ 1938 و1939 في جامِعَةِ كيمبرِج، جورج إدوَرد مُور ولودفيغ فِتغِنشتاين، وحَضَرَ طَوالَ عام 1939 مُحاضَراتِ فِتغِنشتاين في الأُسُسِ الفَلسَفِيَّةِ لِلرِّياضِيّاتِ، وظَلَّ مِن أوثَقِ الأصدِقاءِ صِلَةً بِهِ. مِن مُؤَلَّفاتِهِ: (فِتغِنشتاين: وِجهَةُ نَظَرٍ دينِيَّة؟)؛ و(لا شَيءَ مَخفِيًّا: نَقدُ فِتغِنشتاين لِفِكرِهِ المُبَكِّر)؛ و(المَعرِفَةُ واليَقين). [المُتَرجِم]

** بيتر وِنتش (1926–1997م). فَيلَسوفٌ بريطانِيٌّ مَعروفٌ بِإسهاماتِهِ في فَلسَفَةِ العِلمِ الاجتِماعِيِّ، والدِّراساتِ المُتَعَلِّقَةِ بِفِتغِنشتاين، وعِلمِ الأخلاقِ، وفَلسَفَةِ الدِّينِ. قَد يَكونُ أكثَرَ ما يُعرَفُ بِهِ كِتابَهُ المُبَكِّر (فِكرَةُ العِلمِ الاجتِماعِيِّ وعَلاقَتُهُ بِالفَلسَفَة) الذي مَثَّلَ هُجومًا على الوَضعِيَّةِ في العُلومِ الاجتِماعِيَّةِ، مُستَنِدًا إلى كِتاباتِ روبِن جورج كولنغوود ولودفيغ فِتغِنشتاين في فَلسفَتِهِ المُتَأَخِّرَةِ. مِن آثارِهِ الأُخرى: (دِراساتٌ في فَلسَفَةِ فِتغِنشتاين)؛ و(عِلمُ الأخلاقِ والفِعل)؛ و(مُحاوَلَةُ الفَهم). [المُتَرجِم]

دينِيًّا. وإذا ما أرادَ الأدنويُّونَ التَّمَسُّكَ بِمعيارِ وَصفِ الخِطابِ الدِّينِيِّ بَدَلًا مِن تَعديلِهِ، فعَلَيهِم مُراعاةُ حَقيقَةِ أَنَّ الدَّليلَ التَّأريخِيَّ تَتساهَمُ فيهِ مَجموعَةٌ مُتَنَوِّعَةٌ مِن الاعتِقاداتِ الدِّينِيَّةِ، ومنها الإيمانُ بِقيامَةِ المَسيحِ أو بِخَلقِ العالَمِ والاعتِقاداتُ المُتعلِّقَةُ بِمُظهِري المُعجزاتِ وما فَعَلوهُ؛ وكُلُّ وَصفٍ مُقتَرَحٍ لِلخِطابِ الدِّينِيِّ سيَكونُ قاصِرًا قُصورًا كَبيرًا ما لَم يُقِرَّ بِذلكَ. فإن قيلَ بِحُدوثِ ذلكَ، فإنَّ نَتائجَ البَحثِ التَّأريخِيِّ أو العِلمِيِّ قادِرَةٌ على تَعديلِ الأحكامِ الدِّينِيَّةِ. وَلْنفتَرِضْ، بِالمُقارَنَةِ، أنّا نُصدِرُ الحُكمَ الأخلاقِيَّ الذي مُفادُهُ أَنَّ [136] جَيْمس يَنبَغي أن يُعاقَبَ لِتَرويعِهِ جون. فلا يُمكِنُ الدِّفاعُ عن هذا الحُكمِ إلّا إذا صَحَّ أَنَّ جَيْمس قَد رَوَّعَ جون، وهوَ أمرٌ يُمكِنُ تَحَرّيهِ على نَحوٍ مُستَقِلٍّ. وبِذلكَ تَكونُ قابِلِيَّةُ تَسويغِ التَّقويمِ الأخلاقِيِّ مُعتَمِدَةً على واقِعَةٍ يُمكِنُ تَقويمُها تَجريبِيًّا. فكذلكَ، يَعتَمِدُ كَثيرٌ مِن الأحكامِ الدِّينِيَّةِ على أدِلَّةٍ يُمكِنُ تَقويمُها تَأريخِيًّا أو عِلمِيًّا. مِثالُ ذلكَ أَنَّ الدَّليلَ الدّامِغَ على أَنَّ الشّاهِدَ التَّوثيقِيَّ والعِيانِيَّ على مُعجِزَةٍ مّا كانَ خُدعَةً سبَبٌ وَجيهٌ لِعَدَمِ اعتِقادِ حُدوثِ المُعجِزَةِ المَعنِيَّةِ، وقَد أتَى هذا الدَّليلُ مِن 'خارِج' لُعبَةِ اللُّغَةِ الدِّينِيَّةِ. وبِإمكانِ الأدنَوِيِّينَ أن يُقِرُّوا بِالحاجَةِ إلى الدَّليلِ التَّجريبِيِّ في كَثيرٍ مِن الاعتِقاداتِ الدِّينِيَّةِ وبِتَشكيلِهِ كَثيرًا مِنها وأن يَحتَفِظوا في الوَقتِ نَفسِهِ بِالنَّظرِيَّةِ التي مُفادُها أَنَّ الخِطابَ الدِّينِيَّ يَستَخدِمُ مَعاييرَ تَسويغٍ مُختَلِفَةً لِلتَّوَصُّلِ إلى الأحكامِ الدِّينِيَّةِ.

د. الصِّدقُ لَيسَ مُقَيَّدًا بِالمعرِفَة

كانَ ثَمَّةَ إدراكٌ مُتَنامٍ في فَلسَفَةِ الدِّينِ لأهمِّيَّةِ أفكارِ الصِّدقِ المُقَيَّدَةِ بِالمَعرِفَةِ وبِالدَّليلِ في فَهمِ مَذهَبِ فِتغِنشتاين ومُعارَضَتِهِ لِتَأويلاتِ القيمَةِ الظّاهِرِيَّةِ لِلُّغَةِ الدِّينِيَّةِ. وقَد كانَ لِوِليَم أولستن (1996 ;1995) إسهامٌ مَخصوصٌ في تَسليطِ الضَّوءِ على ذلكَ. على أَنَّ أَحَدَ مَسالِكِ الرَّدِّ تَمَثَّلَ في مُحاوَلَةِ إظهارِ أَنَّ جَميعَ أفكارِ الصِّدقِ المُقَيَّدَةِ بِالمَعرِفَةِ يَتَعَذَّرُ الدِّفاعُ عنها. ومِن الحالاتِ الحَديثَةِ المُتَعَلِّقَةِ بِهذا الشَّأنِ الحُجَّةُ التي قَدَّمَها كرِستوفَر

إنسول Christopher Insole* مُعارِضًا بِها نُسخَةً مِن نُسَخِ نظريَّةِ بَتنام وبيرس تُحَلِّلُ الصِّدقَ مِن زاوِيَةِ ما هوَ 'مُسَوَّغٌ تَسويغًا مِثاليًّا'، إذ يَقولُ:

> إنَّ خَلَلَ هذا التَّصوُّرِ لِلصِّدقِ يُمكِنُ أن يُقَرَّرَ بِبَساطَةٍ شَديدَةٍ... فـ'ق مُسَوَّغَةٌ تَسويغًا مِثاليًّا' يُمكِنُ أن تُحمَلَ على وَجهٍ ضَعيفٍ، نَحوِ 'ق لَها صِفَةُ كَونِها مُسَوَّغَةً لِفاعِلٍ مَعرِفِيٍّ مّا مَحدودٍ بِحُدودٍ بَشَرِيَّةٍ تَقريبًا'، أو على وَجهٍ قَوِيٍّ، نَحوِ 'ق لَها صِفَةُ حِيازَةِ أيِّ تَسويغٍ مِثالِيٍّ يَقتَضيهِ ضَمانُ صِدقِ ق - مِثالُ ذلكَ أنَّ مِنَ المُسَوِّغِ لِلمَوجودِ الكُلِّيِّ العِلمِ اعتِقادَ أنَّ ق'. فَأمّا في الحالَةِ الأولَى، فَإنَّ التَّصوُّرَ المَعرِفِيَّ لِلصِّدقِ غَيرُ مَقبولٍ البَتَّةَ. وأمّا في الحالَةِ الثّانِيَةِ، فإنَّهُ مَقبولٌ، لكِن لا لِشَيْءٍ إلّا لأنّا قَد عَرَّفْنا الشُّروطَ المَعرِفِيَّةَ المِثالِيَّةَ مِن زاوِيَةِ 'ما يَقتَضيهِ التَّوَصُّلُ إلى *الصِّدقِ*'، حَيثُ يُفهَمُ ما هوَ *صادِقٌ* فَهمًا واقِعِيًّا 'يَرتَبِطُ بِحالَةٍ مُتَعالِيَةٍ'. (2006, p. 63)

ويَبدو أنَّ إنسول يَقصِدُ تَطبيقَ هذهِ الحُجَّةِ على أيَّةِ أُطروحَةٍ لِلصِّدقِ مُقَيَّدَةٍ بِالمَعرِفَةِ. فإذا ما أخفَقَتْ جَميعُ تَحليلاتِ الصِّدقِ المُقَيَّدَةِ بِالمَعرِفَةِ، فإنَّ مَآلَ تَحليلاتِ الصِّدقِ الدِّينِيِّ المُعارِضَةِ لِلواقِعِيَّةِ سيَكونُ الإخفاقَ أيضًا، وهذا ما يُوَجِّهُ ضَربَةً قاضِيَةً إلى الأدنَوِيَّةِ الدِّينِيَّةِ. [137]

على أنَّ حُجَّةَ إنسول لا تُمارِسُ على المَذهَبِ الأدنَوِيِّ إلّا قَليلًا مِن الضَّغطِ. فمِنَ الواضِحِ أنَّ الصِّدقَ لا يُتيحُ تَحليلًا ناجِحًا مِن زاوِيَةِ ما نَقدِرُ على تَسويغِهِ هُنا والآنَ. وما مِن مُناصِرٍ واضِحِ التَّفكيرِ لِتَصَوُّرٍ لِلصِّدقِ مُقَيَّدٍ بِالمَعرِفَةِ يَقتَرِحُ الآتيَ: أنَّ المَعلوماتِ المُتاحَةَ لَنا قَد تتغيَّرُ، وأنَّ تِقنِيّاتِنا التي نُقَوِّمُها بِها قَد تَتَحَسَّنُ. فَفي التَّحَرِّي الجِنائِيِّ بِشَأنِ مَقتَلِ طوني، قَد تُسَوِّغُ بَصَماتُ الأصابِعِ التي

* كرِستوفَر إنسول. أُستاذُ اللاهوتِ الفَلسَفِيِّ وعِلمِ الأخلاقِ في جامِعَةِ دُرَم في إنجلترا. مَجالاتُ اهتِمامِهِ البَحثِيِّ هيَ اللاهوتُ الطَّبيعِيُّ وفَلسَفَةُ الدِّينِ، والواقِعِيَّةُ ومُعارَضَةُ الواقِعِيَّةِ، والفَلسَفَةُ السِّياسِيَّةُ. مِن مُؤَلَّفاتِهِ: (كانَت وخَلقُ الحُرِّيَّةِ: مُشكِلَةٌ لاهوتِيَّة)؛ و(الأمَلُ الواقِعِيُّ: نَقدٌ لِلمُقارَباتِ المُعارِضَةِ لِلواقِعِيَّةِ في اللاهوتِ الفَلسَفِيِّ المُعاصِر)؛ و(سِياسَةُ الضَّعفِ الإنسانِيِّ: دِفاعٌ لاهوتِيٌّ عَنِ التَّحَرُّرِيَّةِ السِّياسِيَّة). [المُتَرجِم]

على السِّلاحِ وشَهادَةُ الشُّهودِ استِنتاجَ أنَّ المُجرِمَ هوَ غوردن. بَيدَ أنَّ وُجودَ أدِلَّةٍ إضافِيَّةٍ، كإفادَةِ شُهودٍ جُدُدٍ، أو ظُهورِ أنواعٍ مُختلِفَةٍ مِن الأدِلَّةِ، ككَشفٍ لِتَحَرٍّ عَدلِيٍّ، قَد يَكونُ مُسَوِّغًا لِلخُروجِ بِاستِنتاجٍ مُختَلِفٍ. وهذا هوَ بيتُ القَصيدِ في تَحليلِ الصِّدقِ بِوَصفِهِ تَسويغًا مُؤَمثَلًا لا مُجَرَّدَ تَسويغٍ. ويُقَرِّرُ إنسول أنَّ البَديلَ الوَحيدَ هوَ قَبولُ فِكرَةِ صِدقٍ غَيرِ مُقَيَّدَةٍ بِالمَعرِفَةِ. لكِن لَيسَ مِن الواضِحِ البَتَّةَ سَبَبُ اعتِقادِهِ ذلكَ. فلِمَ لا يَنبَغي أن يَكونَ الصِّدقُ تَسويغًا مُؤَمثَلًا، أو قابِلِيَّةَ تَقريرٍ مُسَوَّغَةً، أو قابِلِيَّةَ تَقريرٍ مُفْرِطَةً؟ فَالعِبارَةُ التَّقريرِيَّةُ تكونُ مُفْرِطَةً في قابِلِيَّتِها لِلتَّقريرِ إذا كانَتْ مُسَوَّغَةً وظَلَّتْ مُسَوَّغَةً عندَ تَعَرُّضِها لِفَحصٍ دَقيقٍ اعتِباطِيٍّ أو عندَ تَحَسُّنِ مَعلوماتِنا. فهذا التَّحليلُ يَربِطُ الصِّدقَ بِمَعاييرِ تَقويمِنا، وهذا ما تتطَلَّبُهُ الأدنَوِيَّةُ. وهو يُكَيِّفُ بِوُضوحٍ أيضًا إمكانَ أن تُحدِثَ الأدِلَّةُ والتِّقنِيّاتُ الجَديدَةُ تَغَيُّرًا في آرائنا. وليسَ في حُجَّةِ إنسول ما يُوحي بِأنَّ قابِلِيَّةَ التَّقريرِ المُفْرِطَةَ غَيرُ مُتَماسِكَةٍ أو مُفَنَّدَةٌ ذاتِيًّا؛ والشَّيْءُ نَفسُهُ يُمكِنُ أن يُطَبَّقَ على قابِلِيَّةِ التَّقريرِ المُسَوَّغَةِ أو التَّسويغِ المُؤَمْثَلِ.

ويُقَدِّمُ بيتَر بيرن Peter Byrne* مَسارًا حِجاجِيًّا مُشابِهًا لِما قَدَّمَهُ إنسول، إذ يَقولُ:

> قَد تَكونُ ثَمَّةَ مَلحوظاتٌ بِشَأنِ العالَمِ لا يُمكِنُنا إنشاؤُها، ولَن نُنشِئَها أبَدًا، تُظهِرُ أنَّ إحدَى نَظَرِيّاتِنا الأثيرَةِ لَدَينا كاذِبَةٌ جُزئيًّا أو كُلِّيًّا. إذ يُمكِنُ تَصَوُّرُ أنَّ ثَمَّةَ مَوجوداتٍ ذاتَ قُوًى عَقلِيَّةٍ أكبَرَ مِن قُوانا قادِرَةً على صَوغِ نَظَرِيّاتٍ مُلائمَةٍ لِلوَقائعِ التي نَعرِفُها لكِنَّها تُفَسِّرُ هذهِ الوَقائعَ تَفسيرًا أفضَلَ مِن تَفسيرِنا. فهذِهِ النَّظَرِيّاتُ ستَكونُ مُرَشَّحاتٍ أقوَى لِلصِّدقِ. ونَحنُ نَعلَمُ أنَّ الماضِيَ قَد شَهِدَ دَحضَ نَظَرِيّاتٍ أثيرَةٍ لَدَى أصحابِها مِن خِلالِ مَلحوظاتٍ

---

* بيتَر بيرن. مُحاضِرٌ أوَّلُ في فَلسَفَةِ الدِّينِ في كِنغز كولِج بِلَندَن، ورَئيسُ تَحريرٍ لِمَجَلَّةِ (دِراسات دِينِيَّة Religious Studies). مَجالا اهتِمامِهِ البَحثِيِّ هُما عِلمُ الأخلاقِ وفَلسَفَةُ الدِّينِ. مِن مُؤَلَّفاتِهِ: (الأُسُسُ الفَلسَفِيَّةُ واللاهوتِيَّةُ لِعلم الأخلاقِ: مَدخَلٌ إلى النَّظَرِيَّةِ الأخلاقِيَّةِ وعَلاقَتِها بِالاعتِقادِ الدِّينِيِّ)؛ و(التَّأويلُ الأخلاقِيُّ لِلدِّين)؛ و(اللهُ والواقِعِيَّة). [المُتَرجِم]

مُتأخِّرَةٍ أو نَظريّاتٍ مُنافِسَةٍ أكثَرَ إقناعًا. وحتّى إذا لَم تتلَقَّ النَّظريَّةُ أيَّ تفنيدٍ في الماضي، فيُمكِنُ أن يُتَصَوَّرَ تَلَقِّيها ذلكَ في المُستَقبَلِ. ولا يُمكِنُ ضَمانُ صِدقِ النَّظريّاتِ المِثاليَّةِ مَعرِفيًّا إلّا إذا كانَتْ كلمةُ 'مِثاليَّة' في عِبارَةِ 'مِثاليَّة مَعرِفيًّا' تَعني فِعليًّا 'صادِقَة تَناظُريًّا'. (2003, p. 79)

فالنِّقاطُ التي أثارَها بيرن هيَ:

1. أنَّ بِإمكانِنا تَصَوُّرَ أنّا قَد أغفَلْنا وسنَظَلُّ نُغفِلُ الدَّليلَ التَّجريبيَّ الذي سيُؤَثِّرُ في صِدقِ بَعضِ نظريّاتِنا. [138]
2. أنَّ بِإمكانِنا تَصَوُّرَ مَوجودٍ أسمَى يُمكِنُهُ أن يَصوغَ نَظريّاتٍ أكثَرَ احتِمالًا لِلصِّدقِ مِن نَظريّاتِنا.
3. أنَّ مِمّا يُمكِنُ تَصَوُّرُهُ أنَّ 'النَّظريّاتِ الأثيرَةَ' ستُظهِرُ كَذِبَها أدِلَّةٌ جديدَةٌ أو نظريّاتٌ مُنافِسَةٌ جَديدَةٌ.

على أنَّهُ ما مِن نُقطَةٍ مِن هذهِ النِّقاطِ تَفتَرِضُ أيَّةَ صُعوبَةٍ في طَريقِ نظريَّةِ الصِّدقِ المُقَيَّدَةِ بِالمَعرِفَةِ؛ بَل إنَّهُ ليسَ مِن الواضِحِ سَببُ اعتِقادِ بيرن تَأييدَها لِنَظريَّةِ صِدقٍ 'تَناظُريَّةٍ'. ومِن الواضِحِ أنَّ النِّقاطَ مِن (1) إلى (3) صادِقَةٌ جَميعًا. لكِنَّها تَصدُقُ أيضًا إذا كانَ الصِّدقُ مُقَيَّدًا بِالمَعرِفَةِ. ويُمكِنُ الوُقوفُ على ذلكَ بِأن تُستَبدَلَ بِـ 'الصِّدق' فِكرَةٌ مُقَيَّدَةٌ بِالدَّليلِ. فَلْنَفتَرِضْ أنّا قَد استَبدَلْنا بِهِ 'قابِليَّةَ التَّقريرِ المُفْرِطَةَ':

4. أنَّ بِإمكانِنا تَصَوُّرَ أنّا قَد أغفَلْنا وسنَظَلُّ نُغفِلُ الدَّليلَ التَّجريبيَّ الذي سيُؤَثِّرُ في قابِليَّةِ التَّقريرِ المُفْرِطَةِ لِبَعضِ نظريّاتِنا.
5. أنَّ بِإمكانِنا تَصَوُّرَ مَوجودٍ أسمَى يُمكِنُهُ أن يَصوغَ نَظريّاتٍ أكثَرَ احتِمالًا لِقابِليَّةِ التَّقريرِ المُفْرِطَةِ مِن نَظريّاتِنا.
6. أنَّ مِمّا يُمكِنُ تَصَوُّرُهُ أنَّ 'النَّظريّاتِ الأثيرَةَ' ستُظهِرُ عَدَمَ إفراطِها في قابِليَّةِ التَّقريرِ أدِلَّةٌ جديدَةٌ أو نظريّاتٌ مُنافِسَةٌ جَديدَةٌ.

وجَميعُ ما يُورِدُهُ بيرن مِن أسبابٍ لاعتِقادِ أنَّ نظريَّةً مّا قَد تُخفِقُ في أن تَكونَ صادِقَةً هيَ أسبابٌ لاعتِقادِ أنَّها قَد تُخفِقُ في أن تكونَ مُفْرِطَةً في قابِلِيَّةِ التَّقريرِ. فَما الذي يَدعو المَرءَ أيًا يَكُنْ إلى رَفضِ النُّقطَةِ (4) أو (5) أو (6)؟ فمَن يَفعَلْ ذلكَ فلاعتِقادِهِ أنَّها مُنَزَّهَةٌ عن *الخَطإ* في صِدقِ النَّظريَّةِ المَعنِيَّةِ. لكِنَّ ادِّعاءَ أنَّ بإمكانِنا أن نَكونَ على صَوابٍ مُنَزَّهٍ عن الخَطإ في نظريَّةٍ مّا يَختَلِفُ عن ادِّعاءِ أنَّ الصِّدقَ مُرتَبِطٌ مَفهومِيًّا بِمَعاييرِ التَّسويغِ ولا يَنجُمُ عنهُ.

وفَضلًا عن أنَّ وِجهَةَ بيرن لا تَضَعُ عَقَبَةً في طريقِ نظريّاتِ الصِّدقِ الأدنَويَّةِ، يُمكِنُ القَولُ إنَّها تَصُبُّ في مَصلَحَتِها. ذلكَ بِأنَّ جميعَ الأسبابِ التي يُقَدِّمُها بيرن لافتِراضِ أنّا رُبَّما لا نَكونُ قَد ضَمِنّا الصِّدقَ - عَدَمَ الدَّليلِ، والافتِقارَ إلى القُوَّةِ المَعرِفِيَّةِ، والتَّطوُّراتِ المُستَقبَلِيَّةَ المَجهولَةَ - هيَ أسبابٌ مَعرِفِيَّةٌ. وما يَحتاجُ الواقِعِيُّونَ الدِّينِيُّونَ إلى تَثبيتِهِ، بِالضِّدِّ مِن ذلكَ، هوَ أنَّ الصِّدقَ في الخِطابِ الدِّينِيِّ مَتينٌ. وسأعرِضُ بَعضَ طَرائقِ إظهارِ ذلكَ في الفَصلِ الآتي.

[139]

11

الصِّدقُ في الدِّين

يَعتَقِدُ الأدنَوِيُّونَ الدِّينِيُّونَ أَنَّ الصِّدقَ الدِّينِيَّ والمَفاهيمَ المُرتَبِطَةَ بِهِ كالحَقائقِ والأَوصافِ وما إليها أفكارٌ مُقَيَّدَةٌ بِالمَعرِفَةِ وبِالدَّليلِ ومُحَلَّلَةٌ بِمَعاييرِ التَّسويغِ الدّاخليَّةِ لِلخِطابِ الدِّينِيِّ. وبِالضِّدِّ مِن ذلكَ، يَدَّعي مُنَظِّرو القيمَةِ الظّاهريَّةِ أَنَّ الصِّدقَ الدِّينِيَّ والمَفاهيمَ المُرتَبِطَةَ بِهِ كالحَقائقِ والأَوصافِ وما إليها مَتينَةٌ. والاعتِراضُ على الأدنَوِيَّةِ بِأَنَّ الصِّدقَ لا يُمكِنُ تَحليلُهُ بِوَصفِهِ فِكرَةً مُقَيَّدَةً بِالمَعرِفَةِ وبِالدَّليلِ لا يُعَدُّ، على ما قَد ذَهَبْتُ إليهِ في الفَصلِ السّابِقِ، مَسارًا حِجاجِيًّا واعِدًا لِتَأييدِ مُنَظِّري القيمَةِ الظّاهريَّةِ. وبَدَلًا مِن الاعتِراضِ على الذَّهابِ إلى أَنَّ الصِّدقَ في خِطابٍ *مَا* يُمكِنُ أن يَكونَ مُجَرَّدَ قابِلِيَّةِ تَقريرٍ مُسَوَّغَةٍ (أو فِكرَةً أُخرَى مُقَيَّدَةً بِالمَعرِفَةِ وبِالدَّليلِ)، يَنبَغي أن يَجعَلَ مُنَظِّرُو القيمَةِ الظّاهريَّةِ بُؤرَةَ اهتِمامِهِم مَدَى كَونِ الصِّدقِ في *الدِّينِ* أكثَرَ مِن مُجَرَّدِ قابِلِيَّةِ تَقريرٍ مُسَوَّغَةٍ. وهذهِ استراتيجيا أكثَرُ مُحافَظَةً وأكثَرُ قابِلِيَّةً لِلإنجازِ بِلا شَكٍّ. وإذا أَمكَنَ تَأييدُ مَتانَةِ الصِّدقِ الدِّينِيِّ، فلَن يَحتاجَ مُنَظِّرُو القيمَةِ الظّاهريَّةِ إلى البَدءِ بِمَشروعِ إظهارِ أَنَّ تَعَدُّدِيَّةَ الصِّدقِ والأَدنَوِيَّةَ في جَميعِ الخِطاباتِ يَتَعَذَّرُ الدِّفاعُ عَنهما.

فهَل يُبدي الصِّدقُ في الدِّينِ صِفاتٍ تُظهِرُ أَنَّ صِدقَ الدَّعاوَى الدِّينِيَّةِ يَعتَمِدُ على واقِعٍ دينِيٍّ وأَنَّ المُحَدِّدَ لَهُ ليسَ هوَ المَعاييرَ الدّاخليَّةَ لِلخِطابِ الدِّينِيِّ وَحدَها؟ يُفيدُنا كرِسْبِن رايت بِتَمييزٍ لِلمَسأَلَةِ التي بينَ تَصَوُّرَي الصِّدقِ الأَدنَوِيِّ والمَتينِ بِقَولِهِ:

> إذا كانَ الواقِعِيُّ هوَ الفائزَ... فسنكونُ مُجبَرينَ على التّفكيرِ في صِدقِ العِباراتِ التّقريريّةِ [لِلخِطابِ] على أنّهُ مُكتَسَبٌ بِوَظائفَ غيرِ التي تُحَدِّدُ المُمارَسَةَ المُلائمَةَ في الخِطابِ، ومِن ثَمَّ على أنّهُ، بِأيِّ مَعنًى يُفرَضُ بِذلكَ، ليسَ مِن صُنعِنا بَل هوَ عَلاقَةٌ جَوهَرِيَّةٌ بينَ اللُّغَةِ، أو الفِكرِ، وحالاتٍ مُستَقِلَّةٍ. (1992, p. 78) [140]

لكِن كيفَ يُمكِنُنا إظهارُ أنَّ الصِّدقَ في الدِّينِ مَتينٌ؟ تكمُنُ الصُّعوبَةُ في أنَّ لَدَى الأدنَوِيِّينَ تَأويلاتٍ انكِماشِيَّةً لِلطَّرائقِ الكَثيرَةِ التي يُمكِنُ أن نَفتَرِضَ بِها أنَّ الصِّدقَ الدِّينِيَّ يَزيدُ على كَونِهِ أدنَوِيًّا. فَلْنَفتَرِضْ، على سبيلِ المِثالِ، أنّا نُشيرُ إلى أنَّ 'الله' يُحيلُ (أو يَرمي إلى الإحالَةِ) على اللهِ أو أنَّ الجُمَلَ الدِّينِيَّةَ تَصِفُ حَقائقَ دينِيَّةً. وقد رَأَينا في الفَصلِ السّابِقِ الاستراتيجيا التي يُمكِنُ أن يَنتَهِجَها الأدنَوِيُّونَ. إذ يُمكِنُ أن يُضمَنَ بِسُهولَةٍ كَونُ 'الله' تَعبيرًا مُحيلًا مِن طَريقِ حَقيقَةِ أنَّهُ يُستَعمَلُ تَعبيرًا مُحيلًا: فَوَظيفَتُهُ التَّركيبِيَّةُ مُشابِهَةٌ لِوَظيفَةِ الاسم. فَـ 'الله' يَنجَحُ في الإحالَةِ حينَ يَرِدُ في عِباراتٍ تَقريرِيَّةٍ صادِقَةٍ، يُفهَمُ فيها الصِّدقُ فَهمًا أدنَوِيًّا. فكذلكَ، يُمكِنُ أن تَكونَ الجُملَةُ الدِّينِيَّةُ وَصفِيَّةً إذا أمكَنَ تَقويمُها بِوَصفِها صادِقَةً أو كاذِبَةً بِالمَعاييرِ الدّاخليَّةِ لِلخِطابِ الدِّينِيِّ. بَل إنَّ فِكرَةَ كَونِ الصِّدقِ الدِّينِيِّ *يُناظِرُ* الواقِعَ الدِّينِيَّ يُمكِنُ أن تُعطَى تَأويلًا يَنسَجِمُ مَعَ الأدنَوِيَّةِ: فَقَولُنا إنَّ الجُملَةَ تُناظِرُ الواقِعَ ليسَ سِوَى تَفسيرٍ لِقَولِنا إنَّ الجُملَةَ الدِّينِيَّةَ صادِقَةٌ. وقَد يَشكو مُؤَيِّدو مُقارَبَةِ القيمَةِ الظّاهريَّةِ أنَّ ما يَفعَلُهُ الأدنَوِيُّونَ إنَّما هوَ إعادَةُ تَأويلٍ مُلتَوِيَةٌ لِلمَفاهيمِ الفَلسَفِيَّةِ الأساسيَّةِ. على أنَّ هذا الرَّدَّ يُؤَكِّدُ أنَّ على مُنَظِّري القيمَةِ الظّاهريَّةِ أن يُفصِحوا عَن مَفاهيمِ التَّناظُرِ والصِّدقِ والإحالَةِ التي لا يُمكِنُ فَهمُها مِن طَريقِ التَّحليلِ الأدنَوِيِّ. فتَقريرُ أنَّ الصِّدقَ الدِّينِيَّ مَبنِيٌّ على مُناظَرَةِ الواقِعِ يَظَلُّ حالَةً تَقريبِيَّةً غَيرَ مُقنِعَةٍ ما لَم يَكُنْ بِإمكانِنا تَقديمُ مَضمونٍ لِلفِكرَةِ التي تُمَيِّزُهُ مِن أُطروحَةِ التَّناظُرِ الأدنَوِيَّةِ مَعَ بَقائنا أيضًا مُتَناغِمينَ مَعَ تَأويلٍ مَقبولٍ لِما يَعنيهِ المُتَكَلِّمونَ حينَ يَستَعمِلونَ اللُّغَةَ الدِّينِيَّةَ.

وأعتَقِدُ أَنَّ ثَمَّةَ مَجالَيْنِ رَئيسَيْنِ يُمكِنُ أن يُوقَفَ فيهِما على خِلافٍ جَوهَرِيٍّ بينَ مَقارَبَةِ القيمَةِ الظّاهريَّةِ والأَدنَويَّةِ. وسَنَجِدُ في كُلٍّ مِنهُما أَنَّ الصِّدقَ الدِّينِيَّ أكثَرُ مَتانَةً مِمّا تَسمَحُ بِهِ الاستراتيجيا الأَدنَويَّةُ[1].

التّفسير

مِن أسبابِ عَدَمِ الرِّضا عن تَحليلِ الأَدنَويِّينَ لِلصِّدقِ والإحالَةِ والوَصفِ أَنَّ هذهِ المَفاهيمَ يَنبَغي أن تُشيرَ إلى عَلاقَةٍ جَوهريَّةٍ بينَ التَّعبيرِ والشَّيْءِ الذي يُحيلُ عليهِ أو بينَ الجُملَةِ والحَقيقَةِ التي تَصِفُها. والذي يَبدو استِنادًا إلى الأُطروحَةِ الأَدنَويَّةِ أَنَّهُ ما مِن عَمَلٍ حَقيقِيٍّ تَضطَلِعُ بِهِ الكِياناتُ أو الحَقائقُ الدِّينِيَّةُ التي يُحالُ عليها أو تُوصَفُ. بَل الذي يَبدو أَنَّ الإحالَةَ والوَصفَ يُسبَغانِ على صِنفٍ مِن الجُمَلِ والأَقوالِ التي تَفي بِمُقتَضَياتِ مَعاييرَ تَركيبِيَّةٍ مُعَيَّنَةٍ وتَفي أيضًا بِمُقتَضَياتِ التَّسويغِ. لكِن يَبدو أَنَّ صِدقَ الجُملَةِ الدِّينِيَّةِ لا يَرجِعُ إلى مُجرَّدِ كَونِها تَفي [141] بِمُقتَضَياتِ مَعاييرَ تَركيبِيَّةٍ وداخليَّةٍ مُعَيَّنَةٍ لِلخِطابِ بَل يَرجِعُ أيضًا إلى كَونِها تُمَثِّلُ الحالَةَ المُستَقِلَّةَ عن العَقلِ التي تَصِفُها، وقَد تَرتَبِطُ سَبَبِيًّا بِها. ويَبدو أَنَّ الأَدنَوِيِّينَ لا يُقَدِّمونَ سِوَى فِكرَتَيْنِ بَديلَتَيْنِ لِلصِّدقِ والإحالَةِ، كُلُّ ما تَفعَلُهُ الحَقائقُ الدِّينِيَّةُ فيهِما هوَ أَنَّها تكونُ مَرايا تَعكِسُ حَرَكاتٍ مُسَوَّغَةً يُضطَلَعُ بِها في داخِلِ لُعبَةٍ لُغَوِيَّةٍ دينِيَّةٍ، بَدَلًا مِن أن تُنشِئَ واقِعًا وَراءَ اللُّغَةِ.

ومِن وَسائلِ إحرازِ تَقَدُّمٍ في هذا الخِلافِ تَعيينُ التَّفسيراتِ التي يُمكِنُ أن تُسهِمَ فيها الحَقائقُ أو الصِّفاتُ الدِّينِيَّةُ، والتي ما كُنّا لِنَتَوَقَّعَها لَو كانَ الخِطابُ الدِّينِيُّ قابِلًا لِلصِّدقِ الأَدنَوِيِّ فَحَسْبُ. وقَد اقتَرَحَ كرِسْبِن رايت طَريقَةً لِقِياسِ الإسهامِ التَّفسيرِيِّ لِلحَقائقِ أو الصِّفاتِ الدِّينِيَّةِ في الخِطاباتِ المُختَلِفَةِ. فهوَ يُحَدِّدُ

---

(1) استَنَرْتُ في انتِقائي لِمجالَي الخِلافِ بِالمُقتَرَحاتِ العامَّةِ التي قَدَّمَها كرِسْبِن رايت (1992). وثَمَّةَ مَجالٌ ثالِثٌ مُمكِنٌ لِلاختِلافِ يتعلَّقُ بِطَبيعَةِ الخِلافِ الدِّينِيِّ ويَصُبُّ في مَصلَحَةِ نظريَّةِ القيمَةِ الظّاهريَّةِ مِن خِلالِ ما سَيُقالُ عن تَعالي الصِّدقِ الدِّينِيِّ على الدَّليلِ.

الإسهامَ الذي تَضطَلِعُ بِهِ الحَقائقُ أو الصِّفاتُ المُفتَرَضَةُ في الخِطابِ تُجاهَ تفسيرِ الأشياءِ لا الاعتِقاداتِ المُتعلِّقَةَ بهذهِ الحَقائقِ بِوَصفِهِ *دَورَها الكَونِيّ*. إذ إنَّ سَعَةَ دَورِها الكَونِيِّ تُمثِّلُ قِياسًا لِمَدَى الإسهامِ الذي تُؤَدِّيهِ الحَقائقُ أو الصِّفاتُ التي يَصِفُها الخِطابُ تُجاهَ تفسيراتٍ كهذهِ؛ أي دَورِها في تفسيرِ أيِّ شَيْءٍ سِوَى اعتِقاداتِنا المُتعلِّقَةِ بِهذهِ الحَقائقِ. مِثالُ ذلكَ، أنَّ صِفَةَ *المُرَبَّعِيَّةِ* لِلطّاوِلَةِ لَها دَورٌ كَونِيٌّ واسِعٌ. فهيَ تَكشِفُ عَن سَبَبِ رُؤيَتي الطّاوِلَةَ مُربَّعَةً، وسَبَبِ إمكانِ وَضعِ هذهِ الطّاوِلَةِ جَنبًا إلى جَنبٍ معَ طاوِلاتٍ أُخرَى مُختلِفَةِ الأشكالِ لِتَكوينِ نَمَطٍ مُعَيَّنٍ، وسَبَبِ احتِمالِ أن أُؤذِيَ نَفسي إذا سَقَطتُّ مِن فَوقِها، وسَبَبِ انكِسارِها بِطَريقَةٍ مُعَيَّنَةٍ إذا ضُرِبَتْ في نُقطَةٍ مُعَيَّنَةٍ، وهلُمَّ جَرًّا. فالمُرَبَّعِيَّةُ تتمتَّعُ إذَن بِدَورٍ تَفسيرِيٍّ في عِلمِ النَّفسِ، وعِلمِ الحَياةِ، والرِّياضِيّاتِ، وفي خِطاباتٍ أُخرَى. والمَرَحُ، بِعَكسِ ذلكَ، صِفَةٌ ذاتُ دَورٍ كَونِيٍّ ضَيِّقٍ. إذ إنَّ لَدَينا اعتِقاداتٍ تتعلَّقُ بِما هوَ مَرِحٌ قَد نُفَسِّرُها بِكَونِ أشياءَ مُعَيَّنَةٍ مَرِحَةً؛ مِثالُ ذلكَ أنّا قَد نُفَسِّرُ الرَّأيَ الشّائعَ الذي مُفادُهُ أنَّ فَريقَ مونتي بايثون *Monty Python** مَرِحٌ وأنَّ فيلم *أكاديمِيَّة الشُّرطَة 5 Police Academy V*** لَيسَ مَرِحًا بِقَولِنا إنَّ الأوَّلَ مَرِحٌ وإنَّ الثّانيَ لَيسَ مَرِحًا. بيدَ أنَّ المَرَحَ لَيسَ لَهُ دَورٌ في تَفسيرِ الحَقائقِ غَيرِ الهَزْلِيَّةِ. فلِمَ كانَ الدَّورُ الكَونِيُّ الواسِعُ مُهِمًّا؟ فالذي يَراهُ الأدنوِيُّونَ أنَّ الحَقائقَ المُتعلِّقَةَ بِمَوضوعِ الخِطابِ الخِلافِيِّ يُحَدِّدُها ما تُسَوِّغُهُ المَعاييرُ الدّاخليَّةُ لِذلكَ الخِطابِ. فلا نَتَوَقَّعُ،

* مونتي بايثون: فَريقٌ بريطانيٌّ مُختَصٌّ بالكوميديا السُّرياليَّةِ، ابتَكَرَ سيرك مونتي بايثون الطّائر، وهو بَرنامجٌ بريطانيٌّ كوميديٌّ هَزليٌّ أذاعَتْهُ أوَّلَ مَرَّةٍ هَيئةُ الإذاعَةِ البريطانيَّةِ في الخامسِ من أكتوبر عامَ 1969، إذ أُنجِزَتْ خَمسٌ وأربَعونَ حَلقَةً لِما يَزيدُ على أربعِ مُسَلسَلاتٍ. وتطَوَّرَ البايثون مِن المَسَلسَلاتِ التّلفازيَّةِ إلى شيءٍ أكبرَ في النِّطاقِ والتَّأثيرِ، مُنتِجًا عَدَدًا مِن العُروضِ المسرحيَّةِ، والأفلامِ، والألبوماتِ المتعدِّدَةِ، والكُتُبِ المتنوِّعَةِ، والعُروضِ المسرحيَّةِ الموسيقيَّةِ، فَضلًا عن انطلاقِ أعضاءِ الفَريقِ إلى النُّجوميَّةِ الفَرديَّةِ. وقَد قورِنَ تأثيرُ الفَريقِ في الكوميديا بتأثيرِ فَريقِ البيتلز the Beatles في الموسيقى. [المُترجِم]

** أكاديمِيَّةُ الشُّرطَةِ 5: جُزءٌ مِن سِلسِلَةِ أفلامِ (أكاديمِيَّة الشُّرطَة)، التي انطَلَقَ عَرضُها عامَ 1984، ظَهَرَ عامَ 1988. [المُترجِم]

عُمومًا، أن يُباحَ لَنا استِعمالُ أوصافِ الصِّفاتِ والحَقائقِ التي في الخِطابِ الخِلافِيِّ في سِياقاتٍ أوسَعَ، كتَفسيراتِ مَوضوعٍ مُختَلِفٍ مَوصوفٍ في خِطابٍ مُختَلِفٍ. فَاكتِشافُ أنَّ لِصِفَةٍ مّا دورًا كَونِيًّا واسِعًا سَبَبٌ لافتِراضِ أنَّ التّأويلَ الأدنَويَّ لِلخِطابِ الذي تَنتَمي إليهِ خَطَأٌ.

وقَد يَظهَرُ بادِيَ الرَّأيِ أنَّ هذا الاختِبارَ غَيرُ فَعّالٍ لأنَّ بِالإمكانِ استِعمالَهُ لبَيانِ أنَّ لِلصِّفاتِ التي يَفتَرِضُها أيُّ خِطابٍ خِلافِيٍّ تَقريبًا دَورًا كَونِيًّا واسِعًا. فحَتّى المَرَحُ يَبدو أنَّ لَهُ [142] استِعمالًا تَفسيرِيًّا في خِطاباتٍ أُخرَى، نَحوِ 'ضَحِكَ لأنَّ الأمرَ كانَ مَرِحًا'؛ وفي هذهِ الحالَةِ يَبدو أنَّ الصِّفَةَ تُفَسِّرُ رَدَّ فِعلٍ سُلوكِيًّا. على أنّي في الوَقتِ الذي لا أُريدُ فيهِ أن أَستَبعِدَ إمكانَ تَأويلٍ لاأدنَوِيٍّ لِلخِطابِ الهَزْلِيِّ، لا أَرَى هذا مِثالًا مُضادًّا مُقنِعًا لِضيقِ الدَّورِ الكَونِيِّ لِلمَرَحِ. إذ إنَّ قَولَنا: 'ضَحِكَ لأنَّ الأمرَ كانَ مَرِحًا' لا يَفتَرِضُ صِفَةَ مَرَحٍ سَبَّبَت رَدَّ فِعلٍ سايكولوجِيًّا/ سُلوكِيًّا بَل يُمكِنُ فَهمُهُ على النَّحوِ الآتي: 'ضَحِكَ لأنَّهُ وَجَدَ الأمرَ مَرِحًا'. فاعتِقادُهُ أنَّ الأمرَ مَرِحٌ هوَ الذي سَبَّبَ رَدَّ الفِعلِ. وعلى العُمومِ، يُمكِنُ القَولُ إنَّ تَفسيراتِ تَحَسُّساتِ النّاسِ الهَزْلِيَّةِ ورُدودِ أفعالِهِم اللاحِقَةِ يُمكِنُ تَقديمُها مِن غَيرِ افتِراضِ صِنفِ صِفاتٍ هَزْلِيَّةٍ لَها دَورٌ كَونِيٌّ واسِعٌ. فَسَعَةُ الدَّورِ الكَونِيِّ لا تَقتَضي إذَن مُجَرَّدَ استِعمالٍ مَحمولٍ في تَفسيراتِ مَجموعَةٍ مُختَلِفَةٍ مِن الخِطاباتِ بَل تَقتَضي أيضًا أن تُؤَدِّيَ الصِّفَةُ المُناظِرَةُ عَمَلًا تَفسيرِيًّا أصيلًا.

فهَل الدَّورُ الكَونِيُّ لِلحَقائقِ والصِّفاتِ الدِّينِيَّةِ واسِعٌ؟ أي هَل تُسهِمُ الحَقائقُ والصِّفاتُ الدِّينِيَّةُ في تَفسير الاعتِقاداتِ اللادينِيَّةِ؟ فإذا كانَت تَفعَلُ ذلكَ، فيُمكِنُ القَولُ إذَن إنَّ ما هوَ صادِقٌ بِشَأنِ هذهِ الحَقائقِ أو الصِّفاتِ الدِّينِيَّةِ لا تُحَدِّدُهُ تَمامًا المَعاييرُ الدّاخليَّةُ لِلخِطابِ الدِّينِيِّ، وإنَّ الأُطروحَةَ الأدنَوِيَّةَ لِلصِّدقِ الدِّينِيِّ لَيسَت وافِيَةً بِالغَرَضِ. فالدَّورُ الكَونِيُّ الواسِعُ يُفَعِّلُ التَّمايُزَ بينَ الصِّدقِ الدِّينِيِّ والتَّسويغِ استِنادًا إلى المَعاييرِ الدّاخليَّةِ لِلخِطابِ الدِّينِيِّ.

ويُلحَظُ أنَّ النِّقاشَ بِشَأنِ الدَّورِ الكَونِيِّ لِلحَقائقِ الدِّينِيَّةِ مَألوفٌ جِدًّا في

فَلسَفَةِ الدِّينِ، على الرَّغمِ مِن أنَّهُ لَم يُعرَضْ مِن زاوِيَةِ سَعَةِ الدَّورِ الكَونيِّ. فَلْنَأخُذْ مِثالًا لِذلكَ الخِلافَ بِشأنِ طَبيعَةِ المُعجِزاتِ. فمِن الواضِحِ أنَّ المُعجِزَةَ أنموذَجٌ لِصِفَةٍ دِينِيَّةٍ - فِعلِ إلهِيٍّ - مُفَسِّرَةٍ لِحَدَثٍ يُمكِنُ أن يُلحَظَ على نَحوٍ مَحسوسٍ. فَعلى وَفقِ مُقارَبَةِ القيمَةِ الظّاهريَّةِ لِما يَعنيهِ قَولُنا إنَّ ثَمَّةَ مُعجِزَةً قد حَدَثَتْ، يُشَكِّلُ الفِعلُ الإلهِيُّ جُزءًا مِن تَفسيرِ الحَدَثِ المَحسوسِ. وعلى ذلكَ، تَكونُ المُعجِزاتُ واسِعَةً كَونيًّا(2). ثُمَّ إنَّهُ إذا ما ظَهَرَ الفِعلُ الإلهِيُّ في أُطروحَةٍ كامِلَةٍ لِلحَدَثِ، فلا بُدَّ مِن أن تَمتَدَّ الحَقائقُ المُتعلِّقَةُ بِالفِعلِ الإلهِيِّ إلى ما وَراءَ الفِكرَةِ الأدنَوِيَّةِ لِلصِّدقِ التي أضفاها عليها الوَفاءُ بِمُقتَضَياتِ المَعاييرِ الدّاخليَّةِ لِلخِطابِ الدِّينِيِّ. والنَّتيجَةُ أنَّ الصِّدقَ المُتعلِّقَ بِالفِعلِ الإلهِيِّ لا يُمكِنُ أن يَكونَ صِدقًا أدنَوِيًّا. وما دامَ الحَديثُ عن الفِعلِ الإلهِيِّ مُتَغَلغِلًا في الخِطابِ الدِّينِيِّ، فلا يُمكِنُ أيضًا أن يَكونَ الصِّدقُ في الدِّينِ صِدقًا أدنَوِيًّا. وبِالضِّدِّ مِن ذلكَ، قَد تَعمِدُ أُطروحَةٌ عن المُعجِزاتِ لِمُؤَيِّدِينَ لِلأدنَوِيَّةِ إلى تَأويلِ الحَديثِ عن المُعجِزاتِ بِأنَّهُ طَريقَةٌ لِلتَّفكيرِ في حَدَثٍ لَهُ دَلالَةٌ دينِيَّةٌ مَخصوصَةٌ. بيدَ أنَّ هذا التَّحليلَ يَسمَحُ بِوُضوحٍ بِوُجودِ تَفسيرٍ فيزيائيٍّ لِلحَدَثِ لا يَعتَمِدُ على الإحالَةِ على الفِعلِ الإلهِيِّ (Tillich, 1989). ولِفِتغِنشتاين تَعليقٌ يُوضِحُ ذلكَ، جاءَ فيهِ: [143]

> إذا أرادَ المَرءُ أن يَفهَمَ كما فَهِمَ دستويفسكي Dostoevsky* مُعجِزاتِ المَسيحِ كمُعجِزَةِ عُرسِ قانا**، فعليهِ أن يَعُدَّها رُموزًا. إنَّ تَحويلَ الماءِ إلى

---

(2) ثَمَّةَ كِتاباتٌ أساسِيَّةٌ ومَشهورَةٌ في المُعجِزاتِ، رادَ كَثيرًا منها هيُوم (1975a, section X).

* فيدور ميخائيلوفتش دستويفسكي (1821-1881م). رِوائيٌّ، وكاتِبُ قِصَصٍ قَصيرَةٍ ومَقالاتٍ، وفَيلَسوفٌ روسيٌّ. يُعَدُّ مِن أكبرِ الكُتّابِ الرُّوسِ، ومِن أفضلِ كُتّابِ العالَمِ. شَخصيّاتُهُ على الدَّوامِ في أقصى حالاتِ اليَأسِ وعلى حافَةِ الهاوِيَةِ، وتَنطوي رواياتُهُ على فَهمٍ عَميقٍ للنَّفسِ البَشرِيَّةِ، وتُقَدِّمُ تَحليلًا ثاقِبًا لِلحالاتِ السِّياسِيَّةِ والاجتماعيَّةِ والرُّوحيَّةِ لِروسيا في وَقتِهِ. مِن مؤلَّفاتِهِ: (الإخوةُ كارامازوف)؛ و(الجَريمَةُ والعِقاب)؛ و(الأبلَه). [المُترجِم]

** قانا: قَريَةٌ صَغيرةٌ في منطقةِ الجَليلِ تَبعُدُ عِشرينَ كيلومترًا شَماليَّ النّاصِرَةِ. وقَد وَرَدَ في إنجيلِ يوحنّا (2: 1-12) أنَّهُ أُقيمَ فيها عُرسٌ دُعِيَتْ إليهِ مريمُ أُمُّ يَسوعَ، ودُعِيَ إليهِ يَسوعُ أيضًا مَعَ تَلاميذِهِ. وفي أثناءِ الاحتِفالِ بِالعُرسِ نَفِدَتِ الخَمرُ. ولَحِظَتْ مريمُ أُمُّ يَسوعَ ذلكَ، فأعلَمَتْ =

> خَمرٍ أمرٌ مُذهِلٌ في أَحسَنِ الأَحوالِ وإنّا لَنَنظُرُ في دَهشَةٍ إلى مَن يُمكِنُهُ فِعلُ ذلكَ، لكِنَّ هذا كُلُّ ما في الأمرِ... ولا بُدَّ أَنَّ العَجيبَ هوَ ما يُعطي هذا الفِعلَ مَضمونَهُ ومَعناهُ. ولا أعني بِذلكَ غَيرَ الاعتِيادِيِّ أو الذي لا سابِقَ لَهُ بَل أعني بِهِ الرُّوحَ التي فُعِلَ بِها والتي لَيسَ تَحويلُ الماءِ إلى خَمرٍ إلّا رَمزًا لَها أو إيماءً (إن جازَ التَّعبيرُ). (2003, p. 91)

فإن لَم تَكُنِ المُعجِزَةُ إلّا حَدَثًا غَيرَ اعتِيادِيٍّ أو رَمزِيًّا ذا دَلالَةٍ دينِيَّةٍ، فإنَّ الدَّورَ الكَونِيَّ لِلحَديثِ عن الفِعلِ الإلهِيِّ يَبقَى ضَيِّقًا ومُنسَجِمًا مَعَ قِراءَةٍ أدنَوِيَّةٍ لِلصِّدقِ الدِّينِيِّ.

لكِن هَل يُوجَدُ استِعمالٌ لِلمَحمولاتِ الدِّينِيَّةِ في تَفسيراتٍ لا تَتَوافَرُ لَها قِراءَةٌ أَدنَوِيَّةٌ مَقبولَةٌ؟ فَلْنَنظُرْ في تَفسيراتِ وُجودِ الكَونِ وسِماتٍ مُعَيَّنَةٍ فيهِ. فحَيثُما افتُرِضَتْ فَعّالِيَّةُ اللهِ، على سبيلِ المِثالِ، لِتُفَسِّرَ الظُّروفَ أو الأحوالَ الفيزيائِيَّةَ المُنتَظِمَةَ التي لا يَتَوافَرُ لَها تَفسيرٌ عِلمِيٌّ، كانَ فِعلُ اللهِ مُفَسِّرًا لِحالاتٍ لادينِيَّةٍ ولاعتِقاداتِنا بِشَأنِها. وما مِن شَكٍّ في أَنَّ هذهِ التَّفسيراتِ كانَتْ مَثارَ جَدَلٍ واعتِراضاتٍ مُختلِفَةٍ. فقد يَرَى بَعضُهُم، على سبيلِ المِثالِ، أَنَّ الأَساسَ الذي نَستَنِدُ إليهِ غَيرُ كافٍ لافتِراضِ أَنَّ ثَمَّةَ إلهًا قَديرًا ومُنعِمًا قَد دَبَّرَ العالَمَ بِإزاءِ فَرضِيَّةٍ دينِيَّةٍ أُخرَى، كوُجودِ عِدَّةِ آلِهَةٍ مُسؤولَةٍ عن السِّماتِ المُختلِفَةِ لِلعالَمِ. ويُوجَدُ اعتِراضٌ آخَرُ يُناقَشُ على نِطاقٍ واسِعٍ هوَ أَنَّ ثَمَّةَ سِماتٍ كَثيرَةً لِلعالَمِ لا تُفَسِّرُها الفَرضِيَّةُ التَّأليهِيَّةُ تَفسيرًا كافِيًا، كَوُجودِ الشَّرِّ. على أَنَّ هذهِ حُجَجٌ مُعارِضَةٌ لِصِدقِ التَّفسيرِ الدِّينِيِّ؛ فهيَ لا تتحدّى مُلاءَمَةَ الصِّفاتِ الدِّينِيَّةِ لأَداءِ دَورٍ تَفسيرِيٍّ في تَعليلِ الصِّفاتِ الفيزيائِيَّةِ لِلكَونِ أو وُجودِ الكَونِ. وعلى ذلكَ، يُمكِنُ القَولُ إنَّ التَّفسيراتِ الدِّينِيَّةَ-الفيزيائِيَّةَ تُقَدِّمُ دَليلًا على سَعَةِ الدَّورِ الكَونِيِّ لِلخِطابِ الدِّينِيِّ. فإذا كانَ الفِعلُ الإلهِيُّ يُشَكِّلُ جُزءًا مِن تَفسيرٍ مُقنِعٍ لِحَدَثٍ فيزيائِيٍّ، فالحَقائقُ

= بِالأمرِ ابنَها، وفي نِيَّتِها أن يُنقِذَ أهلَ العُرسِ مِن الحَرَجِ والخَجَلِ بِمُعجِزَةٍ يَصنَعُها لَهُم. وبَعدَ حَديثٍ قَصيرٍ بَينَها وبَينَهُ استَجابَ لِطَلَبِها وصَنَعَ المعجِزَةَ المطلوبةَ. [المُتَرجِم]

المُتعلِّقَةُ بِالفِعلِ الإلهِيّ لا تُحَدِّدُها كُلِّيًّا المَعاييرُ الدّاخليَّةُ لِلخِطابِ الدِّينِيّ، والصِّدقُ الدِّينِيُّ ليسَ أدنَوِيًّا إذَن.

ويَحتاجُ الرَّدُّ الأدنَوِيُّ على ذلكَ إلى إظهارِ أنَّ التَّفسيراتِ الدِّينِيَّةَ-الفيزيائيَّةَ لا تَعتَمِدُ حَقًّا على افتِراضِ أيَّةِ حَقائقَ أو صِفاتٍ دينِيَّةٍ. ومِن الخِياراتِ المُتاحَةِ تَأويلُ التَّفسيراتِ المُفترَضَةِ لِلفِعلِ الإلهِيّ بِطَريقَةٍ مُشابِهَةٍ لِنَحوِ 'ضَحِكَ لأنَّ الأمرَ كانَ مَرِحًا'. وقَد يَكونُ الأدنَوِيُّونَ قادِرِينَ على التَّحَرُّكِ إلى الأمامِ مَعَ أمثِلَةٍ كمِثالَيْ 'شُفِيَ بِقُدرَةِ اللهِ' و'فَعَلَتْ ذلكَ لأنَّ اللهَ أمَرَها أن تَفعَلَهُ'، اللَّذَيْنِ [144] يُمكِنُ تَأويلُهُما بِقَولِنا: 'شُفِيَ لأنَّهُ اعتَقَدَ أنَّ اللهَ شَفاهُ' و'فَعَلَتْ ذلكَ لأنَّها اعتَقَدَتْ أنَّ اللهَ أمَرَها أن تَفعَلَهُ'، على التَّوالي. وبِإمكانِ الأدنَوِيِّينَ أن يُقَدِّمُوا أُطروحَةً مُشابِهَةً لِتَفسيراتٍ دينِيَّةٍ-سايكولوجيَّةٍ ودينِيَّةٍ-سُلوكِيَّةٍ أُخرَى لِلدِّفاعِ عن مَوقِفِهِم وهوَ أنَّهُم لا يَفتَرِضونَ صِفاتٍ دينِيَّةً ذَواتِ دَورٍ كَونِيٍّ واسِعٍ. لكِن يَصعُبُ أن نَفهَمَ كيفِيَّةَ إمكانِ تَوسيعِ هذهِ الاستراتيجيا لِتَشمَلَ التَّفسيراتِ الدِّينِيَّةَ-الفيزيائيَّةَ التي نَحنُ بِصدَدِ النَّظَرِ فيها. فتأويلُ جُملَةٍ نَحوِ 'العالَمُ مَوجودٌ لأنَّ اللهَ خَلَقَهُ' على أنَّها لا تَفتَرِضُ وُجودَ خالِقٍ إلهِيٍّ غَيرُ مُنصِفٍ لِما يَقصِدُهُ المُتَكلِّمُ. ولا غَرابَةَ في أن تَكونَ هذهِ مُشكلَةً لِلأدنَوِيَّةِ لأنَّ التَّفسيراتِ الدِّينِيَّةَ-الفيزيائيَّةَ لا تَنشَأُ مِن اعتِباراتٍ دينِيَّةٍ فقَط بَل تَنشَأُ أيضًا مِن ثَغَراتٍ في النَّظَرِيَّةِ العلمِيَّةِ الحديثَةِ. وإنَّ افتِقارَنا إلى أُطروحَةٍ فيزيائيَّةٍ مُقنِعَةٍ كُلِّيًّا لِلانتِظامِ ولِقَوانينِ الطَّبيعَةِ ولِوُجودِ الكَونِ وما إلى ذلكَ لَهُوَ السَّبَبُ الدَّقيقُ الدّاعي إلى افتِراضِ الصِّفاتِ الدِّينِيَّةِ مِن أجلِ أن تُقَدِّمَ لَها تَفسيرًا. لِذلكَ، لا يُمكِنُنا أن نُغفِلَ الإحالَةَ على الصِّفاتِ الدِّينِيَّةِ بِتَفسيرٍ أدنَوِيٍّ يَستَنِدُ إلى تَفسيراتٍ دينِيَّةٍ-فيزيائيَّةٍ.

فهَل بِوُسعِ الأدنَوِيِّينَ الذَّهابُ إلى أنَّ التَّفسيراتِ الدِّينِيَّةَ-الفيزيائيَّةَ مُخطِئَةٌ وأنَّها لِذلكَ لا تُمِدُّنا بِدليلٍ على أنَّ لِلحَقائقِ الدِّينِيَّةِ دَورًا كَونِيًّا واسِعًا؟ فهذهِ الحُجَّةُ قَد أُسيءَ وَضعُها. فالذي كُنْتُ أُنافِحُ عنهُ هوَ أنَّ لِلحَقائقِ والصِّفاتِ الدِّينِيَّةِ (لِبَعضِها في أقَلِّ تَقديرٍ) دَورًا كَونِيًّا واسِعًا لأنَّها ذلكَ النَّوعُ مِن الحَقائقِ والصِّفاتِ